الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



نور عبد المجيد

الحرمان الكبير


صفحة كتب
الرجاء شراء الكتاب من المكتبات
دعما للكاتب ولكي لا تضيع مجهوداته سدى!
مع تحيات فريق صفحة كتب
www.facebook.com/the.Boooks

الحرمان الكبير

رواية

نور عبد المجيد





الطبعة الأولى
1429 هـ – 2008 م

ISBN: 978-614-421-636-1



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إهداء

إلى الصغيرة التي بدأت تسألني ما هو الحب وما هي السعادة؟!

إلى «شهد».. التي أعلم أنها لن تعي أبداً أن قليلًا من الحب وقليلًا من القروش يكفيان لصنع سعادة كبيرة فقط إ
صاحبهما كثير من النقاء والزهد.

ولكن يبقى طريق الزهد وحده له ثمنٌ كبير..

من أجلك ومن أجل قلوب صغيرة تظن أن الحب وحده طوق النجاة..

من أجل قلوب كثيرة لا تعلم أن الحب يصبح في لحظة هو الفخ الكبير..

إلى ابنتي:

ويوماً ستعلمين أن هناك امرأة خاضت رحلة طويلة بحثاً عن وهم كبير..

امرأة تعلن اليوم أنك وحدكِ حب العمر وسعادته!!

مقدمة..

هل السعادة في الثروة؟!

أم أن السعادة في لحظات العشق والهوى؟!

وهل تشتري الثروة سعادة؟!

وهل تكفي لحظات العشق لصنع سعادة؟!

أم أن السعادة تبقى دوماً هي ذاك الشيء الذي لا تملكه أيدينا ونراه يتأرجح في أيدي الآخرين..

سيبقى السؤال قائماً ويبقى البحث مستمراً ما استمرت الحياة..

وقد ينقضي العمر وقد تنتهي الحياة ونحن لا نعلم أن السعادة ستبقى..

تبقى وحدها الوهم الكبير!!

نور عبد المجيد ٢٠٠٨

كان صباح السبت الأول من مايو.. وكان الهدوء يلتف بحنان حول أشجار شارع 85 بسرايات المعادي والتي طال فيها وقوف الأشجار وسكنت فروعها مئات الأجيال من العصافير التي يحلو لها طول الثرثرة مع نسمات الصباح الباردة.

من خلف نافذة إحدى أجمل فيلات المعادي وقصورها، ومن خلف نافذة تطل على حديقة رائعة لم تدع زهرة جميلة إلا واحتوتها في ذكاء..

هناك ومن خلف تلك النافذة نهضت فريدة من فراشها في خفة..

إنها السابعة صباحاً.. تعلم دون حتى النظر إلى الساعة.. وبعد لحظات كانت تقف أمام مرآتها لتستعد للذهاب إلى عملها في مستشفى والدها.. مستشفى الدكتور مصطفى سالم.. جراح القلوب الأول في مصر والعالم العربي بأكمله..

وابتسمت، إنها لا تصدق أبداً أن هذه الساعات الطويلة التي تقضيها بجواره في البيت والمستشفى تزيدهما حباً وشوقاً وكأنهما من عشاق الأساطير والتاريخ.

هي وهو هنا وهناك معاً.. دوماً معاً..

نظرت فريدة إلى دولاب ملابسها وابتسمت.. إن «ماجي» تضع لها كل يوم شيئاً جديداً.. واختارت كالعادة بنطلوناً من الچينز الأزرق وقميصاً من القطن الأبيض وعندما مالت برأسها إلى الخلف ليقع شعرها فوق كتفيها في حنان تذكرت تلك القصة التي كان يحكيها لها والدها دوماً وهي طفلة. كان يقول إنه ذات صباح هربت بعض من خيوط الشمس من السماء وحين عجزت عن العودة إلى السماء مرة أخرى طافت كوكب الأرض بحثاً عن مكان جميل تسكنه حتى وجدت طفلة جميلة.. لا طفلة كانت أو ستكون في مثل جمالها لهذا أسموها «فريدة» لأنه لا طفلة سواها سكنت خيوط الشمس رأسها..

فريدة جميلة لها أنف دقيق رائع ينتصب في كبرياء وكأنه خُلق ليعطر كل نسمة هواء تمر به، لها شفتان ورديتان مكتنزتان تخفي خلفهما أسنان بيضاء منتظمة وكأنها قطع من لؤلؤ نادر..

وبين جفنيها عينان زرقاوان كأنهما نهران من المياه العميقة ينتصب فوقهما حاجبان رائعان وكأنهما حارسان على حدود اتساعهما.

إنها أكثر من جميلة.. تذكر جيداً يوم أحضرها والدها وهي في التاسعة من عمرها بعد وفاة أمها الباريسية إلى مصر.. تذكر جيداً كيف شهقت ماجي زوجة أبيها وهي تنظر إليها وقالت:

مصطفى.. دي تابلوه.. تابلوه يا مصطفى..

وعادت من ذكرياتها تنظر إلى مرآتها ثم انحنت لتضع في قدميها الصغيرتين حذاء أبيض لا كعب له..

فريدة لا تحتاج إلى كعب أو ماكياچ.. إنها قطعة متكاملة يدخل فيها الوجه والجسد منافسة عقيمة لا حدود لها تدعك حائراً تسأل في جنون:

أيهما أكثر جمالًا؟ وفي أيهما تتأمل؟!

وامتدت يدها لتجذب حقيبتها «الشانيل» ثم قالت في دلال: ادخل..

تعلم هذه الطرقات الخفيفة التي تسمعها كل صباح..

وأطل د. مصطفى ليسرع نحوها ويضمها في حنان ولهفة وكأن زمناً مر دون أن يراها، وتبعثرت خيوط الشمس على كتفيه وعادت فريدة تنظر إليه إنه رائع أنيق ورغم أعوامه الخمسين إلا أنه مازال يدير رؤوس النساء جميعاً وقالت:

أنا جاهزة..

وتأبطت ذراعيه في فرح ليهبطا معاً درجات سلّم المنزل الكبير.. إن كل قطعة فيه لا تقل جمالًا وأناقة عن فريدة ووالدها..

وعلى مائدة الطعام الكبيرة وعلى أحد مقاعدها الاثني عشر كانت ماجي تنتظر.. ماجي وكأنها قادمة من مصفف الشعر

لا من غرفة النوم، وجلس مصطفى على يمينها فهي دوماً على رأس المائدة.. وبعثت فريدة بقبلة في الهواء إلى ماجي وهي تدور حول المائدة لتجلس إلى يسارها وهي تقول:

بونچور ماجي..

وما أن جلست حتى مضت تقول:

مش معقول يا ماجي.. نفسي مرة أشوف فيك حاجة متلخبطة.. حاجة واحدة بس يا ماجي..

وابتسمت ماجي وهي ترفع عينيها البنية الجميلة وقالت في حنان:

عارفة يا فريدة اللي يبقى قاصد يلخبط «ماستربيس».. ربنا بعتها له وبإيه؟ بقلم رصاص.. لا القلم عمره حيغير جمالها ولا التابلوه حيسلّم برضة من الشخبطة.. أهو أنت غاوية القلم الرصاص دا.. تقدري تقوليلي ليه ما لبستيش العقد والحلق الـ...

وقاطعتها فريدة ضاحكة:

ماجي أنا رايحة المستشفى مش رايحة حفلة.. وبعدين القلم الرصاص اللي أنت بتقولي عليه دا هو الروح، الروح يا ماجي زي كده شغل «الهاند ميد» لازم يبقى في حتة لخبطة يا ماجي.. أنا ما أعرفش أبقى زيك أبداً..

وابتسمت ماجي ابتسامتها الواسعة وبرقت عيناها وهي تستدير إلى مصطفى وتطمئن أنه لا يهوى القلم الرصاص أبداً.. إنه «أوريچينال ماستربيس» وقالت:

طالعة لمين دي؟ احنا ما فيش حد في عيلتنا كده أبداً..

ولكن فريدة عادت تقول في حماس:

ماجي.. حبيبتي.. إنتي لما بتسافري وبتروحي ديفيليه لكارتييه أو إيف سان لوران مش بتلاقي في أي موديل خصلة شعر طايرة أو زرار مش مقفول أو حتة جنان في الماكياچ.. يا حبيبتي ربنا خلق السما.. السما يا ماجي وخلق فيها سحاب وخلق الأرض وخلق عليها شوية تراب.. دي الروح يا ماجي.. طب جربي مرة كده تسيبي شعرك ولا تلبسي جزمة من غير كولون..

ورفعت ماجي حاجبها في استنكار وابتسم مصطفى وهو ينظر إليهما وأغمض عينيه كأنه لا يستطيع أن يرى كل هذا الجمال مرة واحدة ثم قال لينهي أحد أشكال النقاش اليومية:

ياللا يا فريدة حنتأخر.. إحنا عندنا عملية الساعة تسعة..

ونهضت فريدة وهي تقول:

فكري يا ماجي.. اعمليلي مفاجأة لما أرجع سيبي شعرك ولا أقولك اقطعي زرار من زراير البلوزة اللي انت لابساها..

وقبل أن تكمل كان مصطفى قد جذبها في رفق من ذراعها بعد أن وضع قبلة على رأس ماجي ومضى وهو يقول:

حاكلمك الساعة 12 عشان اقولك حنرجع امتى..

وابتسمت ماجي وهي تراهما يغادران الباب وأغمضت عينيها وهي تدعو لهما بالسلامة.

تنهدت ماجي.. كم مضى على زواجها هي ومصطفى خمسة عشر عاماً تقريباً ومازالت تشتاق إليه، حتى وهو نائم إلى جوارها..

وعادت بذاكرتها إلى الخلف كان والدها سفير مصر في فرنسا آنذاك.. وهناك التقت بمصطفى بعد أن فقد زوجته الفرنسية في حادث بكى له الكثيرون، ومنذ تلك اللحظة التي رأته فيها ورأت دموعاً كثيفة تتراقص في عينيه في كبرياء عنيد شعرت أنها أبداً لن تترك هذا الرجل.. وشعر هو أن ماجي هي طوق النجاة.. عارضها والدها كثيراً وأرسلها إلى مصر ولحق بها مصطفى وتزوجها وغضب والدها طويلاً.. لم يكن يحتمل أبداً أن تبدأ ماجي.. ابنته المدللة حياتها مع رجل أرمل وأب لطفلة في التاسعة من عمرها رغم كونه طبيباً ناجحاً يعمل في أحد أهم مستشفيات باريس والتي يمتلكها والد زوجته.. كان يخشى على ماجي من كل هذه القصص.. ماجي وأمجد هما ثروته ولكن مع الوقت علم أن ماجي لن تعود إلى فرنسا، وسافر مصطفى وعاد عشرات المرات وأنهى كل متعلقاته هناك وعاد بثروة كبيرة.. عاد وبيده فريدة ليحيا الجميع معاً.

أحبتها ماجي لأنها تعلم أنها قطعة من روح مصطفى الذي أصبح هو روح ماجي..

ومرت الأعوام وصفح عنها سعادة السفير وأصبحت ماجي ومصطفى وفريدة هم عائلته الصغيرة التي يحبها ربما أكثر من أمجد الذي انضم إلى السلك الدبلوماسي هو الآخر.

ثم عادت ماجي تتنهد من جديد وهي تتذكر أمجد.. إنه في سن مصطفى الآن.. كم مضى عليها دون أن تراه.. بالتحديد خمسة أعوام.. منذ تلك الليلة التي دق فيها جرس الهاتف في منزلها وعندما سمع أمجد صوتها قال في هدوء وفي قسوة باردة:

ماجي.. بابا فاجأته أزمة قلبية ومات من ساعة..

ولم ينتظر حتى لحظة أخرى يلقي فيها بأي كلمة إلى أذنيها.. وضع سماعة الهاتف في هدوء وتركها وحدها تقف في ذهول.

لا تذكر كم من الوقت مضى وهي مشلولة الرأس والإحساس، ولكن ما تذكره جيداً أنها لم تذرف دمعة واحدة حتى رأت مصطفى يقف أمامها.. عندها ألقت برأسها على كتفيه وأطلقت سراح زلزال عنيف سكن كيانها..

بكت.. بكت في حزن لم تعرف مثله أبداً..

بكت في ضعف وفي كبرياء.. بكت كما لم يعرف أحد البكاء يوماً..

وحين التقت بأمجد ليلتها أبداً لم تعرفه.. أبداً لم يكن هو أمجد الذي تقاسمت معه لحظات حب وطفولة.. لم يكن أبداً أمجد الذي ضمته إليها ليالي طويلة عند وفاة أمهما وكأنها أصبحت هي أمه رغم أنها تصغره بسبعة أعوام.

ضمته يوم ماتت الأم ولم يقترب منها يوم مات الأب الذي كان يعلم أنه نبض قلبها..

إنها تذكر جيداً كيف اشتد ذعرها في ذلك الوقت وكيف وبعد انقضاء ليالي العزاء الأولى بكل أحداثها وتفاصيلها المريرة.. تذكر كيف وقفت تصارع لوعتها وهي تمسك بيد مصطفى في خوف وتنظر إلى أمجد وترجوه أن يذهب للمبيت معها لكنه قاطعها في هدوء قائلًا:

ماجي.. أنتي معاك مصطفى وأنا كويس.. أنا بس عايز أقولك حاجة مهمة خالص..

المرحوم بابا كان بايعلي الفيلا دي وعمارة منشية البكري من سنة تقريباً ونصيبك في الفلوس السايلة أنا حاحطه في..

لحظتها اتسعت عينا ماجي وقاطعته في صوت مختنق:

بابا.. المرحوم؟ بابا يا أمجد بقى المرحوم؟!

وزاد ضغط يد مصطفى على يدها وتدخّل قائلًا في حزم:

أمجد.. فيه إيه يا أمجد.. سيادة السفير لسه..

وقاطعه أمجد في برود وقال:

النهاردة زي بكرة زي عشر سنين قدام يا مصطفى.. وبعدين أنا حسافر..

وقاطعته ماجي في آخر ما بقي لها من قوة:

أمجد.. أنا مش عايزة أي حاجة.. صدقني.. أنا كل اللي عايزاه أنت بس الظاهر.. إن البيت ده ماكانش فيه غير بابا؟ بابا قصدي المرحوم بابا.

وأجهشت في بكاء عنيف لينظر إليها أمجد ويقول في صوت خفيض:

أنا آسف لو الكلمة ضايقتك قوي كده..

وانسحب في هدوء.. وسار بها مصطفى إلى سيارته.. ومضى بهما الطريق من مصر الجديدة إلى المعادي دون أن ينبس أحدهما بحرف..

كان مصطفى يقود بيد واحدة ممسكاً يدها باليد الأخرى في قوة وحنان..

وكانت دموعها تنهمر في سخاء صامت ولا شيء يدق رأسها سوى كلمة «المرحوم».

لم تر أمجد بعدها إلا لحظات قليلة ومتفرقة.. وكانت تعلم أن والدها ما باع له شيئاً وأنه فعل كل هذا بالتوكيل الذي أقنعت هي والدها بتقديمه إلى أمجد.. ولم تعترض ولم تناقش أمجد في شيء.. كان يكفيها أنه يعلم أنها تعلم كل شيء..

مرت بها شهور طويلة لا ينقطع فيها بكاؤها وكانت دوماً تبحث عن مصطفى الذي خصص لها معظم وقته في تلك الفترة.. كانت دوما تبكي وإن هدأت قالت في ألم:

أنا آسفة يا مصطفى.. أنا راح مني الاتنين.. بابا وأمجد..

منحها مصطفى الكثير من حنانه وفهمه وبلا كلمات علمت ماجي أن مصطفى وفريدة هما وجه القدر الحاني.. وزاد التصاقها بفريدة التي فقدت أمها وعائلتها الفرنسية بأكملها حيث لم يبق هناك سوى زيارات سنوية قصيرة تقضي فيها أسابيع مع جدتها العجوز.. تماما كما فقدت ماجي الأم ثم الأب والآن الأخ.. الذي لم يبق لها منه سوى مكالمات هاتفية قصيرة لا روح فيها وتصر دوماً هي على إجرائها لمحادثة أمجد..

هكذا سارت الحياة.. حتى بعد أن ذاع صيت مصطفى سالم في مصر وبعد أن أصبح مرشحاً لأن يكون وزيراً للصحة.. وحتى بعد أن اتسعت دائرة المعارف والتي أصبحت تضم كبار رجال الدولة وسيداتها..

إلا أن ماجي لا تشعر أبداً بالسكينة والأمان إلا في تلك اللحظات التي يجتمع فيها الثلاثة معاً.. ماجي ومصطفى وفريدة..

وأعادها صوت عم محمد السفرجي من ذكرياتها وهو يقول:

ماجي هانم.. خلصتِ الفطار؟

وتنهدت ماجي وهي تقول:

أيوة يا عم محمد.. قول من فضلك لأحمد يجهز العربية أنا حانزل كمان نص ساعة!

ä ä ä

كانت سيارة د. مصطفى قد دخلت إلى بوابة المستشفى الكبير وفي هدوء رفع كل من مرت به السيارة يده لتحيته وتحية د. فريدة..

وقبل أن يختفي د. مصطفى بعيداً عنها إلى مكتبه قال لها في حزم:

فريدة.. العملية الساعة (9) عايز الاقيك في أودة العمليات قبلها.. حتشّيكي على كل حاجة يا فريدة وتقابليني في التعقيم.. حاولي تروحي دلوقت لمدام مهجة في أودتها.. اتكلمي معاها وقوليلها إني وصلت المستشفى، ولو سيادة الوزير معاها خليه يتفضل في مكتبي..

ومضت فريدة إلى مكتبها الصغير والذي يطل على النيل في كورنيش المعادي وارتدت البالطو الأبيض الذي يحمل الحروف الأولى من اسمها واسم مصطفى في تطريز يدوي أنيق وجلست على مقعدها واستدارت إلى النافذة الكبيرة خلفها لتنظر إلى النيل... دقائق تصافح فيها النيل ثم تصعد إلى غرفة طنط مهجة حرم وزير التجارة والتي أصرت على إجراء عملية القلب المفتوح هنا في مستشفى والدها.. الجميع يثق فيه.. الجميع يعلم أن هذا المكان لا يقل أمناً أو أماناً عن «كليفلاند» أو «بوسطن» الأمريكية.. إنها حقاً سعيدة وفخورة بأنها ابنة هذا الرجل العظيم والذي تشّبع بمهارة وسياسة جدها الفرنسي د. أوليميه والذي كان أشهر جراحي القلب هناك..

رحل د. أوليميه بعد وفاة أمها بشهور قليلة وكأن الحزن قتله في صمت وبقيت جدتها صامدة قوية رغم رحيل زوجها وابنتها الوحيدة..

باعت جدتها المستشفى ومنحت مصطفى نصيب «زويي» والدة فريدة وخيّرته بين الحياة معها في فرنسا أو العودة إلى مصر.

كان مصطفى شظايا إنسان وكره فرنسا بأكملها واختار العودة إلى مصر.. وبقيت فريدة تزور جدتها كل عام في الفيلا

الصغيرة التي اشترتها لتسكنها في إحدى ضواحي باريس..

حتى ماجي تذهب مع مصطفى أحياناً ليقضيا بعض الأيام مع فريدة و«ميري» جدتها.. ودوماً تشاركهم ماجي بكل الحب حديث الذكريات الذي لا تملّه فريدة أو جدتها عن «زويي» الراحلة..

وفي كل عام تسافر فيه فريدة.. تحضر «ميري» إلى مطار شارل ديجول لاستقبالها بذات الشهقة وبذات الدمعة التي تتراقص في عينيها الزرقاء لتقول نفس العبارة:

«فريدة.. في كل عام تشبهينها أكثر»..

فريدة تعلم أنها محظوظة بكل هذه الثروة العملاقة وبكل هذا الحب والجمال ولكنها تعلم أنها روح كل هؤلاء..

وتنهدت وعادت من ذكرياتها لتتوجه إلى المصعد الخاص بأجنحة «الفؤاد كلينك»

في الدور الرابع ليس هناك إلا ريسيبشن أنيق وست أجنحة، نزلاؤها دوماً من كبار رجال مصر والدول العربية.. وتوجهت في هدوء إلى الجناح الثاني لتطرق طرقة خفيفة دخلت بعدها إلى غرفة استقبال بها طاقم من «المفروشات الأمريكية» مكوّن من كنبة رمادية وحولها قطعتان من الپارچير الرمادي بخطوط وردية.. ويلتف الجميع حول سجادة من الشينواه الوردي وكأنها انعكاس لحوائط الجناح الوردية.

ومضت فريدة إلى الغرفة الأخرى وفي طريقها شعرت به يقف في مواجهة النافذة الكبرى يرقب النيل وشعر بها هو الآخر واستدار نحوها في هدوء والتقت عيناهما..

ونظرت فريدة إلى عينيه العسلية العميقة والتي لا تعلم كيف ذكّرتها بماجي ولكن عيناه فيهما شيء أكثر عمقاً.. أكثر جاذبية أو ربما هكذا تراهما.. إنه قمحي اللون.. شعره كثيف ناعم أسود اللون يتدرج فوق رأسه في قصر شديد.. شفتاه مكتنزتان وليستا صغيرتين.. وأنفه يقف في اعتدال رائع.. إنه رجل جميل حقاً.

شيء ما في وجهه دعاها إلى إطالة النظر إليه.. شيء آخر في جسده دعاها إلى إعادة النظر إليه.. ربما طوله الفارع.. ربما كتفاه العريضتان..

وشعرت فريدة بالخجل من النظر إليه وأسدلت عينيها لحظة ومضت في طريقها عبر الردهة الصغيرة التي تأخذها إلى الغرفة التي تنام فيها طنط مهجة.. وما أن طرقت الباب ودخلت حتى تهللت الأخيرة وصاحت:

فريدة.. أنتِ وصلتِ؟!

وتنهدت فريدة وقالت في صفاء:

صباح الخير.. ثم التفتت لتقول:

صباح الخير يا دكتور أحمد..

ووقف الدكتور أحمد ونظر إلى فريدة قائلًا في صوته القوي:

صباح الخير يا فريدة.. أنا حانزل لمصطفى تحت..

واستدار يقول لمهجة:

أنا راجع وحاقضي اليوم كله معاك إن شاء الله.

وجلست فريدة إلى جوار مهجة على حافة سريرها وقالت دون وعي:

طنط.. مين اللي في الأودة التانية؟!

ورفعت مهجة حاجبها لحظة وقالت دونما اكتراث:

آه.. ده النقيب حازم.. ضابط الحراسة بتاع سيادة الوزير.

ä ä ä

وقف أحمد السائق ينظر إلى فريدة وهي تتجه إلى سيارتها الـ B.M.W-Z3 على عجل.. وأخذ يفكر كم مرة رأى فريدة

تقودها منذ أهداها إياها مصطفى في عيد ميلادها السابق.. ربما خمس أو ست مرات لا أكثر..

كم سيارة في هذا المنزل؟!

أربع سيارات.. جاكوار سوداء للدكتور مصطفى.. مرسيدس 500 لماجي هانم.. والـ Z3 الفضية للدكتورة فريدة، وتويوتا كورولا حمراء يقضي بها أحمد كل طلبات المنزل.. وعاد يسأل كم يملكون من المال؟!

ثم تنهد ليبارك لهم الله.. منذ عمل في هذا المنزل منذ ثلاثة أعوام وهو لا يملك سوى أن يحب كل من فيه وخاصة فريدة.. إنها أكثرهم انطلاقاً وتواضعاً، وسمع فريدة تدير محرك سيارتها وركض إليها ومن خلف النافذة التي على يمينها قال:

دكتورة فريدة.. تحبي أوصلك أو أمشي ورا حضرتك؟

ولوحت له فريدة من خلف الزجاج وابتسمت وانطلقت تغادر بوابة الفيلا لتأخذ طريقها إلى «الفؤاد كلينك» لقد سبقها مصطفى هذا الصباح لاستدعاء عاجل جاءه من هناك.. وأدارت جهاز الاسطوانات ليعلو صوت فيروز وأخذت فريدة تدندن معها إحدى أحب أغانيها إلى قلبها.. شايف البحر شو كبير.. كبر البحر بحبك..

عندما اخترقت بوابة المستشفى ركض «مجدي» يفتح لها الباب ليأخذ منها السيارة إلى المكان المخصص لها بجوار سيارة د. مصطفى.. وفي طريقها إلى باب المستشفى رأت سيارة بيضاء صغيرة يصدر عنها أصوات للأجهزة اللاسلكية وشعرت أن عيناً ما تتبعها والتفتت تنظر لتراه يجلس في المقعد الأمامي إلى جوار السائق يرقبها في هدوء، ودون أن تدري اتجهت نحوه وقبل أن تصل إليه كان قد وقف في هدوء خارج السيارة وعلى وجهه ابتسامة صغيرة واقتربت فريدة لتقول:

إحنا اتقابلنا قبل كده؟

وقال في صوت هادئ جميل:

أيوة.. إزيك يا دكتورة فريدة؟!

وأجابت:

بخير.. يا حازم..

ابتسم.. هي أيضاً تخبره أنها تعرف اسمه.. لم يكن يعلم لِمَ لا يريدها أن تخطو خطوة واحدة بعيدة عنه.. ليس جمالها.. ليست أناقتها ولا حتى رائحة عطرها التي ملأت المكان رغم أنه مفتوح.. هو فقط يريدها إلى جواره لأن شيئاً ما بداخله يرى شيئاً يطل من عيونها.. شيئاً لا يراه أحد سواه..

وقطعت فريدة لحظات الصمت لتقول في تردد:

اتفضل أنا ممكن أعزمك على فنجان قهوة..

ورد بصوته العميق:

أنا في شغل ما أقدرش أسيب مكاني.

وقالت كأنها تعرف كل شيء:

سيادة الوزير فوق.. وطنط مهجة حتخرج النهاردة بس لسة بدري..

وقاطعها في هدوء:

سيادة الوزير فوق.. بس أنا هنا تحت.. شغلي هنا..

ولم تعلم فريدة ماذا بإمكانها أن تقول أكثر من هذا وتحركت ببطء وهي تقول:

أوكي.. فرصة سعيدة..

وفي ارتباك واضح وضع حازم يده في جيبه وقال:

ده الكارت بتاعي.. وفيه تلفوناتي.. بكرة يوم راحتي.. لو تسمحيلي أنا أعزمك على فنجان قهوة بكرة في أي وقت يبقى ياريت.

ومدت فريدة أصابعها البيضاء الرقيقة وأمسكت بالكارت وهي تنظر إلى كفه الكبير وأصابعه الطويلة ثم عادت تنظر إلى عينيه العسلية العميقة ليخرج صوتها متقطعاً من شعورها بالخجل والارتباك:

ميرسي قوي.. أوعدك إني أحاول..

ثم استدارت لتدخل باب المستشفى وهي تشعر أن عينيه مازالت تتبعها.

ä ä ä

في مساء ذاك اليوم الطويل.. وبعد أن دخلت فريدة سريرها وبعد أن هدأت أصوات اليوم بأكمله.. وجدت فريدة نفسها تفكر فيه بل لقد كانت تتعجل انتهاء اليوم لتفكر فيه وفتحت حقيبتها وأخرجت الكارت الذي منحها وأخذت تقرأ في ابتسامة حانية «حازم علي»..

وبعد تردد قصير لم تستطع الاستسلام له طويلًا طلبت رقم المنزل وجاءها صوته الذي كان أكثر هدوءاً وعمقاً على سماعة الهاتف.

وانطلقت فريدة تقول:

هاي.. أنا فريدة.

وبعد لحظة صمت قصيرة قال كأنه يتنهد:

إزيك يا فريدة؟!

كان الحديث قصيراً متقطعاً.. وكأن كلاهما لا يعلم كيف حدث كل هذا.. أو لماذا يحدث؟ ولكن انتهت المكالمة القصيرة على أن يلتقيا في السابعة من مساء الغد.

طال انتظار الغد وطال تعجلها للساعة وفي السابعة إلا ربعاً كانت فريدة تستعد لتخطو خارج الفيلا وهي ترتدي بلوزة زرقاء كزرقة عينيها ونقش عليه في حروف صغيرة لامعة حروف شانيل الأولى المميزة.. مع بنطلون من اللون الأسود أيضاً من شانيل ثم وضعت قدميها في سبادريل أسود اللون له كعب 5 سم، تلتف حوله أحبال سميكة ويتدلى منه حروف «شانيل» بشكلها الأنيق.. وأخرجت حقيبتها السوداء.. ومرت بقلم روچ وردي اللون على شفاهها المكتنزة في خفة.. ووضعت زخات من عطر «مدموازيل شانيل» ومضت إلى باب غرفتها ثم عادت تنظر في المرآة من جديد لتضع مسحة وردية على خدودها وهي تبتسم ثم رسمت عينيها بقلم أسود ليظهر اتساعهما أكثر وعادت تضع بعضاً من الماسكرا على رموشها الطويلة وابتسمت..

منذ متى لم تفكر في وضع الماكياچ؟

ولكن لا تعلم لِمَ تشعر أنها تريد أن تفعل هذا اليوم.. وأطلقت خيوط الشمس على كتفيها بعد أن كانت قررت ألا تفعل.

وركضت حتى لا تغير رأيها من جديد.. ونظرت إليها ماجي وهي تشرب قهوتها وحدها ورفعت حاجبيها في دهشة وانبهار وقالت:

الله يا فريدة.. إيه ده كله.. انتِ رايحة فين؟

وتلعثمت فريدة وقالت:

مش عارفة يا ماجي.. يمكن أعدي على هدى أو يعني.. مش عارفة على العموم أنا مش حتأخر خالص يا ماجي.

وفي طريقها إلى خارج سرايات المعادي.. حيث اتفقا على اللقاء على كورنيش النيل أمام المستشفى كانت فريدة تفكر.. لماذا لم تخبر ماجي ولكن عن ماذا تخبرها.. عن ماذا تحكي لها إن كانت هي نفسها لا تعلم ما الذي يحدث.

ورفعت جسدها قليلًا ونظرت إلى المرآة.. وكأنها تريد أن تطمئن أنها جميلة كما كانت دوماً..

ووقفت على الكورنيش في الجهة المقابلة للمستشفى وبحثت بعينها عن السيارة البيضاء الصغيرة ولم تجدها وبعد لحظات كان حازم ينقر بأصابعه الطويلة على زجاج سيارتها ودخل إلى جوارها وبحثت فريدة عن ما تقول لتخفف شعوراً ما بالخجل والتوتر بدأ يسري في عروقها فقالت:

أمال فين عربيتك.. أنا دورت ما لقيتهاش.

وعقد حازم حاجبيه قليلا وقال:

أنا ما عنديش عربية.. دي عربية الشغل بتوصلني البيت وبتروح الإدارة.

وابتسمت فريدة وهي تقول:

تحب نروح فين؟!

وأجاب:

أي مكان أنت عايزاه.. أنا معاكِ..

ومضت فريدة ومدّت أصابعها لتعبث في جهاز الكاسيت وعلا صوت فيروز وهي تقول... شايف البحر..

وجاءها صوت حازم يسأل:

بتحبي فيروز؟

وقالت:

جداً والغنوة دي أكتر.. عارف إيه حكايتها.. واحدة من بنات فيروز وهي صغيرة جداً قالت لباباها وهو شايلها قدام الشباك شايف البحر شو كبير.. كبر البحر بحبك..

فكتب الغنوة وغنتها مامتها فيروز.. أصل أنا كمان بحب بابا أكتر من البحر والأرض والسما..

وأفاقت فريدة من قصصها لتجد نفسها أمام فندق رمسيس هيلتون.. وقالت في مرح:

إيه رأيك نطلع الدور الستة والتلاتين؟

وابتسم حازم وهو يسير إلى جوارها في طريقهما إلى المصعد داخل الفندق الكبير وهي تخطو إلى جواره في هدوء..

فريدة كعادتها تدير الرؤوس وحازم أيضاً تنظر إليه العيون فتجد أنه حقاً يستحق امرأة بكل هذا الجمال.. كانت خطواته هادئة واثقة وجسده الفارع الطويل كان رائعاً.. كانت الأعين رغم حسدها تباركهما.. كلاهما يستحق الآخر حقاً.

وفي «البوب 36» جلس حازم أمام فريدة والنيل يجري تحت أقدامهما ونغمات البيانو تسري من حولهما في هدوء ونظرت فريدة حولها ثم قالت في مرح:

أنت عارف إن كل الستات بتبص عليك..

وابتسم قائلًا:

يمكن بيحسدوني عشان كل اللي معاهم بيبصوا عليكِ.. على العموم سيبك منهم.. أنتِ عارفة إني كنت حبقى دكتور.. من الثانوي وكل الجيران كانوا يقولولي يا دكتور حازم، ولما خلصت جبت مجموع يوديني طب عين شمس..

ورفعت فريدة حاجبيها في دهشة وسألت:

طيب.. ليه رحت بوليس؟!

ونظر حازم إلى النيل وقال في هدوء:

أنا والدي مات في حادثة وأنا عندي عشر سنين.. وطب يعني عيادة.. وعيادة يعني فلوس كتير.. وعشان حتى أكون عضو في هيئة تدريس يبقى لازم أكون ابن استاذ دا حتى عشان آخد ماجستير أو دكتوراة لازم يكون لي جذور في القصر العيني.. لكن بوليس.. يعني شغل مضمون وعلى طول ومن غير واسطة.. البوليس للناس اللي زينا يا فريدة، برستيج وأمان وكمان فلوس كويسة.

تنهدت فريدة كأنها علمت ما يريد إخبارها به ومضت تقول في هدوء:

أنا كمان أمي ماتت في حادثة عربية وأنا تقريباً قد عمرك.. بس أنا ما كنتش عايزة أبقى دكتورة.. عارف كان نفسي أكون رسّامة أنا بارسم حلو جداً.. لكن حسيت إني لازم أبقى دكتورة.. جدي كان دكتور وأمي وبابا كمان، على رأيك فعلًا الظاهر

الطب ده وراثة.

كانت سعيدة.. هادئة.. تشعر للمرة الأولى في حياتها إنها ليست بحاجة إلى المرح أو إطلاق النكات.. أمامه تشعر أنها ترسو.. ترسو بهدوء لتكون فريدة التي لا يعرفها أحد.

وكلما نظرت في عينيه الواسعة العميقة شعرت بابتسامة حانية رقيقة تغسل جنبات روحها وترسو بها الابتسامة أكثر.

ومضى الوقت ووقف حازم يفتح لها باب سيارتها وهو يقول:

اتفضلي انتي.. أنا حاروح أقعد مع جماعة صحابي قريبين من هنا.

وعندما مدت يدها لتصافحه وعندما احتوى كفها الأبيض الرقيق بين أصابعه الرشيقة تمنت فريدة لو يأخذها بين ذراعيه.. وسرت رعشة خجل في جسدها من أفكارها وقالت في صوت خفيض:

حتكلمني؟!

ونظر في عينيها كأنه يقبّل كل قطعة في وجهها وقال:

أكيد..

ومضت فريدة في طريق عودتها وهي تعلم الآن جيداً ما الذي يحدث؟!

إنها تحب هذا الرجل..

ä ä ä

سار حازم على كورنيش النيل بخطى هادئة وعلى أحد تلك المقاعد الخشبية جلس في مواجهة النيل ونكس رأسه في هدوء، وأخذ نفساً عميقاً من سيجارة أشعلها لتغوص عينيه في ظلمة النيل ثم عاد يضع السيجارة بين شفتيه فتسربت من بين أصابع يده رائحة يد فريدة وعطرها وتنهد.

إلى أين تأخذه هذه القصة؟

لقد دفع في هذه الساعات القليلة ما يقارب ثُمن مرتبه.. إلى أين ستمضي به هذه القصة.. إلى أي حد يستطيع مجاراة فريدة.. ورمى السيجارة في غضب وشعر بصدره يضيق وهو يقاوم فكرة الابتعاد عن فريدة.. إنه لا يريد أن ينهي القصة ولكنه يعلم أنه لن يستطيع أن يترك القصة تنهيه.

ونهض واقفاً كأنه يهرب من أفكاره وأشار إلى أول تاكسي يمر به وهو يهز كتفيه في يأس، لن يضير أبداً أن يدفع أجرة تاكسي بعد المبلغ الذي دفع.. ومال بجسده وهو يصيح:

الضاهر..

ومضى به التاكسي وهو مازال يفكر فيها.. يستعيد ابتسامتها.. أناقتها.. وبين كل لحظة وأخرى يمر بيده أمام أنفه مدعياً لنفسه أنها صدفة ولكنه يعلم أنه يفعل ذلك ليستعيد رائحة عطرها وكأنه يريد أن يملأ جسده منها..

وأشار إلى التاكسي قائلًا:

أيوة.. هي العمارة اللي فيها الصبّاح.. الباب عند بتا ع الكاوتش.

وجاءه صوت الحاج محمد يصيح:

أزيك يا حازم باشا؟!

وهز حازم رأسه ودخل إلى مدخل العمارة الصغير وصعد درجات سلمها الضيق حتى وصل الدور الثاني.. ودخل إلى صالة البيت المثلثة والضيقة في هدوء..

أربع غرف صغيرة جميعها تطل على هذه الصالة والتي لا شيء فيها سوى كنبة صغيرة ومقعدين تستقبل عليهم دوماً زينب جيرانها الذين يمرون عليها كثيراً لشرب القهوة معها.

أما الغرفة الأولى فهي الصالون القديم الذي تزوجت به زينب والده، والغرفة المجاورة غرفة الطعام المكونة من طاولة طعام

قديمة وست كراسي من الخشب الزان «لاكيه أبيض» والذي أصبح رماديا بفعل «تراب الزمن» كما تقول أمه دوماً.

أما الغرفتان الأخيرتان فإحداهما غرفة أمه الست زينب والتي لا شيء فيها سوى سرير خشبي ودولاب قديم أما الأخيرة فهي غرفته.. سرير خشبي إلى جوار بابها ودولاب من الأستر وكنبة «سحّارة» تخفي بداخلها والدته كل ما تدخر من نقود وبعض ما أبقاه لها الدهر من قطع ذهبية من أجل اليوم الموعود الذي تنتظره يوم زفاف حازم.

وعاد يتنهد.. لماذا تفقّد البيت وأثاثه.. لِمَ ينظر حوله.. إنه يحاول أن يعرف هل بإمكانه أن يدع فريدة تدخل هذا البيت يوماً.. وإن دخلت ما تراها تفعل.. وحتى إن لم تفعل شيئاً وحدث ودخلت هنا مرة هل تراها تعود مرة أخرى؟!

وجاء صوتها الهادئ ليعيده من كابوس النظرة التي تخيّلها في عين فريدة لو جاءت.. سمعها تقول:

حازم.. أنت رجعت أمتى يا ابني؟!

ورفع رأسه ونظر إليها وقال:

لسه حالًا.. أزيك يا أمي؟!

وجلست الست زينب إلى جواره على حافة السرير وعادت تقول:

الحمد لله.. مالك.. دا أنا واقفة قدامك بقالي عشر دقائق.. انت كنت فين ورجعت بدري ليه.

ونظر إليها.. بقميص نومها الأصفر ووجهها الأبيض المستدير.. إنه يشبهها كثيراً إلا أن وجهها ينبعث منه شيء كالنور مريح يحبه كل من نظر إليها.. ربما لهذا السبب يحبها الجميع.

مازالت شابة.. إنها في نهاية الأربعينيات ولكنها دوماً تقول إن مهمتها اكتملت ولم يبق لها سوى أن تزور الكعبة وترى أبناء حازم.. «النقيب حازم» كما يحلو لها أن تردد دوماً.

وعاد يبتسم قائلًا:

مش عارف مالي.. الظاهر..

وارتفع صوت الهاتف لتختفي الست زينب وتعود بعض لحظات وعينها الجميلة تبرق بحس الأنثى وفضولها وهي تقول:

واحدة اسمها فريدة عايزاك!

ä ä ä

إنه صباح الأحد التاسع من سبتمبر.. طال انتظار فريدة لهذا اليوم.. إنه عيد ميلاد حازم والذي جاء بعد أكثر من ثلاثة شهور من لقائهما الأول.. منذ ذلك اليوم لم يمض يوم دون أن يلتقيا أو دون أن تغفو على صوته.. أكثر من ثلاثة شهور وهي تزداد به جنوناً يوماً بعد يوم.

أكثر من ثلاثة شهور وماجي تلاحقها بعينيها كل يوم بألف سؤال.

ماجي ومصطفى يعلمان أن شيئاً ما بفريدة تغيّر.. شيئاً ما يصيح من خلف زرقة عينيها بأن فريدة في حالة حب ولكن لا أحد منهما يعلم لماذا تهرب من الأسئلة.. لا أحد يستطيع أن يحاصرها أكثر ومصطفى دوماً يقول لها:

أنا عارف أنك عايزة تحكي وأنت عارفة إني عايز أسمع.. لكن أنا سايبلك أنت تحددي الوقت يا فريدة بس ما تتأخريش أنا مش عايز أقلق..

تؤلمها كلماته.. يؤلمها ألا تحكي ولكن ما يؤلمها أكثر أنها لا تعرف ماذا تقول..

إنها تعلم كم يحبها حازم ولكن شيئاً ما يقف بينهما حتى في تلك اللحظات التي يأخذها فيها بين ذراعيه تشعر أن هناك شيئاً يقف في عناد..

شيء لا تحبه ولكنها لا تملك إلا احترامه..

لهذا قررت أن تقضي اليوم بأكمله مع حازم ولن تعود إلا بعد أن يكون لديها ما تحكيه لمصطفى وماجي..

ووقفت أمام مرآتها.. وهي لا ترى سوى ما قررت القيام به.. وأخرجت قميصاً وردياً بلا أكمام يكشف عن ذراعيها البيضاء

ويقف عند أول حدود سرتها.. وأخذت معه بنطلوناً من الچينز الأزرق الداكن.. ووضعت في قدميها سابوه «نايك» من اللون الوردي وعلامة النايك باللون الرمادي القاتم، ووضعت قطرات من عطر «جوتشي» وبعد أن وضعت الزجاجة على تسريحتها عادت تسحبها من جديد لتضعها في حقيبتها الوردية الكبيرة المصنوعة من القش.

وهبطت درجات السلم الكبير لتجد مصطفى وماجي ينظران نحوها في هدوء.. وقالت فيما استطاعت من مرح:

صباح الخير.. أنا النهاردة أجازة يا دكتور.. ونظر إليها مصطفى من خلف نظارة القراءة وشيئاً ما يعبث برأسه وأفكاره وقبل أن يسألها قالت:

أنا قلت لماجي من امبارح إني حاقضي اليوم مع هدى والشلة في الفيلا الجديدة بتاعتهم في اكتوبر.

وقال مصطفى في هدوء:

طب خللي السواق يوصلك يا فريدة.

وقالت بسرعة:

لأ.. أنا وحشني أسوق.. بصوا بقى أنا حاكون هنا على الساعة تمانية أو تسعة بالكتير قوي.. يعني ممكن تعزموني على العشا بره.

بينما كان مصطفى وماجي يتبادلان نظرة طويلة وما أن وصلت فريدة إلى الباب حتى استدارت ونظرت إليه من بعيد وعادت لترتمي بين ذراعيه ثم نظرت إلى عينيه قائلة:

ما تخافش.. ما تخافش أبداً.. أوعدك أني حكون بخير..

وقبّلته في وجنته ثم قالت:

صدّقني يا حبيبي..

ومضت فريدة إلى سيارتها وهي تسأل أحمد:

حطيت الحاجة في العربية يا أحمد؟!

قبل أن يجيب كانت فريدة تنطلق لتغادر بوابة الفيلا.. ومضت إلى حيث وجدته في انتظارها يرتدي قميصاً من الكاروه الصغير بلونيه الأبيض والكحلي وبنطلون من الچينز الداكن كلون ما ارتدته هي.. إنه أنيق رغم بساطة ما يرتديه.. حذاؤه الأسود لامع نظيف دوماً..

ودخل إلى جوارها وابتسم وهو يحاول الوصول إلى عينيها من خلف نظارتها الشمسية بلونها الكحلي..

ثم استدارت إليه لتقول في حب:

كل سنة وانت طيب.. جاهز عشان تتخطف؟

وضحك لتظهر تلك «الغمازة» الصغيرة في منتصف ذقنه وليصبح وجهه أكثر إشراقاً وجمالاً وقال:

ياريت.. ياريت أنا اللي أقدر أخطفك.

وامسك بيدها بين أصابعه في حنان..

ومضت فريدة تسلك الطريق الذي قررته وشيئا ما بداخلها يرتجف.. شيئاً ما لا يقر ما تفعله ولكن انتهى الأمر ستذهب ولن تعود إلا وهي تعلم ماذا تقول.

وحين خرجت من طريق القطامية انحرفت يساراً لتسلك طريق «العين السخنة» سألها حازم في قلق:

فريدة.. انتِ رايحة فين؟!

ولم ترد فريدة ولكنها مدّت أصابعها تبحث عن يده وحين وصلت إليها أغمضت عينيها لحظة لتقول:

أرجوك ما تسألش لأنك إن سألت وأنا جاوبت ممكن ألف وأرجع وأنا مش عايزة أرجع.. أنا كل اللي عاوزاه إن إحنا نقعد مع بعض لوحدنا في حتة ما فيهاش ناس ونتكلم - نتكلم يا حازم.

وأدار حازم وجهه إلى النافذة وتنهد.. إنها على حق يجب أن يتحدث ولكن ماذا يقول.. إن قال قد تنتهي القصة ودون أن يدري ضغط على أصابعها الباردة والنائمة بين يديه. إنه لا يريد أن تنتهي القصة أبداً.

كانت فريدة تقود بسرعة تتجاوز 150كم/ساعة، وكأنها تهرب من مطاردة خجلها وخوفها.. كأنها تركض حتى تصل قبل أن تعود مرة أخرى.

وأوقفها كمين الرادار وأطل وجه ضابط الكمين ينظر إليها في سماجة وهو يطلب رخصة قيادتها.. وغاص وجه فريدة في ذعر كبير.. لقد أخبرت مصطفى أنها ذاهبة إلى 6 أكتوبر.. ما تراها تقول عندما يعلم أنها في طريقها إلى العين السخنة.. وفي عصبية استدارت لتخرج رخصتها من حقيبتها وأمسك بيدها حازم وأخرج من جيبه كارنيه الشرطة وقدّمه إلى الضابط في هدوء.

وابتسم الضابط الآخر ابتسامة صفراء وعيناه لا تفارقان ذراعي فريدة وقال في سخافة:

ماشي يا باشا.. رحلة سعيدة!

وغضبت فريدة تمنت لو أنها لم تكذب على مصطفى لأنها لو لم تفعل لكانت عرفت كيف تتحدث إليه ولكن..

وشعر حازم بغضبها وقال في صوت خفيض:

أنا آسف..

وقاطعته فريدة في حزن:

شفت بقى إحنا قد إيه لازم نتكلم؟!

أفاق حازم من أفكاره حين تجاوزت فريدة بوابة كبيرة لتدخل قرية «لافستا».. عندما وصلت أولى صفوفها وقفت أمام فيلا أنيقة بشاطئ خاص واستدارت نحوه لتقول:

اتفضل.. حمدا لله على السلامة..

وهبط حازم في هدوء ورأى فريدة تفتح صندوق السيارة لتخرج علبة حمراء وخطى إليها ليحملها عنها ومضت فريدة لتفتح الباب..

ودخل حازم وأضاءت فريدة الأضواء ثم نظر حوله ليجد ريسبشن تتناثر في جنباته قطع أثاث أنيقة رغم بساطتها.. وخطت فريدة تفتح «شيش الحصيرة» لتبدو واجهة الفيلا الزجاجية والتي لا يفصلها عن البحر سوى الرمال..

واستدارت فريدة لتجده يقف خلفها وقالت وهي تنظر إلى عينيه:

كل سنة وأنت طيب..

وعادت تكمل في صوت خفيض:

أنا عارفة أنه ممكن يبقى صعب جداً إن بنت تجيب راجل مكان زي دا.. وتقوله عايزين نتكلم لوحدنا.. لكن أنا حاسة.. لأ.. أنا متأكدة إن أنت مش حتفهمني غلط..

وجذبها حازم في رفق واشفاق إلى صدره وأحاطها بذراعيه قائلًا:

ما تكمليش يا فريدة.. أنا عمري ما فهمتك غلط... المكان عمره ما كان مشكلة.. مصر فيها حتت مقفولة كتير والغلط بيحصل في المقفول والمفتوح.. أنا فاهم.. صدقيني أنا فاهم كل حاجة.. بس.

وجذبت فريدة جسدها بعيداً عنه وقالت:

أنت اتولدت الساعة كام؟

ورد ضاحكاً:

الصبح.. باين الساعة 11.

- ياه.. يعني من حوالي تلات ساعات.. طب غمض عينك..

وأغمض حازم عينيه.. وأخرجت فريدة «تورتة» صغيرة من الصندوق الأحمر الصغير ووضعتها على طاولة صغيرة أمام كنبة منقوشة بزهور حمراء صغيرة تطل على البحر مباشرة ورشقت ثلاث شمعات صغيرة في قلب «التورتة» وهي تقول:

افتح عينيك.

وذهب إليها وهو يقول:

يا خبر يا فريدة..

واشعلت الشموع وهي تقول:

3 شمعات عشان خلصنا تلات شهور نعرف بعض وغنّت له شايف البحر شو كبير.. كبر البحر بحبك..

وبعد أن أطفأ الشموع قالت له:

غمّض عينك واتمنى حاجة.

ونظر إليها وقال:

ما عنديش أمنية غيرك..

وقالت:

حاجيب سكينة عشان نقطعّها..

وامسك حازم بذراعها في هدوء ورفعت رأسها تنظر في عينيه وامتدت أصابعه تحرر خيوط الشمس من رأسها لتسقط في حنان على كتفيها واقترب منها أكثر ليضمها من جديد..

وتنهدت وهي تقول بكل ما استطاعت سكبه من مرح على صوتها:

ياه.. أنت طويل جداً.. أنت طولك قد إيه؟

وفتح عينيه ونظر إلى زرقة المحيط في عينيها وقال:

قربت أبقي 190 سم.. انت مش قصيرة يا فريدة.

وضحكت وهي تقول:

انا كنت فاكرة كده.. انا 176 سم.

بس معاك باحس إننا زي نجاة ورشدي أباظة.

وضحك ووضع أصابعه بين طيات شعرها الناعم الغزير في حنان وأغمضت فريدة عينيها وشعرت بشفتيه تقتربان منها ولم تقاوم.. لقد تمنت طويلًا أن يقبّلها.. وحين التقط شفتيها غابت معه في قبلة طويلة شعرت فيها فريدة أن النساء تولد من بير شفاهها.

وتسللت ذراعيه من تحت قميصها الوردي القصير تتجول على ظهرها وشعرت بإحدى كفيه يتسلل إلى صدرها وانتفضت فريدة، وهي لا تعلم إن كانت تريده أن يبتعد أو يقترب أكثر.

وشعر حازم برعشتها وتراجعت كفه وفتح عينيه وأطلق سراح شفتيها في حنان، وخبأت فريدة رأسها في صدره وهي تشعر بفرحة وخجل لا حدود لهما..

ووضع كفيه حول وجهها وابتعد به قليلًا عن صدره وهو يقول:

فريدة.. افتحي عينك وبصيلي..

وفتحت عينيها وهي لا تعلم كيف تنظر إليه..

وحين التقت عيناهما قال في صدق:

أيوة.. أنا بحبك.. بحبك بجد.. فوق ما كنت أنا أتصور إني ممكن أحب في يوم..

وجلسا معاً على ذات الأريكة ورمت رأسها على صدره وكلاهما ينظر إلى البحر وانطلق حازم يقول في صوته الهادئ:

عايزة تتكلمي في إيه؟ عايزة تعرفي إيه آخرة الحب دا.. نتجوز؟! ياريت..

لكن أنا ما أقدرش لأني أكيد حاترفض.

وحاولت فريدة أن تقاطعه ولكنه قال في حزم:

من فضلك سيبيني أكمل.. أنت ما تعرفيش قد إيه صعب إني أقول الكلام ده.. إحنا ما نعرفش بعض من ثلاث شهور.. لأ يا فريدة.. إحنا بقالنا أربع شهور وتسعة أيام.. وفي كل ليلة أنا بافكر لو جيت أخطبك واترفضت حنعمل إيه؟!

حتقدري تقابليني بعدها.. ولو قابلتيني حيبقى إيه إحساسنا.. شكل اللقا دا حيبقى إزاي وإيه شكل العلاقة نفسها.

نتجوز؟! استحالة لا أنت ولا أنا نقدر نقبلها على بعض ولا على كرامة أهالينا.. حتى لو أنا ما أترفضتش طب اتجوزك إزاي؟ إنت عارفة أنا ماهيتي كام.. عارفة أنا محوش كام.. ولا مليم.. يبقى برضة حنسيب بعض.

وسحب ذراعه من خلف ظهرها وأشعل سيجارة وعاد يكمل في حزن:

فريدة.. شايفة البحر دا.. إحنا المسافة اللي بينا زيه مش بس قده.. لأ.. زيه..

إحنا ممكن نضحك على روحنا ونقول إن إحنا ممكن نعديها.. لكن حتى لو دا حصل مش حانوصل زي ما أحنا دلوقت.. يعني حتى لو المعجزة حصلت وعدينا البحر.. كل واحد فينا حيلاقي التاني اتغير.. لأنه حيشوف وحيحس بحاجات كتير.. البحر دا فيه ضلام وليل وخوف وبرد وحاجات احنا مش قدها.. ما ينفعش أبداً نتحداه وننزله وكل اللي معانا إحساسنا.. الإحساس مش كفاية.. حنغرق ولو ما غرقناش حتموت فينا حاجات كتير.. أنا من أول يوم خرجنا فيه مع بعض وأنا بأحاول أبعد لكن مش قادر حقيقي مش حاقدر.. لكن كمان عارف إني مش حاقدر أكمّل..

وألقى برأسه إلى الخلف وأغمض عينيه وجاءه صوت فريدة يسأل:

مش حتقدر تكمّل ليه.. عشان مش محوش.. عشان مهيّتك صغيرة.. ولا عشان خايف تترفض تقوم تحرمنا من حقنا في أن احنا نعيش مع بعض؟؟

البحر اللي انت بتتكلم عنه دا عالم مقفول..

مش ممكن نفضل العمر واقفين على الرملة عشان خايفين من برده وضلامه يا حازم أو عشان حاسين إن احنا أضعف منه.. وبعدين قوللي أنت تعرف بكره فيه إيه.. مش ممكن تبقى وزير في يوم مثلًا؟ مش ممكن فلوس پاپي اللي بيشغّلها في الأراضي والعقارات تضيع ويبقى ما عندناش غير شغلنا ممكن ولا لأ.. هو دا البحر يا حازم.. يموّت آه لكن برضه كله خير.. ما حدش يعرف ولا حيعرف غير لما ينزل ويجرب واللي بينا يستاهل إن احنا نجرّب وممكن نعدّي ونوصل ونفضل زي ما احنا حتى لو تعبنا..

التعب مش عيب.. العيب هو الخوف منه..

العيب هو..

وقاطعها حازم في يأس وحيرة:

يعني أعمل إيه؟!

وأجابت في هدوء:

اللي لازم يتعمل.. تقابل بابا.. نتخطب.. نحط رجلينا في الميه يا حازم يمكن نلاقيها دافية وحلوة..

ونظر إليها يتمنى لو يصدقها وضمها إلى صدره في حنان وفتح عينيه ليرى البحر الأحمر أمامه وتنهّد.. هل حقاً يعبرانه يوماً؟!

ä ä ä

نظرت فريدة إلى ساعة يدها وتنهدت وهي تغادر مكتبها في المستشفى.. دعاها مصطفى إلى الغداء وسارت نحو المصعد في هدوء وهي تفكر ما تراه سيقول لها.. لقد أخبرته عن حازم ولكنه طلب منها أياماً للتفكير..

هل تراه سيخبرها بقراره اليوم..

وابتسمت عندما رأته بداخل المصعد.. لا يمكن أبداً أن تراه دون أن يخفق قلبها وتبتسم أياً كانت حيرتها أو مخاوفها.. واقتربت منه ووضع ذراعيه حول كتفها في حنان ومضيا لتجلس إلى جواره وتولى أحمد القيادة بعد أن قال له مصطفى:

ودينا الإنتركونتيننتال يا أحمد.. نروح نتغدى في «صبايا» يا فريدة؟!

وابتسمت وهي تضع رأسها على كتفه وهزت رأسها بالإيجاب.

إنها تحب مطعم «صبايا» اللبناني هناك وعندما استقرا على إحدى طاولاته.. طلب مصطفى كل ما تحبه فريدة وهي ترقبه في حب وأيضاً في قلق.

ولم يدع حيرتها تطول بل نظر إلى عينيها وقال وفي صوته شيء من الألم:

فريدة.. أنا ما كنتش أتمنى أبداً أن بنتي تتجوز واحد من الشرطة وكمان ما كنتش أتخيل أبداً إنها ممكن ترتبط بواحد من عالم تاني خالص بعيد عن العالم بتاعنا.. ماجي قالتلك عن حقيقة العلاقة اللي بينهم وبين..

وقاطعته فريدة وقالت في هدوء:

أيوة.. ماجي قالتلي إن طنط مهجة تعرفهم وإن باباه كان بيشتغل موظف بسيط عند باباها وإن هي اللي أقنعت أنكل أحمد يتوسطله في الشرطة وكمان يجيبه في طقم الحراسة بتاعه.

إيه العيب في كده؟ بالعكس أنا شايفة إن ده معاه مش ضده.. لولا أنهم ناس طيبين ما كانوش وقفوا جنبهم وساعدوهم طول السنين دي.. ولا المشكلة أنهم فقرا؟!

وعادت تكمل:

پاپي أنت عمرك ما قلتلي إن الفقر عيب أو مرض يخلينا نبعد عن الناس.. أنا وأنت مش بندوّر على الفلوس.. أنا وأنت بندوّر على الصدق والاحترام.. على الأمان وأنا حقيقي حاسة بكل ده معاه..

وأخذ مصطفى يدها الرقيقة بين يديه وقال في هدوء:

خليه يقابلني بكرة في المستشفى الساعة 2..

وقاطعته فريدة وهي تقول:

البيت؟!

لكنه قال في حزم:

المستشفى يا فريدة.

ä ä ä

سحب حازم نفساً عميقاً من صدره وهو يخطو خلف سكرتيرة د. مصطفى وهي تفتح له باب المكتب.. وحين رفع حازم عينيه نهض د. مصطفى عن مكتبه وتقدم نحوه بابتسامة هادئة ومد يده نحوه ليصافحه مشيراً إلى أحد المقعدين أمام مكتبه الكبير وهو يقول:

أهلًا وسهلًا.. اتفضل يا حازم..

وجلس حازم حيث أشار له د. مصطفى في هدوء..

ودق قلبه عندما لم يعد مصطفى إلى مكتبه، بل جلس على المقعد الجلدي الكبير المواجه له بعد أن قال:

مشيرة.. اتنين قهوة.. شوفي قهوة حازم بيه إيه؟

ثم نظر إلى عينيه وقال:

اتفضل.. اتكلم ياحازم.. أنا عايز أسمعك..

وسكت حازم لحظات هو لا يعلم هل يسخر منه هذا الرجل أم تراه يعد له شيئاً لا يعرفه..

لكنه يجب أن يتحدث..

وقال في هدوء:

الموضوع باختصار.. أنا عايز أخطب فريدة ومش عارف إيه اللي ممكن أقوله في الموقف ده أو إذا كان لازم أحكي عن ظروفي المادية أو الاجتماعية..

لكن أنا أفترض أن حضرتك أكيد سألت وعرفت عني كل حاجة..

ولم يجب مصطفى ليستطرد حازم قائلًا:

أنا من عيلة بسيطة.. والدي أتوفي وأنا صغير.. ما عنديش إخوات وساكن في..

وقاطعه مصطفى:

عارف يا حازم؟! فريدة دخلت الجامعة واتخرجت وشافت فيها شباب كتير.. شافت ولاد صحابنا ومعارفنا.. كنت طول عمري باستغرب ليه عمرها ما عاشت قصة حب زي أي بنت في عمرها.. يمكن عشان كده كان باين عليها قوي لما عرفتك، يمكن كمان ده نفس السبب اللي المفروض يخليني أخاف عليها من أول تجربة تعيشها أو أنها ممكن تكون مجرد اندفاع أو رغبة في التجربة أكتر من الشخص نفسه.. مش عارف لكن أقولك الحق.. كلامها عنك.. رأيها الواضح واقتناعها الحقيقي يخلي القضية منتهية. فريدة صاغت الرد يا حازم.. أنا عمري ما ربيت بنتي علشان أرسملها حياتها.. أنا ربيت بنتي وأنا عارف أنها وحيدة ومالهاش حد ولازم يكون عندها القدرة تقرر وتحدد هي عايزة إيه وتتحمل نتيجة اختياراتها.. وأنا واثق في اختيار فريدة..

مبروك يا حازم.. أنا موافق..

ورفع حازم حاجبيه في دهشة.. كان من المفترض أن يشعر بالسعادة لكن شيئاً ما بداخله مازال خائفاً حزيناً.

ونظر إليه مصطفى في هدوء وعاد يكمل:

أنا طبعاً سألت عليك.. وعارف عنك كل التفاصيل..

أنا ما عنديش حاجة ضدك تخوفني على بنتي.. أنا أقدر أقول إني سعيد بيك.. إيه رأيك لو تزورونا بكرة في البيت الساعة 9.. إحنا في انتظارك مع الست زينب.

وقبل أن يجيب حازم ابتسم مصطفى وهو يقول في حنان:

تيجي بقى نتكلم في حاجة تانية؟!

وقاد مصطفى الحديث إلى أشياء أخرى كثيرة.. عن أصدقائه من قيادات الشرطة.. عن «زويي» والدة فريدة.. عن ماجي.. عن الطب في مصر..

وتحدث حازم ولكن كعادته في جمل قصيرة وعبارات مختصرة عن طفولته.. عن سنوات العناء.. عن أمه.

وحين وقف حازم يصافح د. مصطفى مؤكداً معه موعد الغد وبعد أن سار مصطفى إلى جواره حتى خارج مكتبه عاد ليجلس على كرسيه حيث استدار ليواجه النيل وتختفي ابتسامته..

مصطفى يعلم الآن أنه يرتاح إلى حازم.. إنه وسيم هادئ متزن ولكن ما يؤلمه حقاً أن موجة كبيرة من الإشفاق تجتاح قلبه..

إنه لا يشفق على فريدة وحدها ولكنه الان يشفق على حازم كثيراً.

وعاد يتنهد وأغمض عينيه وهو يدعو الله أن يكون مخطئاً!!

ä ä ä

نظرت زينب إلى وجه حازم وهي تجلس إلى جواره في التاكسي المتجه إلى منزل فريدة بشيء من القلق..

حازم يبدو على وجهه الكثير من الحزن والخوف.. إنها لا تعلم لماذا يجب أن يكون خائفاً.. لقد أخبرها أن فريدة من عائلة غنية وأنها طبيبة ولكن هو أيضاً سيادة النقيب.. لقد اغتاظت كثيراً وهي تراه يرقبها منذ لحظات ويفحص ملابسها.. ما الذي أصابه؟!

يجب أن يكون أكثر سعادة وأكثر ثقة..

ومدت يدها تربّت على كفه لتجد أصابعه باردة وكأن الدم هرب منها وقالت:

إيه يا سيادة النقيب.. خايف من إيه.. ربنا حيتمم بخير إن شاء الله.

وضم أصابعها بين كفه وابتسم في هدوء.

أفاقوا جميعاً من أفكارهم على صوت سائق السيارة وهو يسأل: هي دي الفيلا يا بيه؟!

ونظر حازم وقال في هدوء:

أيوة..

وفتح أحدهم البوابة وقال للسائق:

اتفضل.. نزّلهم جوا..

ونظرت الست زينب حولها لترى أشجاراً وأزهاراً ملونة كتلك التي تراها على شاشة التلفزيون وبدأ القلق يدب في أوصالها.

وأطل عم «محمد» من خلف الباب مرحّباً ومشيراً إليهم بالتوجه إلى الصالون.. وكتمت زينب أنفاسها وهي تخطو نحو الصالون.. لم تكن تعلم أن بيوتاً كهذه توجد حقاً خارج شاشات السينما.

وجلست إلى جوار حازم والذي قطّب حاجبيه بعد أن علمت سر قلقه وأصبحت أكثر منه قلقاً وعصبية.. واحتارت زينب أين تضع حقيبتها السوداء الجديدة على الأرض؟! إلى جوارها؟! على الطاولة الموجودة أمامها؟! أم بجوار قطع الفضة المتناثرة؟ لكنها قررت فجأة أن تضعها إلى جوارها وهي تسمع صوتاً رقيقاً يقول:

أهلًا وسهلًا.

ونظرت ماجي إلى حازم وابتسمت.. إنه حقاً رائع.. فريدة على حق.. وحين نظرت إلى عينيه سألت.. هل تشبه عيني عمر الشريف.

ثم عادت تبتسم..

عينا حازم أجمل كثيراً.

والتفتت تصافح الست زينب ثم تجلس أمامها لتغوص في حيرتها.. السيدة جميلة.. هادئة.. وجهها تكسوه إضاءة حانية رغم التوتر الواضح عليها.. ملابسها البسيطة لا تثير الإعجاب ولكنها أيضاً لا تثير السخط..

وحارت ماجي ماذا تدعوها؟!

وقال حازم وهو يحاول أن يبدد الصمت:

أنا مبسوط جداً إني شفت حضرتك..

وأقبل مصطفى مرحباً وهو يقول:

أهلًا.. أهلًا يا ست زينب.. اتفضلي.

وتنهدت زينب في ارتياح.. إن ابتسامته العريضة تعيد لها شيئاً من الهدوء.. وقال مصطفى مشيراً إلى ماجي:

ماجي مراتي..

وقالت زينب في بساطة وعفوية:

والله افتكرتها فريدة..

وابتسمت ماجي دون سعادة وقال مصطفى:

ياه.. هي ماجي اللي صغيرة ولا أنا اللي كبير قوي!

وشعرت زينب بالحرج..

اقبلت فريدة ترتدي چوب سوداء قصيرة تقف على حدود ركبتها ليري حازم للمرة الأولى ساقيها الرائعتين الملفوفتين وهما يطلان من خلف جورب أسود فوال وكأنهما يعلنان في ثقة أن لون الجليد لا يخفيه أبداً ظلمة الليل.. كانت ترتدي قميصاً لا أكمام له في لون قشرة الليمون ويقف عند بداية خصرها وتتدلى على صدرها سلسلة ذهبية صغيرة تحمل صورة مصطفى.. وتدلت خيوط الشمس على كتفيها في بساطة ومرح..

وقفت زينب تنظر في ذهول حقيقي.. إنها لا تصدق كل هذا الجمال.. وشعورها بالضيق بدأ يكبر وهي تسأل ماذا يفعل حازم بنفسه؟!

وعانقتها فريدة ثم قبّلتها في حب لتجلس على مقعد إلى جوار مصطفى وهي تنظر إلى حازم بحب ووجهها تعلوه ابتسامة رقيقة.

وظهر عم محمد من جديد يحمل بين يديه صينية كبيرة من الفضة عليها قطع «الكانيپيه» ونظرت زينب إلى قطع السالمون الوردية وهي تغفو على قطع التوست الصغيرة في دهشة وابتسمت قائلة:

لأ.. شكراً.

وقال مصطفى:

نشرب إيه..

واندفعت زينب في عفويتها تقول:

إحنا جايين عشان نشرب.

وسكتت فجأة.. ماذا لو كانوا لا يشربون الشربات؟!

وتململ حازم في ضيق واتسع إشفاق مصطفى عليه وعلى فريدة وقال وهو ينظر إلى عيون ماجي المتسعة في ذهول:

إن شاء الله حنشرب الشربات.. بس ممكن ناخد عصير دلوقت يا محمد..

واختفى محمد.. وقالت فريدة وهي تشعر برياح التوتر الباردة:

أنا كان نفسي أشوف حضرتك يا طنط.. حازم ما بيبطلش كلام عنك..

وابتسمت زينب وهي تنظر إلى عيني فريدة وقالت في صفاء:

ولا عنّك أنت كمان..

ثم عادت زينب تنظر إلى «ماجي».. إن عيون ماجي مفتوحة في دهشة كبيرة وشعرت زينب أن ماجي تسأل كيف دخل هؤلاء إلى هنا وماذا يفعلون؟!

وطردت زينب أفكارها وقالت كأنها تتعجل إنهاء لحظات الحيرة والتوتر:

د. مصطفى.. احنا جايين نخطب الدكتورة فريدة لحازم ومستعدين لكل طلباتكم..

وابتسم مصطفى في بساطة وقال:

إحنا ما عندناش أي طلبات.. الولاد عايزين بعض واللي احنا عايزينه إن ربنا يسعدهم..

ورفعت زينب رأسها في كبرياء وقالت:

حازم عنده كام فدان في بلد المرحوم والده.. حيبيعهم ويجيب الشقة.. و...

وقاطعها مصطفى وهو يعلم إن الفدادين التي تتحدث عنها ما هي إلا فدان واحد تمتلكه زينب مناصفة مع أخيها وقال في حزم:

الحاجات دي لما تتباع على استعجال تخسر.. بص يا حازم.. أنا ما عنديش غير فريدة.. تحبوا تعيشوا معانا وأقفّل الدور اللي فوق وأعمّلكم سلم خارجي ما فيش مانع.. تحبوا يفضل بينا باب صغير برضة ما فيش مانع.. تحبوا تسكنوا برة.. أنا عندي عمارة قرب المستشفى على الكورنيش بتتشطب فيها شقة 280 متر فاضية.. خذوا القرار ومن بكرة شوفوها ونسلمها لمكتب

يشطبها ويديكوا مفتاحها في ظرف شهر أو اثنين.

ونظرت زينب إلى حازم الذي كان يغوص في أعماق حيرة كبرى.. وعادت زينب تنظر إلى بوز حذائها في ضيق شديد!

ä ä ä

أغلقت فريدة هاتفها الصغير في ضيق ودهشة.. اعتذر حازم عن لقائها في الشقة ليتسلماها من مهندس الديكور.. إنها لا تعلم لِمَ يهرب كثيراً من الذهاب معها لمتابعة العمل.. هي أيضاً لا تشعر بالسعادة أبداً كلما رأته ينظر حوله في أركان الشقة ويغمض عينيه في ألم رغم أنها أبداً لم تختر قطعة أو لوناً إلا بعد موافقته.

إنها تشعر دوماً أنها تخطو مع حازم على قطع حادة من الثلج المدبب.. هي دائماً يجب أن تخطو في خفة وحذر ويجب أن تخفي الكثير من حزنها وتتجاهل الكثير من تعليقاته الساخرة والمؤلمة ولكنها دوماً تغفو على أمل واحد.. قد تنتهي كل هذه القصص بعد أن يجتمعا معاً في بيت واحد.. سيدرك حازم عندها أن الحب وحده يكفي..

وعندما وصلت إلى مدخل العمارة الأنيقة التي تطل على النيل ولا تبعد عن المستشفى إلا بضع دقائق وقف الجميع يحييها وركض خلفها «سيد» عامل الجراچ يسألها:

أمال سيادة النقيب فين؟!

وابتسمت في طريقها إلى المصعد ووصلت الدور العاشر وتنهدت في هدوء.. في كل دور شقتان فقط وحين اقتربت من باب بيتها وجدته مفتوحاً وبدا كل شيء رائعاً وخطت إلى الداخل في سعادة..

لم يتبق شيء.. حتى الستائر تم تركيبها.. لا شيء سوى أن تستلم المفتاح وتنقل أشياءها الخاصة..

وقابلها المهندس «حسن» في ابتسامة كبيرة وهو يقرأ علامات الرضا على وجهها.

الريسبشن حوالي 120 م على شكل حرف T واجهته الأمامية كلها زجاجية وكأنك في أعماق النيل.. الأثاث كله من الخشب البني.. صالونان لويكانز كل منهما يتكون من ثلاث قطع متوسطة الحجم.. وفي الزاوية اليمنى وأمام النيل غرفة معيشة بها كنبة ومقعدان من الپارچير تتناثر حولهما نباتات خضراء جميلة وكأنها حديقة على النيل.. وفي الزاوية اليسرى والمقابلة لغرفة المعيشة غرفة طعام أنيقة تتكون من طاولة حولها ثمانية كراسي ويتوسط زجاجها السميك فازة بها ورود صناعية جميلة يصعب على أي إنسان أن يصدق أنها خرجت من مكان آخر غير حديقة فيلا «سالم»..

كل الألوان من البني الداكن وبعض لمحات من الذهبي الأكسيدية حتى الستائر.. وخطت فريدة خلف المهندس حسن لتدخل جناح النوم الرئيسي.. غرفة ملابس كبيرة يقسم حائطها تسريحة كبيرة، ليصبح قسم لها وقسم لملابس حازم.. ثم حمام كبير اختارته من اللون السيمون الهادئ.. ثم الجزء الرئيسي غرفة النوم.. حائط لا شيء فيه سوى واجهة زجاجية في قلب النيل وفي مواجهته سرير من الخشب الزان البني بأربعة أعمدة يتهدل عليها ستائر من الأورجانزا النبيتي الداكن.. وشيزلونج من نفس اللون.. وتحت أقدام النافذة عشرات الكاشبوهات التي تحمل نباتات خضراء وأزهار صغيرة ملونة.

وتنهدت فريدة وتمنت لو كان حازم معها.. ودق جرس الهاتف من حقيبتها.. إنه حازم.. وجاءها صوته خفيضاً كأنه يعتذر وقال:

فريدة.. لو أنت لسه عندك أنا ممكن آجي في ظرف نصف ساعة.

وأخبرته أنها ستنتظر.. وعادت تنظر إلى النيل في هدوء.. إنه رائع.. وإنها حقاً تحبه..

حازم طفل عنيد وفريدة تعشق الأطفال!!

ä ä ä

وقفت ماجي تنظر حولها وهي لا تصدق أن اليوم هو زفاف فريدة وأين.. هنا في الفيلا؟!

ولكن هذا هو اختيارهم.. أربعة شهور وماجي لا تصدق شيئاً مما يحدث حولها ولا تعلم لما يوافق مصطفى على كل هذه الأمور، ولكن كلما رأت السعادة في عين فريدة وكلما رأت حازم والحيرة في عينيه تقف الكلمات على شفاهها ولا تستطيع أن

تنطق حرفاً.

وأقبل أول المدعوين.. ووقفت ماجي تستقبلهم في ابتسامة واسعة.. وأقبلت مهجة إلى جوار سيادة الوزير أحمد وتمنت ماجي للمرة الأولى في حياتها لو لم تكن تعرفها.. فلولا هذه الصداقة ما عرفت فريدة حازم..

وفي التاسعة والنصف وبعد عقد القران هبط مصطفى سلالم الفيلا وفريدة تتأبط ذراعه..

كل شيء جميل أنيق وبسيط.. باقات صغيرة من شرائط الساتان وزهرات الأوركيد على سلم الفيلا.. ومن بين كل هذه الباقات كانت فريدة تبدو وكأنها أجمل زهرة على الأرض.. ثوبها الأبيض المصنوع من الدانتيل كان رائعاً ورغم الشتاء إلا أنها اختارته عاري الكتفين والظهر حتى خصرها.. لا شيء سوى شرائح من الساتان الأبيض وحول خصرها آخر هذه الشرائح تلتف لتنتهي في «فيونكة» رقيقة تتدلى على أردافها في حنان.

وينساب باقي الثوب لينتهي على بوز حذائها الأبيض من الأمام ويختفي الكعب في الخلف تحت ذيل الثوب الذي يتأرجح خلفها في فرح.

كانت طرحتها أيضاً من الدانتيل وتقف على حدود كتفيها.. وشعرها الذهبي مجموع في شينيوه بسيطة رائعة تكشف أكثر عن جمال وجهها وطول عنقها الأبيض الرائع، ومصطفى إلى جوارها بعينيه الهادئة وأنفه المستقيم وبشرته الخمرية.. إنه لا يقل عنها جمالاً أو أناقة..

وفي ذراعها الأخرى باقة صغيرة من الأوركيد تلتف حولها شرائط الدانتيل والساتان.. فريدة وحدها تخطف الأبصار لا جمال يرفع رأسه أبداً إلى جوار جمالها.. هذا ما قالته لها «ميري» جدتها وهي تخبرها أن الثوب الذي أرسلته لها لن ينظر إليه أحد فالأعين حين ترى فريدة لا ترى شيئاً آخر..

كان حازم يقف في أسفل درجات المنزل يراها وهي تهبط إليه.. كان يرتدي بذلة سوداء وقميصاً أبيض «كول كاسيه» كان رائعاً.. وسيماً وأكثر جمالاً من كل أيام عمره، ولكنه كما هو.. مازال في عينيه دهشة ولمحة من حزن لا يعلم أين يخبئه..

وأخذ يدها من مصطفى ووضع قبلة صغيرة على جبهتها ولم تتمالك ماجي نفسها وانطلقت بثوبها الأسود القصير نحو فريدة وضمتها في حنان وقالت:

مبروك.. مبروك يا حبيبتي..

كل شيء رائع.. هادئ.. حتى الموسيقى التي كان يعزفها الـ D-J الذي اختارته فريدة كانت هادئة رقيقة..

ونظرت فريدة حولها.. تعرف الجميع.. لم يحضر أحد مع حازم سوى أمه وخاله واثنين فقط من أصدقائه..

وقبل أن يبدو على وجهها الألم عادت الموسيقى تأخذها وكلمات التهنئة وعدسات التصوير. كانت تمسك بكف حازم في حنان وكأنها تخبره أنها أبداً لن تتركه..

وأقبلت زينب تقّبل فريدة في حب ثم عادت تنظر إلى أصبعها الذي يحمل الخاتم السوليتير والمحبس الذي اشتراهما حازم بحوالي أربعين ألف جنيه وهي لاتصدق أنها منحت وحيدها ميراث والدها ليضعه حول أصبع فريدة وأغمضت عينيها وضمت حازم إلى صدرها كأنها تحتمي به من مخاوفها ودهشتها.

مضى الوقت وفي الثانية صباحاً غادرت فريدة فيلا سالم وهي تعلم أن سكيناً من الألم تشق صدره وصدر ماجي، ولكن هي أبداً لن تدع يوماً يمر دون أن تراهما..

جلست إلى جوار حازم في سيارة مصطفى «الجاكوار» والتي ازدانت هي الأخرى بباقات الأوركيد وشرائط الساتان لينطلق بهما أحمد وفي الطريق قال:

الطيارة بكرة الساعة 2 الضهر مش كده يا دكتورة.. أجي اوصلكم المطار إمتى؟!

وأشاح حازم بوجهه وفريدة تعلم أنه غاضب لأن أحمد لم يسأله ولكن هي أيضاً تعلم أن أحمد لا يعرف كيف يبدأ معه حواراً..

وسألت حازم في هدوء ليتمتم قائلًا:

اللي تشوفيه

وقالت:

الساعة 12 كويس يا أحمد..

ووضعت رأسها على كتف حازم وهي تهمس لنفسها.. سيتغير.. سيتغير.. بقليل من الصبر والوقت سيتغير.

كم كانت تتمنى لو تذهب معه إلى باريس.. لتقضي شهر العسل في منزل «ميري» التي ألحت كثيراً في دعوتهما، ولكن حازم رفض ودعاها إلى السفر إلى الغردقة لتمضية أسبوع.. إنها لا تنسى أنه عندما سألها أين تود الإقامة قالت: الماريوت حلو..

لا تنسى أنه أسرع يقول:

أنا حاحجز وأعمل كل حاجة..

كم تتمنى فريدة لو يأخذ حازم الأمور ببساطة أكثر.. ولكن الأطفال يكبرون.. حتما يكبرون!!

ةةة

وصل العروسان إلى ماريوت الغردقة في الرابعة، وحين دخلا إلى غرفتهما في الدور الرابع وجدا باقة زهر وسلة فاكهة وبطاقة تهنئة من إدارة الفندق.. وابتسمت فريدة وحملت باقة الزهر لتضعها على جهاز التلفزيون المقابل للسرير وقالت في دلال:

عشان يبقى الورد قدامنا..

ورمت بجسدها على السرير وقالت:

أنا حاخد حمام وأغير هدومي وننزل البيسين..

وقال لها حازم:

لأ.. إنتي تعبانة وإحنا ما نمناش كويس.. نريّح شوية..

وفي اللحظات التي كان يأخذ فيها حازم حمامه بعد انتهاء فريدة من حمامها.. فتحت فريدة حقيبتها وأخرجت قميصاً أبيض قصيراً وارتدته.. لا شيء يوقفه على جسدها سوى شريطتين من الساتان الوردي.. وتتدلى من بعد صدرها شرائح أخرى رفيعة من نفس الساتان الوردي.. وكلما تحركت فريدة رقصت حول جسدها شرائح الساتان.. ووقفت أمام المرآة تطلق سراح خيوط الشمس.. وأخرجت زجاجة عطرها ووضعت زخات منه على جسدها.. إنها تعشق رائحة هذا العطر وحازم أيضاً يحبه.. لقد أهدتها جدتها أول زجاجه منه.. «شيرير 2».. واستدارت لتقف خلف النافذة الزجاجية الكبيرة المطلة على البحر الأحمر.. إن البحر هادئ ولونه في لون زرقة عينيها، ونظرت إلى ذاك الجسر الخشبي الصغير الذي يصل بين شاطئ الفندق والبار الخاص به في سعادة.. إن أول شيء ستفعله هو أن تسير مع حازم على هذا الجسر الصغير.. وشعرت بأصابعه على كتفيها واستدارت لتراه يرتدي بيجاما زرقاء أنيقة رغم بساطتها وأغلق ستائر الغرفة من خلفها في حنان بإحدى يديه ويده الأخرى مازالت تلتف حول كتفيها..

كان الضوء خفيفاً يتسرب من زوايا الستائر في خجل كأنه هو الآخر يود البقاء معهما..

وضمها حازم في هدوء وسار بها إلى السرير وحين ألقت برأسها على صدره انسابت أصابعه بين طيات شعرها تمشطها في حنان وقال:

بحبك يا فريدة..

ولم تجب وإنما ضغطت رأسها إلى صدره ودست شفاهها بين طياته وأخذت تقبّله قبلات صغيرة حانية وغادرت أصابعه شعرها وأبعدها عن جسده قليلًا وأخذ وجهها بين كفيه ونظر في عينيها وقال:

عارفة.. نفسي في إيه؟! نفسي الدنيا كلها تقف عند اللحظة دي.. ما يبقاش فيه حاجة برا حدودك.. نفسي الحياة كلها

تقف وما تتحركش وتفضلي كده في حضني لغاية آخر العالم.

وابتسمت فريدة وهي تحاول الوصول إلى كتفيه بشفتيها وقالت:

ويبقى اللي بيننا لحظة يا حازم؟! لحظة واحدة.. أنا مش موافقة.. أنا عايزة الدنيا تكبر وتتغير ويبقى ليها ألف شكل ولون.. ودايما نبقى قادرين نفضل مع بعض.. قادرين نحس ببعض.. أنا عايزة حبنا يبقى عمر مش لحظة..

ونظر إلى زرقة عينيها ولم يجد ما يقول.. معها يشعر أنه يعجز عن الكلمات ولا يجد ما يفعله سوى أن يمنحها ما يملك..

والتقط شفتيها في رفق ومرت كفاه تتجول على كل قطعة في جسدها وكأن أصابعه تكتب ألف قصيدة حب على جلدها.. ثم عاد يضم صدرها بين أصابعه ومالت فريدة بجسدها وسقطت خيوط الشمس على الوسائد البيضاء في حب وشوق وأخذها حازم في حنان وقوة.. في لهفة وهدوء وكأنه حين عجز عن الحديث أطلق جسده يحكي ويصف ويعبّر علّ فريدة تسمع قصائد عشقه.

ä ä ä

قضي الاثنان معاً سهرة رائعة في بار الفندق «صن ست» وقبل أن يصعدا إلى غرفتهما لقضاء الليلة الأخيرة أصرت فريدة ككل ليلة على الذهاب إلى ذاك الجسر الخشبي الصغير وسار حازم إلى جوارها يحتضنها في هدوء.. كانت النسمات باردة وكانت فريدة ترتدي شورت أبيض قصيراً يقف على أول حدود فخذيها وترتدي فوقه «تي شيرت» صفراء عارية الظهر ويلتف حبلها حول عنق فريدة.. كانت تعلم أن حازم لا يحب ما ترتديه ولا يحب أيضاً أن يراها ترتدي «المايوه»، ولكنه كان يكتفي بالصمت وهي قررت ألا تشتري ثياباً عارية بعد عودتهما أبداً..

وعبرا الجسر إلى «إيلاند بار» وهي جزيرة صغيرة تابعة للفندق ولم تكن الجزيرة أو البار الموجود بها يستهوي فريدة.. ما كان يستهويها هو الجسر الخشبي.. ووقفت على منتصف الجسر وأخذت ترقب مياه البحر وهي تبتعد وتعود لترتطم بجسد الكوبري وكأنها تنقر عليه وتخبره أنها تعود إليه من جديد..

وفجأة ركضت فريدة وعادت إلى شاطئ الفندق وقامت بسحب اثنين من الشيزلونجات المعدة للصباح التالي ووضعتهما في مياه الشاطئ ورفعت ظهريهما لتستلقي على أحدهما في خفة قائلة:

تعالى يا حازم.. هنا جنبي..

ونظر حازم حوله.. لم يكن هناك أحد سوى بعض رجال أمن الفندق الذين يتجولون في هدوء وجلس على حرف الشيزلونج المجاور لها وقدماه في الماء.. وانطلقت فريدة تتحدث عن رحلة العودة وعن كل ما يجب أن يفعلاه عند عودتهما في الغد.. ورأت حازم مطرقاً رأسه في الأرض وقالت في هدوء:

مالك؟

واستدار نحوها كأنه قرر أن يقول شيئاً ثم غيّر رأيه.. وقال في تردد:

خايف عليك من البرد..

ونظرت إليه فريدة وقالت:

أنت خايف من البرد ولا ما بتحبش الطريقة اللي بلبس بيها هدومي؟

ونظر حازم إلى البحر.. إنها تفهمه.. إنها تقرأ كل ما يدور برأسه.. إنها أبداً ليست كما يظن.. ليست مجرد فتاة جميلة مدللة، إنها أيضا تخفي داخل رأسها الجميل عقلًا لا يهدأ.. وشهق حازم عندما سمعها تقول:

أنا مش دلوعة ولا تافهة.. أنا شفت أيام صعبة كتير علمتني ووعتني.. أيام كان ممكن تقتل كل حاجة حلوة جوايا.. أنا أمي ماتت قبل عيد ميلادي بأيام.. كانت ست جميلة كانت كل حاجة في حياتي وحياة پاپي.. دخلت محل تشتري هدية عيد ميلادي وهي خارجة شافت پاپي طالع بالعربية الناحية التانية من غير ما تفكر قررت تروح له بدال ما يلف ويجيلها.. خبطتها عربية.. ماتت في لحظتها ماتت قدام عينيه.. فضل حاضنها وما حدش قادر يقرب منهم من حزنهم عليه لغاية ما البوليس قوّمه بالعافية..

راحت في لحظة.. في لحظة كان عندي أم وفي لحظة ما بقاش..

في لحظة كان عندي أب وفي لحظة بقى قدّامي راجل ضعيف منهار.. حتى لما رحت عند جدتي كنت أسمعهم يتكلموا عن حاجات تقتل من الخوف.. ياخدوني؟ يسيبوني مع مصطفى؟!.. كنت أحضن قميص «زويي» أمي كل ليلة وأنام... وأما ابتدت ريحتها تروح من القميص خفت أكتر.. أنا خفت واتعذبت في المرحلة اللي كان لازم أفرح وألعب فيها.. عشان كده أنا عرفت أن الدولار والفرنك واليورو كل دا ورق.. لكن الحقيقة هي اللحم والدم هي الإحساس هي البني آدميين.

أنا معاك عرفت الإحساس ده يا حازم.. وحسيت بالأمان، عشان كده مش حيفرق معايا أبداً إني أبطل ألبس هدوم عريانة أو حتى أنزل الميه..

الحاجات دي مش لازم تفرق معانا.. إحنا الأهم.. بس أنت كمان لازم تساعدني.. أنا بحبك..

واقترب منها وضمّها إلى صدره وأغمض عينيه وهو يتنهد.. سيحاول.. هو أيضاً يجب أن يحاول..

ä ä ä

فتحت فريدة مكتب مصطفى في المستشفى ولم تجده واستلقت على الكنبة الموجودة وأرخت رأسها إلى الخلف في إرهاق.. إنها متعبة.. أربعة شهور مرت على زواجها ومازال حازم ساكناً.. صامتاً لا تعلم أبداً كيف ترضيه.. لقد تعبت.. كم مرة خرجا معاً مرتين أو ثلاث.. كم مرة طلبت منه أن يذهبا معاً إلى فيلا سالم.. كثير ولكن كم مرة ذهب معها.. مرتين!! وفي كل مرة لم تكن الزيارة تطول أكثر من ساعة.

كم مرة ذهبت هي إلى منزل والدته.. مرة واحدة في زيارة قصيرة وما أن حضر بعض الجيران لرؤيتها حتى انتفض حازم في عصبية ليأخذها ويغادرا المكان.

إنها متعبة.. لا شيء يريحها سوى تلك الدقائق التي تقضيها معه قبل نومهما، عندها فقط يعود حازم الذي تحبه.. أربعة شهور لم تغف ليلة إلا بين ذراعيه.. حتى في تلك الليالي التي لا يأخذها فيها.. فهو لا ينام إلا وهي بين ذراعيه وأصابعه تمشط شعرها في حنان.. تكاد تجن كيف يكون بكل هذا الحب ليلًا ويأتي الصباح ليعود بهذا السكون والجمود.

وشعرت بمصطفى يقبّلها على جبهتها وفتحت عينيها المتعبة لتجده يسحب مقعداً ويعود وهو يعيدها بذراعيه إلى الخلف في رفق قائلًا:

خليك يا حبيبتي زي ما انتِ.

وأطال مصطفى النظر إلى عينيها وسأل السؤال الذي طال سجنه في صدره:

فريدة.. مالك.. أنتِ ليه مش سعيدة؟!

هل أصبح واضحاً على وجهها إلى هذا الحد وقالت في يأس:

حازم.. حازم يا بابا.. أنا تعبت.. تصور.. راح يتغدي عند مامته ومش عايزني أروح معاه.. مش بس كده.. لأ.. حاجات كتير.. تصور لحد النهاردة عمره ما ساق عربيتي.. ومضت تقول في حيرة وصوتها يقطر دمعاً وحزناً:

بيديني ثلاث أرباع ماهيته.. الربع اللي بيفضل معاه طبعاً مش بيكفيه.. مرة سمعته بيطلب من أمه «ميت جنيه» سلف.. حاجات كتير غريبة وغبية، لكن الأغرب إني مش قادرة أتكلم معاه.. تفتكر قدرت أقوله مثلًا يأخذ الـ «ميت جنيه» مني أبداً. فاهمني يا پاپي؟!

وبعد صمت قصير قال مصطفى:

حازم مسكين يا فريدة.. حازم لما بيروح شغله بيلاقي الناس تحترمه والعساكر في الإدارة يقولوا له يا باشا وأما يزور أمه كل الحتة تبصله وتجري عليه.. لكن يا فريدة لما يدخل بيتك بيحس إنه غريب.. إنه ولا حاجة غير جوز الدكتورة.. مهما حاولتِ ومهما عمل هو حتى لو إداك ماهيته كلها حيفضل برضة يحس إنه جوز الدكتورة فريدة مصطفى سالم.

حازم مش عارف يبقى الراجل اللي عايز يكونه ومش قادر يبعد عنك ويرجع الراجل ده لأنه بيحبك.

ونظرت فريدة إلى مصطفى والدموع تكسو عينيها وقالت في مرارة:

تفتكر بيحبني حقيقي؟!

ونظر إليها مصطفى في ذعر وقال:

أوعي.. أوعي تشكي في حب حازم يا فريدة.. وأوعي تحت أي ظرف تحسسيه إنك شاكّة في الحاجة الوحيدة اللي يملكها واللي بيقدمها لك.. أوعي يا فريدة صدقيني يابنتي دي ممكن تكون النهاية..

ä ä ä

نظرت فريدة في غضب إلى حازم وهي تخطو خارج البيت وقالت:

حازم.. برضة مش حاتيجي معايا.. دا پاپي عازم الدكتور مروان علشان أنا وأنت نتعرف عليه..

ورفع حازم عينيه في هدوء وقال في صوت خفيض:

فريدة.. حبيبتي الدكتور مصطفى عازم الدكتور مروان علشان ده ابن صاحبه القديم، وعلشان أنتو كلكم دكاترة مع بعض وبتشتغلوا في مستشفى واحد.. وأنا ما ليش في حواديت الدكاترة والمستشفيات.. ده يوم راحتي.. أنا حانام كمان شوية.. بكرة الصبح زي ما قلتلك.. الدكتور أحمد مسافر ولازم أكون معاه من بدري..

وقالت فريدة في يأس:

طب أنا ممكن ما أروحش.. أنا حاشوفه في المستشفى بعد كده.. قوم نتعشى بره يا حازم.

وابتسم حازم ليقول في سخرية مريرة:

إحنا آخر الشهر يا فريدة.. نتعشى بره إزاي؟!

يا حبيبتي روحي أنتي لباباكي.. صدقيني أنا كويس.. خدي أنتي بس بالك من روحك..

ولم ترد فريدة هذه المرة.. توجهت إلى خارج البيت وأغلقت الباب وكأنها تصفع وجه هذا البرود الكبير.. ووقفت أمام مرآة المصعد تنظر إلى صورتها..

إنها ترتدي تايير من «كريستيان ديور» من اللون الكحلي ويطل من تحته قميص أبيض اللون.. إنه أنيق ولكن فريدة اختارته لأن حازم يحبها في الملابس الرسمية.. حتى شعرها كان فوق رأسها في شينيوه كبير.

لقد اشتاقت إلى الچينز وتلك القمصان القصيرة التي تحب ارتداءها ولكن تخلت عن كل هذا من أجله، وهو يرفض أن يذهب معها إلى زيارة والدها..

وشعرت بالغيظ وبطفولية حمقاء مدت أصابعها لتفك «الشينيوه» وسقطت خيوط الشمس على كتفيها.. ثم مدت أصابعها تفك بعض أزرار القميص الأبيض وشعرت أنها تخرج لسانها لحازم..

وفي فيلا «سالم».. التقت فريدة بمروان.. لا يزيد عمره على 35 عاماً.. أطول منها بحوالي 6 سم فقط.. ووقف يصافحها وعلى وجهه ابتسامة كبيرة وانحنى يقبّل يدها وهو يقول:

زي ما شفتك يا فريدة من اتناشر سنة.. آخر مرة كنت فيها هنا مع بابا الله يرحمه.

وابتسمت فريدة.. وجلست في المقعد المقابل له ترقبه في صمت..

إنه أبيض البشرة وجهه مربع.. عيناه ضيقتان صغيرتان تشع في بريق حاد.. أنفه مستقيم وإن كان طويلًا بعض الشيء. شفتاه رفيعتان وأسنانه بيضاء منتظمة، شعره بني وكأنه كان ذهبياً ذات يوم.. جبهته عريضة وشعره خفيف قليلًا من الأمام ويزداد طولًا وكثافة من الخلف..

وعادت فريدة تنظر إلى عينيه السوداء وهي تسأل كيف يكون شعره قريباً للشعر الأشقر وتكون عينه سوداء.. ثم هزت كتفيها وابتسمت..

ورغم أنه كان مشغولًا بالحديث مع ماجي إلا أنه التفت نحوها قائلًا:

ابتسامتك حلوة بس إيه اللي مش عاجبك؟

وشعرت فريدة بالخجل.. إنه لمّاح ولا يدع شيئاً يمر من أمامه بسهولة.. وفكرت لحظة وقالت:

أبداً.. أصلي كنت بأحاول أفتكر الدكتور سعد الله يرحمه بس مش قادرة خالص..

وعاد مروان يبتسم ويقول:

أنتِ يوميها ما قعدتيش معانا.. نزلتي بوستي الدكتور مصطفى علشان تطلعي تنامي.

وعادت فريدة تسأل كيف يذكرها من تلك الثواني القليلة.

وقال مصطفى:

الدكتور سعد الدين الله يرحمه كان راجل عظيم..

هو أنت بتقابل مامتك يا دكتور مروان؟!

واجتاح وجه مروان الأبيض غمامة نفضها في سرعة وقال:

حضرتك عارف إنها انفصلت عن بابا وأنا عندي أربع سنين ومن ساعتها وهي متجوزة في لبنان..

ثم استدرك قائلًا:

طبعاً باسافر لها كتير..

وطالت الأحاديث حتى جاء موعد العشاء وما إن جلسوا جميعاً على المائدة حتى سأل مروان وهو ينظر إلى فريدة:

هو حازم بيه مش جي..

ومرت سحابة حزن على وجه فريدة وهي تقول:

أنت عارف شغل البوليس.. حاول بس ما عرفش!!

ورفع مصطفى عينيه ونظر إليها في ألم.

ة ة ة

وقفت السيارة البيضاء أمام باب المنزل ليهبط منها سائقها ويركض ليفتح الباب لحازم وهو يقول:

أستنى سعادتك يا باشا؟!

ورفع حازم أحد حاجبيه وقال في اقتضاب:

لأ.. روَّح أنت..

ورفع حازم رأسه ليخطو في هدوء وثقة نحو باب البيت.. وتنهد بارتياح.. هنا يخطو بثبات.. هنا يخطو بقوة.. إنه حتى لا يعلم لما تختلف خطوته في المعادي.. لما يشعر أنه يركض وهو يدخل إلى عمارة المعادي وكأنه يتمنى ألا يرى أحد وألا يراه أحداً..

وقبل أن يدخل إلى مدخل العمارة سمع صوت عم محمد يناديه قائلًا:

حازم باشا.. يا حازم باشا والله الحتة من غيرك مالهاش حس.

واستدار إليه حازم ليبتسم له ابتسامة ضيقة اعتادها عم محمد منذ أصبح ابن زينب ضابط شرطة لكن هو اليوم أيضاً نسيب أحد أغنى رجال البلد.. من حقه إذن أن تضيق ابتسامته أكثر، وقال العجوز في تمّلق:

والله بافكّر انقل محل الكاوتش بتاعي في المعادي.. ثم استكمل قائلًا:

حازم باشا ليا طلب عند سيادتك وإن شاء الله مش حتكسفني..

وقال حازم في اقتضاب:

اشغالات تاني يا عم محمد؟!

وصاح الرجل:

لا.. لا الحمد الله.. دا الواد سعيد جوز بنتي ما انت عارفه مش لاقي شغلانة تلّمه.. والله أنا لولا إني مش عايز مشاكل كنت

جبته وقف معايا في المحل لكن انت عارف بقى..

وتململ حازم في ضيق قائلًا:

ربنا يسهل بس انت عارف الشغل دا..

وقاطعه الحاج محمد قائلًا:

أنا عايزك بس تكلم الدكتورة تشوفله شغلانة عندهم.. ان شالله سواق.. دا يوم ما كنتو هنا بتزوروا الحاجة.. الواد السواق بتاعها قاللي ان ماهيته بتقفل ألف جنيه ويمكن أكتر.. الناس دي مش حيفرق معاها سواق كمان ولا حتى عشرة.. والنبي يا باشا.. دي البنت حتتطلق لو ما اشتغلش.

ورمقه حازم بعصبية واضحة ثم مضى إلى الداخل وهو يقول:

ربنا يسهل.. ربنا يسهل..

شعر حازم انه يركل درجات السلم في غيظ.. حتى عم محمد اصبحت فريدة هي أمله وطوق النجاة له ولإبنته من الطلاق..

لم يعد سيادة النقيب الآن يملك شيئاً سوى أن يتوسط لدى الدكتورة.. وابتسم في مرارة وهو يفتح باب الشقة ليجد زينب تصلي في الصالة ونظر إليها وابتسم.. ماذا لو كانت هي الأخرى تريد شيئاً من الدكتورة؟!

ونفض رأسه ومضى من جوارها إلى غرفته قائلًا:

أنا حانام شوية.. لّما تحضري الأكل صحيني.. ودخل غرفته لينظر إليها في هدوء ثم انحنى يخلع حذاءه ليرتمي على سريره وينظر أمامه في حزن وضيق كبيرين..

إنه لم يسأل يوماً كم يأخذ «أحمد» سائق الدكتور مصطفى.. هل تراه حقاً يأخذ ألف جنيه.. وعاد ينفخ أنفاسه في ضيق.. لما أصرّت فريدة يومها على إحضار أحمد..

ثم عاد يتنهد في ضيق أكبر.. إنه يعلم لماذا.. فريدة تدرك جيدا أن حازم يكره أن يجلس إلى جوارها لتقود هي السيارة وهو يرفض أيضاً أن يقود سيارتها.. إنه بالكاد يعرف قيادة السيارات.. ماذا لو تسبب في حادثة.. ماذا لو تضايقت فريدة من قيادته.. حتماً سيغضب.. بل إنها حتى لو لم تهتم سيغضب أكثر.. انه حقاً لا يعلم ما الذي يرضيه.. لا شيء معها يرضيه.. إنه حائر.. سيارة فريدة وبيت فريدة وعائلتها في نظره مثل حذاء كبير لو وضعه في قدمه لأصبح شكله مضحكاً مثل بلياتشو الموالد.. ولو خطى به خطوة سيقع على رأسه.. ولكن بيت حازم وعائلته أيضاً مثل حذاء ضيق رخيص لو حاول أن يضعه في قدم فريدة ستختنق وتقع هي الأخرى على رأسها..

تململ حازم وهو يتقلب في سريره ثم عاد يتذكر عم محمد.. هل حقاً أحمد السائق يأخذ ألف جنيه أو أكثر.. زوج الدكتورة فريدة.. النقيب حازم على راتبه الشهري راتبه أقل من راتب سائقها..

انتفض حازم وهو يشعر أنه يختنق.. كان يشعر أن دخاناً أسود يخرج من رأسه وعينيه.. واعتدل في فراشه ليخرج سيجارة ليشعلها.. إنه يمنح فريدة خمسمائة جنيه كل شهر ويحتفظ هو بمائة جنيه.. مائة جنيه يفترض به أن يشتري بها كل مستلزماته.. ملابس.. أحذية وسجائر ومن المفترض أيضا أن يساعد زينب بجزء من هذه النقود.. فريدة لا تعلم أنه يقترض من زينب بدلًا من أن يساعدها.

ونظر حازم إلى دخان سيجارته المشتعلة..

الأحمق.. لقد رمت فريدة بالنقود التي منحها إياها في الشهر الأخير في درج «الكومود» دون اكتراث.. عشرة أيام وهو يتفقد النقود كل يوم ليجدها نائمة حيث ألقت بها..

أيها المسكين.. ماذا تفعل فريدة بهذه المئات؟!

وحده يحترق.. يحترق مثل هذه السيجارة، أما فريدة فهي حتى لم تفكر في أن...

ونهض حازم من سريره ووقف خلف النافذة يرقب شارع الضاهر.. في ماذا يريد فريدة أن تفكر؟!

هل يريدها أن تتظاهر بأن هذا البيت الكبير الذي يحيا فيه معها بحاجة إلى مئاته الخمس؟!

وعاد حازم يهز رأسه في عنف.. لقد قارب على الجنون.. لكن على من يقع اللوم؟!

اللوم يقع عليه وحده.. فريدة لم تخبره يوماً أنها ستكتفي بما يمنحها.. بل أنها حتى لم تسأله يوماً عن دخله.. لم تطلب منه يوماً قرشاً واحداً بل أنه يشعر دوماً أنها لا تريد أن تأخذ منه شيئاً.. في كل شهر تنظر في عينيه وكأنها ترجوه لو يحتفظ بنقوده كاملة..

نقوده.. أي نقود.. هل هذه حقاً نقود؟!

يكره العودة إلى ذاك البيت.. بل إنه يكره البيت نفسه.. يكره أن يزوره أحد هناك.. كم مرة طلب منه أصدقاؤه أن يحدد لهم موعداً لزيارته.. في كل مرة كان يختلق ألف عذر.. لا يحتمل أبداً أن يدخل أحد إلى ذاك البيت ليخرج وهو يتهكم ويسخر منه.

حتى أمه.. كم مرة أخبرته أن «سعاد» تريد أن تذهب هي وبناتها ليباركوا له ولفريدة..

سعاد جارة العمر تريد أن تذهب إلى بيت حازم.. إنه لا ينسى أن زينب قالت له وهي تطمّئنه أن سعاد اشترت «طقم كبايات» لتأخذه هدية إلى فريدة..

فريدة لا تستخدم إلا البوهيميا والليموچ وأطقم النورتاكي والكريستوفل..

وعاد يجلس على حافة سريره لينكس رأسه ناظراً إلى بلاط الغرفة وابتسم..

سعاد تدفع «طقم كبايات» ثمناً لألف قصة تعود بها لشارع الضاهر بأكمله.. ألف قصة عن منزل الدكتورة وملابس الدكتورة.. والحاج محمد يريد ألف جنيه في الشهر ليصبح عنده ألف قصة يحكيها كل يوم عن والد الدكتورة وزوجة أبيها..

وأفاق حازم من جنونه وهو يهمس:

ملعون أبو..

وسكت كل شيء في رأسه فجأة وكأن ناراً أكبر أمسكت بها..

إنه يحب الدكتورة.. يحبها..

ولكن الحب وحده أبداً لا يكفي!!

ã ã ã

عندما تحسّس حازم بيده مكان فريدة إلى جواره لم يجدها ولم يفهم طرقات الباب التي يسمعها ثم عاد بعد لحظات يسأل: مين؟!

وفتحت إيمان الباب في هدوء وهي تقول:

صباح الخير يا حازم بيه.. الدكتورة نزلت بدري وقالتلي أصحيك الساعة عشرة..

وأرخى حازم عينيه قائلًا:

طب من فضلك اعمليلي شاي يا إيمان..

جلس حازم أمام النيل في غرفة المعيشة بعد أن ارتدي ثيابه ثم نظر إلى إيمان في تردد وهي تضع أمامه كوب الشاي وبعضاً من قطع الكرواسون والساليزون ثم سحب نفساً عميقاً ليقول بعده:

إيمان.. انتي بتاخدي كام في الشهر؟!

ونظرت إليه إيمان في دهشة قائلة:

باخد سبعمية وخمسين جنيه.. أنا خريجة خدمة اجتماعية.

وعاد حازم يقاطعها ليسألها:

- انتِ اللي بتشتري طلبات البيت؟!

- لا يا فندم.. أحمد سواق الدكتور بيجيب كل حاجة كل يوم سبت وأنا باحضّر لستة بالنواقص..

هو حضرتك محتاج حاجة؟!

وهزّ حازم رأسه ليقول في صوت خفيض:

لا يا إيمان..

الدكتور مصطفى هو الذي يرسل طلبات المنزل.. وابتسم في سخرية.. إيمان أيضاً راتبها أكبر ومصطفى هو الذي ينفق عليه هو وزوجته.. ومد يده ليلتقط قطعة كروسوان ثم ألقاها في ضجر وعاد يسأل نفسه في مرارة.. هل تمنح فريدة والدها ما يعطيها إياه من نقود؟!

وإن فعلت ماذا تراه يخبرها؟!

إنه لا شيء.. لا شيء في هذا البيت..

يجب أن يغادر هذا المكان.. يجب أن يختار إما أن يخرج أو أن تستأنسه فريدة.. نعم فريدة تريد أن تستأنسه.. إن لم يكن يستطيع مغادرة هذه المملكة فليرتدي الملابس التي تحضرها له وتضعها في دولابه.. كم قميصاً اشترت له حتى الآن.. لا يعلم ولكنه يضعهم جميعاً في صف واحد لا يلمسه.. وضحك حازم ضحكة عصبية وهو يرى نفسه مستأنساً.. يرتدي قميص كريستيان ديور ويضع عطر «كنزو» وحذاء ايطالياً ويجلس إلى جوار فريدة في جاكوار مصطفى سالم ليتبعها في الدعوات والسهرات.. أو ربما وقف إلى جوار إيمان كل شهر لتمنحه فريدة نفحة شهرية يمنحها لزينب..

ونظر حوله في جنون وهو يشعر أن جدران المنزل تطبق على ضلوعه في قسوة.. لا طريق أمامه سوى ان يرحل أو يُستأنس..

نهض حازم في جنون ليدخل غرفته من جديد.. لقد قرر فجأة أن يرحل.. لم تربه زينب أبداً طوال هذه الأعوام ليصبح أول ضابط مستأنس.. سيرحل.. ووقف يبحث بعينيه عن حقيبة يضع فيها ملابسه، لن يبقى هنا مع امرأة لا تعلم حتى ما يدور بداخله..

امرأة لا تستطيع أن تشم رائحة الحرائق التي تكتوي بها كبرياؤه كل يوم ألف مرة..

وأخرج هاتفه الصغير من جيبه ليجد فريدة تطلبه وحين أجاب قال صوتها في لهفة:

صحيت يا حازم.. أنا أسفة جداً إني نزلت بس پاپي كان عايزني في المستشفى ضروري..

ورد عليها في اقتضاب:

أنا صحيت وحانزل كمان شوية.. العربية لسه ما وصلتش.

لكن فريدة عادت تقول في لهفة بعد لحظات صمت قصيرة:

حازم.. خد بالك من روحك يا حبيبي لا إله إلا الله..

واغلق حازم هاتفه في غيظ لا يعلم سببه.. في حيرة لا تعلم فريدة قسوتها.

إنه يحب فريدة.. على ماذا إذن يريد أن يعاقبها.. لماذا كلما شعر بضآلة حجمه أمامها رفع سكينه في وجهها وحدها.. الأمر أبسط من هذا كثيراً.. إما أن يرحل وإما أن يبقى.. ربما كان من الضروري أن يتحدث معها.. يجب أن يضع كفها الرقيق على هذا النزف الكبير.. قد يجدان معاً طريقاً ما أرحم من الرحيل..

ولكن ماذا يقول لها؟!

هل يخبرها أنه يختنق من عجزه.. من ضآلة حجمه.. هل يخبرها أنه يعلم أنه لا شيء؟!

هل يعترف؟!

ولكن كيف يعترف؟

إن الاعتراف بالعجز أكثر ألماً من العجز نفسه..

ä ä ä

ثلاثة شهور منذ التحق مروان بالعمل في المستشفى ومنحه مصطفى مركز رئيس قسم الحالات الحرجة.. إنه لا يهدأ أبداً دوما يتحرك.. دوماً يعمل ودوماً يراقب فريدة ويقترب منها ودوماً يطرق باب مكتبها لتناول القهوة معها..

فريدة تحب انطلاقه وكأنه يذكرها بفريدة القديمة..

فريدة أيضاً تحب أناقته وكلما نظرت إليه تذكرت ماجي.. كل قطعة يرتديها من بيت أزياء كبير.. كل قطعة يجب أن تعطيك إحساساً بأنها ما صنعت إلا من أجل الأخرى..

دوماً يحاول الوصول إلى ما يدور في قلبها ورأسها وهي دوماً تهرب من أسئلته الكثيرة.. ففي كل يوم تزداد فريدة حيرة ويأساً.

كل هذه الأفكار طرقت رأسها وهي تميل برأسها إلى الخلف على كرسي مكتبها في الثالثة ظهراً..

اليوم لن تحتمل وجود مروان معها.. إنها متعبة مرهقة لكن يسكن صدرها أمل كبير بأن غداً سيكون يوماً مشرقاً في حياتها وحياة حازم..

رغم كل شيء تحبه.. وتشتاق إليه دوماً..

وفي لحظة خلعت فريدة البالطو الذي كانت ترتديه وحملت حقيبتها بعد أن حادثت مصطفى لتنطلق إلى البيت..

لقد أخبرها حازم أنه لن يعود ظهراً لكنه سيعود في حوالي الثامنة.. لم تتناول فريدة أي طعام.. ستأكل معه عند عودته.

وأخذت حمامها الساخن ثم ارتدت بيجاما زرقاء من القطن الأبيض منقوشاً عليها صور كثيرة لدببة صغيرة من اللون الأحمر.. وشورت أحمر يقف على حدود فخذيها كما تحب.. وأطلقت خيوط الشمس على كتفيها.. ثم استلقت في فراشها وهي تبتسم..

هي تعلم أن غداً في حياتهما سيكون يوماً جديداً..

ã ã ã

كانت الساعة السادسة مساء حين أنهي حازم يوماً طويلًا من العمل منذ السادسة صباحاً وهو يلهث خلف الدكتور أحمد. ورمى بظهره إلى مقعد السيارة وأخذ ينظر إلى سقفها.. اليوم لن يتراجع عن قراره.. اليوم سيفعلها..

لم يعد بإمكانه الاحتمال أكثر من هذا.. لقد كره كل شيء حوله.. حتى الدكتور أحمد.. لم يعد أبداً يطيق العمل معه..

منذ تزوج حازم فريدة وهو يشعر أنه كلما نظر إلى عينيه يرى فيهما غضباً مكتوماً كأن الرجل يخبره أنه يعلم أنه سرق فريدة.. خدعها ليتزوج أموالها وأموال سالم بأكملها.. بل أنه في بعض الأحيان يشعر أنه يقسو عليه ويتعمد هذا لكي يثبت له دوماً أنه سيبقى لا شيء سوى ضابط الحراسة التابع له وأن زواجه من ابنة صديقه لا تعني شيئاً أبداً..

لقد فكر حازم طويلًا في أن يطلب نقله أو حتى العمل مع وزير آخر.. لكنه سيبقى دوماً زوج ابنة مصطفى سالم.. لماذ إذن يغضب من الدكتور أحمد؟!

إن كان أصدقاء عمره ودراسته ينظرون له ذات النظرة.

بالأمس قال له أشرف زميل الدراسة وسنوات العمل أنه يجب أن يستقيل من الشرطة بأكملها.. لقد أتهمه بالحماقة والغباء.. قال له إنه من الجنون أن يبقى في الشرطة وهو زوج ابنة مصطفى سالم.. قال له إنه يجب أن يكون المسؤول عن الشئون القانونية في المستشفى وفي كل شركاته العقارية الأخرى.. لن ينسى أبداً تلك النظرة التي كان ينظر بها في عيني حازم كأنه يتمنى لو كان مكانه.. أو لو كان لا يصدق أبداً أن حازم لا يفكر في كل هذا.. لا أحد يصدق.. لقد بدأ هو نفسه يشك في نفسه..

لم يعد أمامه سوى طريق واحد يثبت به لنفسه وللآخرين أنه تزوجها فقط لأنه أحبّها..

وابتسم في مرارة.. يجب أن يتركها ليثبت أنه أحبّها.. لكنه يثق أنه يوم يتركها سيقول الجميع إنه فعل هذا لأنه لم يتمكن من إنجاز كل ما كان يحلم به..

واعتدل لينظر من خلف زجاج السيارة لا يهمه أحد.. يهمه أن ينجو بما بقى من رأسه وأعصابه.. ولكن ما ذنب فريدة.. ماذا

سيقول لها.. لا يستطيع أن يتركها هكذا دون كلمة.. كلمة؟! أي كلمة في قاموس اللغة بإمكانه أن يستخدمها لتفهمه.. إنها عنيدة رقيقة صافية كحبة المطر.. إنها لا تعلم ما يسمعه حازم وما يراه في كل الأعين..

لا فائدة.. لم يبق أمامه سوى الرحيل وإن كانت فريدة تحبه وستتألم لفراقه فمن قال إنه لا يحبها.. من قال إن فراقها لن يؤلمه.. من قال إن من يطلقون الرصاص على أنفسهم لا يتألمون؟!

إنه حقاً منهك.. متعب.. ربما كان من الأفضل أن ينام.. أن يهدأ.. ربما يهدأ هذا الفوران الذي يسري في عروقه.. وتنبّه حازم إلى صوت السائق يخبره بأنه وصل منذ لحظات..

مضى حازم إلى مدخل العمارة في هدوء وهو يدعو الله أن يجد فريدة نائمة.. يريد أن ينام في صمت.. يريد لهذه الثورات أن تنام قبل أن تشعل حريقاً هائلاً.. ولكن الحريق قادم.. إن نام في هذه الليلة فهناك ألف ليلة أخرى في الانتظار!!

دخل حازم إلى المصعد وهو يهز رأسه في عنف يجب أن يهدأ.. يجب أن يهدأ حقاً..

عندما دخل إلى غرفته وجدها نائمة.. كان ضوء الأباچورة منعكساً على وجهها الجميل.. وكانت مستندة بظهرها على بعض الوسائد.. كان واضحاً أنها غفت وهي تنتظره..

شعر بحزن كبير.. كم يظلمها وكم هو أيضاً يشعر بالظلم.. ثم وقف يفكر في أن يسحب من خلف ظهرها الوسائد لكنه قرّر أن يأخذ حمامه الساخن ويرتدي بيچامته أولاً لينام إلى جوارها.. إنه حقاً متعب لا يحتمل أن تصحو ولا أن يسقط هو أمام شوقها وضعفه أمامها.. وعندما كان يستدير ليذهب إلى الحمام شعرت به فريدة لتفتح عينيها الزرقاوين ثم تنظر إليه في حنان وجد نفسه يقول لها في لهفة حقيقية:

أنا آسف.. صحّيتك يا فريدة؟!

لكنها اعتدلت قليلاً وهي تقول:

لا يا حبيبي.. أنا كنت مستنياك ونمت.. أنا ما أكلتش حاجة من إمبارح..

وقال في ضيق حقيقي:

يا خبر.. طب قومي.. أنا حاحضّر السفرة..

ومدت فريدة ذراعيها في رفق قائلة:

لأ.. تعال جنبي الأول..

وجلس إلى حافة السرير ليضّمها في شوق وهو يقول:

آخذ حمام.. أنا من الصبح في الشارع والتراب..

وقالت فريدة في حنان:

عندي حاجة حلوة عايزة أقولها..

لم يستطع أبداً أن يقاوم.. أغمض عينيه وضمّها إلى صدره وهو يقول:

إيه يا روحي؟

وهمست وهي تبتسم:

أنا حامل..

شعرت به ينتفض.. ثم ابتعد عنها قائلاً في ذهول:

إيه؟!

ورفعت فريدة عينيها.. كانت تعلم أنه سيحلق عالياً من السعادة..

لكن حازم نهض من جوارها وسار ليجلس على «الشيزلونج» المواجه لسريرهما ووضع رأسه بين كفيه لحظات ثم قال في هدوء:

لأ يا فريدة.. أنا مش موافق..

لم تفهم فريدة شيئاً لكنها اشتمت رائحة حريق هائل يخرج من صوته ولم تنطق وعاد حازم يقول وهو يحاول أن يسكب على صوته الهدوء:

أنا مش عايز ولاد.. على الأقل دلوقت..

ولم تفهم وأخذت تحمّلق في وجهه في ذهول..

كانت تظن أنه سيحملها عالياً.. كانت تظن أنه قد يبكي فرحاً.. كانت حقاً تظن..

وذبحه صمتها أكثر ليقول وصوته يعلو:

الموضوع لسه في إيدينا.. أنت اكيد تقدري تتصرفي.

وقاطعته في هدوء:

أتصّرف.. أنت عايزني أعمل عملية إجهاض؟

وهز رأسه بالإيجاب..

شعرت فريدة بدوار عنيف يجتاح رأسها لتقول في سخرية:

وحكم الإعدام ده مالوش أسباب؟!

وأجاب في ثبات:

أسباب كتير.. إحنا ما كملّناش سنة لسه.. وأنت لسه كنت بتفكري تبتدي ماچستير ودكتوراة وبعدين إحنا لسه صغيرين أنت لسه عندك..

وقاطعته فريدة وقد بدأ صوتها هي الأخرى يعلو في يأس وتحد:

حازم.. بطّل هلفطة.. فيه إيه؟!

وقال في عصبية:

مافيش.. مش عايز ولاد ومش حاسيبك تفرضي وجود بني آدم على حياتي.

لكنها قاطعته في جنون:

بني آدم.. بني آدم؟ ده ابنك..

وانطلق حازم يصرخ في جنون:

لأ.. لأ يا فريدة مش ابني مش ابني.. مستحيل يكون ابني.

وقفزت فريدة من فراشها في جنون لتقف أمامه وهي تتمنى لو تصفعه ألف صفعة.

لكنه عاد يكمل:

مش ابني يا فريدة.. أنا حبقى مجرد اسم على ورقة.. لكن حيبقى ابن مصطفى سالم.. حيبقى ابن ماجي مراد.. لا أنتِ ولا هما حتسيبوه يكون ابني.. حتسيبيني أسمّيه على مزاجي؟! حتخليني أوديه المدرسة اللي أنا روحتها واللي أقدر أدفع مصاريفها.. حتخليني أخده وأروح الضاهر عند أمي.. حيعجبك إنه ينزل الشارع يلعب مع ولاد الجيران.. حتقبلي أنه يتشتم ويسمع شتايم.. وأما أمي تشتريله هدوم حتسيبيه لابسها.. إزاي يبقى ابني.. ردي.

كانت فريدة تنظر إليه وهو يصيح في جنون وهي لا تفهم كثيراً مما يقول لكن حازم عاد يصرخ كأنه تذكر أشياء أخري:

أما يتعب أو يمرض زي أي طفل حتخليني أوديه مستشفى الشرطة ولا لازم يروح مستشفى مصطفى سالم «الفؤاااااد كلينك». لأ.. مستحيل ما أقدرش ألعب دور الشرف تاني.. مجرد اسم لأبن.. كفاية قوي إني بالعب دور الشرف اسم جوز لفريدة سالم..

ما أقدرش أبقى أب عيرة.. كفاية جداً زوج عيرة مالوش دور..

وقالت في حزن:

ياه.. كل ده يا حازم.. كل ده.. واما أنت زوج عيرة راضي تلعب الدور ده ليه؟

وكأنها صفعته لكنه حاول أن يرد الصفعة قائلًا:

لأني حقير.. ضعيف

وقالت في برود وسخرية:

طب والحب؟!

وأجاب وهو يشير إلى فراشهما:

حب ضعيف بيبتدي هنا ويموت هنا.. لأنه ما يقدرش يخرج بره الأودة دي..

سكتت فريدة لحظات لتقول وهي تشعر أنها تراه يتضاءل أمامها حتى كاد يصبح في حجم إصبعها الصغير:

ولو رفضت الإجهاض؟!

وأجاب وجنونه يعلو:

يبقى أخرج من حياتك.. ما أقدرش أشوف ابني وأنا عارف أن حبيبجي يوم يبقى ممنوع اللمس.. يوم يقف ويقول لي أمي هي كل حاجة، أما أنت وأمك ولا حاجة.. حا أمشي ومش حيكون لي أي صلة بيكم.

ونظرت إليه وهي تشعر أنها تكرهه.. تكره كل ما قال وكل ما لم يقل وقالت:

موافقة.. بس زي ما بترهن حياة البني آدم ده على حياتك معايا.. أنا بأرهن موته على خروجك من حياتي.

ونظر إليها وهو لا يفهم وعادت تقول:

حاعمل العملية لكن حتخرج من حياتي.. حارحمك من ضعفك جوه الأودة دي.. قلت إيه؟!

نكّس حازم رأسه في صمت ليغادر الغرفة وهو يقول بصوت يخلو من أي إحساس:

موافق يا فريدة..

كم مضى من الوقت وفريدة تفكر.. ربما ساعة.. ربما أكثر..

لا شيء يملأ رأسها وعينيها إلا ظلاماً أسود..

لا شيء يملأ أذنيها إلا صراخ حازم وكلماته..

وهزّت رأسها.. إنه على حق في كل كلمة قالها.. ما بينهما ضعيف لا يقوى على مغادرة هذا الفراش..

ثم مدت أصابعها إلى هاتفها الصغير لتقول في هدوء:

سامية؟! إزيك.. سامية أنا عارفة إنك بتعملي عمليات إجهاض.. بصي أنا حابعتلك حد دلوقتي على العيادة من طرفي.

وعادت تقول:

صايمة يا سامية.. صايمة.. نص ساعة..

كانت الساعة تقارب العاشرة عندما دخلت فريدة إلى عيادة الدكتورة سامية محمود.. كانت تعرفها منذ أيام الجامعة غير أن سامية كانت تسبقها بثلاثة أعوام.. حاولت كثيراً أن تلتحق بمستشفى سالم ولكن كان الجميع لا يحبها لما ذاع عنها من اجرائها لهذا النوع من العمليات.

وما أن رأت سامية فريدة حتى شهقت وهي تبحث خلفها وتنظر حولها ثم قالت عندما تأكدت أنها وحدها:

إنتي؟ طب ليه..

وقالت فريدة في هدوء:

من غير ليه يا سامية أرجوكي..

عندما نامت فريدة على سرير العيادة المخصص لهذه العمليات أغمضت عينيها وهي تشعر بالألم.. هنا رقدت مئات

النساء.. مئات القصص.. قصص الخطيئة والحرام.. ها هي ترقد هنا لتقتل جنينها من حازم.. حازم؟!

ومالت سامية تحقن وريد فريدة بالمخدر لتفتح فريدة عينيها وهي تحاول أن تقول:

لأ.. لأ.. بلاش يا ساااامية..

لكن جفونها سقطت في يأس وبينهما دمعة صغيرة!

ä ä ä

فتحت فريدة عينيها ورأت سامية إلى جوارها لتتذكر كل شيء ورفعت رأسها في صعوبة قائلة في صوت ضعيف:

خلاص؟! خلاص يا سامية؟!

وربتت الأخرى على كفها وقالت بابتسامتها الصفراء:

آه يا حبيبتي اطمّني كل حاجة كويسة.. نص ساعة حاروّحك البيت.. مش حاسيبك تروحي المعادي لوحدك في نص الليل كده.

ورمت فريدة برأسها إلى الخلف..

«خلاص»!!

هل انتهى كل شيء حقاً؟!

كانت الساعة الثانية صباحاً تقريباً عندما دخلت سيارة سامية إلى فيلا سالم وساعدتها حتى وصلت إلى باب الفيلا ودقت سامية الباب وقالت فريدة في ضعف:

ليه.. أنا مفاتيحي معايا.

وما أن فتح عم محمد الباب حتى عادت سامية مسرعة إلى سيارتها.. انها تخاف لقاء د. مصطفى..

ونظر عم محمد إلى وجه فريدة في ذهول وصاح:

إيه يا بنتي.. إيه يا حبيبتي مالك؟!

عندما أغلق خلفها الباب وفي اللحظة التي استندت فريدة بظهرها إلى الباب ظهر مصطفى على أعلى درجات السلم وهو يسأل:

مين.. مين جي دلوقت؟!

ورآها.. رآها تنظر إليه من بعيد وصاح وهو يركض على السلالم في صوت مذبوح:

فريدة؟!

وما أن أقترب منها مصطفى حتى مدت إليه ذراعيها لتسقط بين يديه وليضمها هو في جنون وهو يسأل:

أنتِ كويسة.. كويسة يا حبيبتي؟!

لم تقل فريدة شيئاً.. أغمضت عينيها على كتفيه وبكت..

ä ä ä

نظر مصطفى إلى ساعة يده وتنهد.. كان يجب أن يظهر حازم منذ نصف ساعة.. تأخر.. أتراه لن يحضر؟!

شهر مرّ منذ تلك الليلة.. شهر لم تحضر فيه فريدة إلى المستشفى.. شهر وهي تسأل مصطفى عن حازم وتتعجل الطلاق..

مصطفى لا يصدقها لكنه أيضاً يعلم أنه لا حل آخر بقي أمامهما.. كان من الممكن أن تلقى فريدة حتفها في عيادة تلك الطبيبة الكريهة.. ماذا ينتظر بعد الآن.. هذه القصة يجب أن تنتهي..

كان غارقاً في أفكاره حتى أنه لم يسمع طرقات الباب لكنه رأى مشيرة تدخل إلى مكتبه وخلفها حازم وقال في هدوء:

اتفضل.. اتفضل يا حازم..

قام عن كرسيه لكنه لم يغادر مكتبه وإنما صافحه في هدوء ليجلس حازم أمامه في صمت طال دقائق بعدها تنهد

مصطفى من جديد ليقول في صدق وحزن:

ماكّدبش عليك.. ماكنتش أتمنى إنكوا تتجوزوا.. بس برضه ماكنتش أتمنى أبداً إنكوا تتطلقوا.

رفع حازم عينيه العسلية العميقة ولم يعلم ماذا يقول:

لكن مصطفى عاد يكمل وهو ينظر إليه في رثاء:

يمكن لو أدتها فرصة تفكر.. يمكن لو هي ما اتسرّعتش ونزلت في نص الليل تعرض نفسها وتعرضّني للموت..

يمكن كان ممكن يبقى فيه أمل.. لكن صدقني أنا مش شايف حل تاني..

وعاد حازم يطرق برأسه إلى الأرض قائلًا:

أنا عارف.. لكن لسه مش قادر.. حاضر.. أوعد حضرتك إني حاطلّقها.

ولم يكمل.. مرت سحابة دموع في عينيه ابتلعها سريعاً وعاد يكمل:

حانهي كل حاجة.. إديني فرصة يومين..

عندها مد مصطفى أصابعه ليخرج شيكاً صغيراً كان قد أعدّه ليقول:

حازم.. والدتك باعت الفدان وأنت لسه في بداية حياتك وأكيد حتحتاج المبلغ اللي أنت..

رفع حازم رأسه في جنون كأن سكيناً حادة شطرته نصفين.

لم يقل شيئاً لكنه مضى إلى خارج المكتب وقبل أن يخرج استدار ليقول:

أنا حانزل من هنا على أول مأذون يقابلني..

وسقطت دمعة من عين مصطفى.. لا فائدة.. حازم لن يتغير.. ثم أمسك بسماعة الهاتف ليقول بعد لحظات:

ست زينب.. إزيك.. ممكن أشرب مع حضرتك فنجان قهوة.. بس أرجوك بلاش تبلّغي حازم..

بكرة كويس جداً.. مع السلامة..

ä ä ä

دخلت ماجي غرفة فريدة بعد تلك الطرقات الرشيقة على بابها.. واعتدلت فريدة بظهرها في فراشها لتجلس ماجي إلى جوارها وقالت بابتسامتها:

ممكن نتكلم شوية؟

وهزت فريدة رأسها وهي تقول:

آه.. طبعاً يا ماجي..

تنهدت ماجي وقالت في صدق:

فاكرة يا فريدة مصطفى كان عامل إزاي بعد مامتك الله يرحمها؟!

واتسعت عينا فريدة في ألم.. رغم كل الأعوام مازالت ذكرى هذه الأيام تؤلها وجاءها صوت ماجي وهي تكمل:

كان زي المجنون.. اللي كان رابطه بالدنيا هو أنتِ. أنا سمعته كتير.. وحبيته واتجوزته وأنا عارفة إنه بيحبها.. عارفة؟! أوقات كتير حتى وأنا عروسة في أول جوازنا كنت أفتّح عينيا ألاقيه بيبكي.. أوقات كان يتهيألي إنه بيعيط من الكسوف من مامتك لأنه معايا.. وأوقات كنت أحس أنه بيبكي شوق ليها.. وأوقات كتير كنت أحس أنه بيبكي لأنه مش قادر يا فريدة يكون معايا زي ما كان معاها.. لكن كنت دايماً بأحس إني قوته.. عمري مازعلت لأني أنا الموجودة وهي لأ..

جرح الكرامة والحب لما بيبقى كبير زي الموت يا فريدة..

وأطلت طبقة كثيفة من الدموع على عينّي فريدة وهي تقول:

أعمل إيه.. يا ماجي أنا..

وقاطعتها في حنان:

ما تضيعيش عمرك.. أنت مش حتقدري ترجعي لحازم حتى لو بتحبيه.. وحتى لو رجعتوا عمركوا ما حتنسوا اللي حصل ولا حتقدروا تكونوا زي زمان..

بصي حواليكي يا فريدة.. شوفي حد يكون بيحبك ويكون قوتك وعيشي.. عيشي يا حبيبتي..

وقالت فريدة في يأس:

مروان؟!

وعادت ماجي تقول:

مثلًا.. ده ما بيعديش ساعة إلا لما يسأل عنك.. فكّري.. اوعديني يا فريدة..

ومسحت فريدة دموعها وهي تقول:

حاضر يا ماجي..

انحنت بعدها ماجي لتقّبل رأسها وتغادر الغرفة في صمت..

وعادت فريدة برأسها إلى الخلف وهي تفكر..

كم مضى منذ طلقها حازم.. ستة شهور.. ستة شهور لم يحاول أن يتصل بها مرة.. هل نسيها.. هل تحرّر منها ومن ضعفه كما أخبرها.. ولكن هل نسيته هي.. أبداً لكنها أيضاً لا تتخيل أن تنظر في عينيه بعد كل ما حدث.. ماجي على حق.. يجب أن تجد قوتها.. وتنهدت وهي تتذكر مروان.. إنه دوماً يحوم حولها.. وحده من أقنعها بالتقديم لرسالة الماچستير، وحده من يخبرها القصص والأحاديث والنكات.. وحده من يدعوها دوماً إلى السينما والعشاء.. لقد سألها كثيراً عن سبب طلاقها لكنها أبداً لم تخبره.. حتى عندما أخبرته مرة أنها تشعر أنها مازالت تحب حازم وتشتاق إليه.. لم يغضب بل أمسك يدها في حنان وأخبرها أن الأيام كفيلة بكل شيء.

لكن شيئاً ما في عينيه الضيقة لا يريحها..

شيئاً ما تشعر أنها لا تفهمه ولا تحبه أيضاً..

وهزت فريدة كتفيها في يأس.. كانت تعتقد أنها تفهم حازم وتعشق كل قطعة في جسده..

ها هي نهاية ذاك الحب والارتياح..

ماجي على حق.. لن تبقى العمر تنتفض ذلًا وشوقاً ووهماً..

وأخرجها صوت هاتفها الصغير من أفكارها ونظرت إليه وابتسمت في حزن إنه «مروان»!!

ä ä ä

انحنت زينب في هدوء لتسقط من عينيها دمعة وهي تضع مصحفاً صغيراً في حقيبة حازم ثم تغلقها في حزن.. ورفعت رأسها تنظر إلى وجهه وقالت:

أنا مش قادرة أصدق إنك حاتمشي.. مش قادرة..

وعادت تجهش بالبكاء.

واقترب حازم منها في هدوء وضمّها في حنان وأجلسها على حافة السرير وعاد يعيد ما يقوله لها كل يوم ألف مرة:

يا أمي.. حتى لو أنا ما كنتش طلبت نقلي للصعيد كده كده كانوا حيودوني.. أروح وأنا صغير أحسن وأرجع في المكان اللي أختاره.. مكان أحسن.

وقاطعته زينب من بين دموعها:

مكان إيه اللي أحسن من اللي كنت فيه.. وبعدين حتى لو مش عايز تكون مع الدكتور أحمد كان ممكن يتوسّطلك تروح الحتة اللي أنت عايزها.. لكن الصعيد.. الصعيد يا حازم والإرهاب يا ابني، وأنا تسيبني لوحدي أنت عايز تهرب يا حازم.. عايز تهرب.. طب أنا ذنبي إيه؟!

وسحب حازم نفساً عميقاً من صدره وهو يقول:

لأ يا حبيبتي.. أنا مش عايز أهرب.. أنا عايز أكبر عايز أخلّص الكام سنة بتوع الصعيد وأرجع في مركز كويس ودخل أحسن.

ثم ابتسم وقال وهو يحاول أن يدخل السعادة إلى قلبها:

عشان يبقى عندي فلوس كتير وأتجوز يا أم حازم.. أتجوز العروسة اللي أنتِ تختاريها..

ورفعت عينيها ونظرت إليه في ألم وقالت:

يعني عاوز تتجوز بجد؟!

وهز حازم رأسه بالموافقة في يأس..

ونهضت زينب وخرجت من الغرفة لتعود بعد دقائق وهي تمسك في يدها ورقة صغيرة قائلة:

خد.. الفلوس أهي وأنا حاروح للدكتور أحمد وأخليّه يتوسط ويلغوا السفر.. واتجوز يا حبيبي.

أمسك حازم بالورقة في يده.. إنها وصل إيدا ع بمبلغ خمسين ألف جنيه، ونظر إليها في جنون وهو يسأل:

إيه ده يا أمي.. منين الفلوس دي؟!

وأفاقت زينب من ذهولها وهي تعترف:

دي الفلوس اللي بعت بيها نص الفدان.. الدكتور مصطفى رجعهم بعد أنت ما طلّقت فريدة..

وصرخ حازم في جنون ودون وعي:

إيه.. أنت اتجننتِ؟ إزاي خدتيهم منه.. إزاي.. إزاي تقبلي وإزاي ما أعرفش.. إزاي.. حرام عليكي.. حرام عليكي..

وقاطعته زينب وكأنها كانت تنتظر طويلًا هذه اللحظة:

باقولك إيه.. هي اللي طلبت الطلاق.. أنت ما أذيتهاش إيه ذنبنا أحنا بقى.. الراجل عمل الصح واللي يرضي ربنا..

وعاد حازم يصرخ في جنون أكبر:

أنا ما أذيتهاش.. أنا قتلتها.. فريدة كانت حامل وأنا نزلتها في نص الليل عشان تقتل ابني.. ابني منها!

أنا ما أذيتهاش.. أنا قتلتها.. قتلتها..

ورمت زينب جسدها على السرير ونظرت إلى وجهه المجنون في ذهول وقالت:

هي فريدة كانت حامل؟!

واستدار حازم إلى النافذة ونظر عبرها وجاءها صوته يرتعش كأنه يستعيد تلك اللحظات:

أيوة.. كانت فرحانة وكان نفسها تفرحني.. لكن ما اديتهاش فرصة.. ماسبتش الفرحة تبات جواها ليلة واحدة.

وشعر بأصابع زينب تجذب ذراعه في قوة ليلتفت وينظر إليها وإلى عينيها الغاضبة التي خلت فجأة من الدموع وقالت:

إخص عليك.. حاتروح من ربنا فين.. بعد كل اللي عملته البنت معاك.. حاتروح من ربنا فين.. حاتروح من ذنبك فين؟!

وتراجع حازم وكأنه يرى بشاعة ما فعله بفريدة للمرة الأولى وهمس في حزن:

فريدة أكيد حتسامحني.. أكيد حتعذرني.

لكن زينب عادت تقول في قسوة:

أنا مش دكتورة ولا دخلت كلية الشرطة ولا حتى أخدت الإعدادية، لكني ست وأعرف أن الست اللي جوزها مش عايز منها عيال يبقى ما يستاهلش إنها تنام في حضنه ليلة.. حتى فلوسك رموهالك..

يا خسارة ماكنتش أعرف إنك غبي وجاحد.. يا شيخ تروح الصعيد ولا تروح آخر الدنيا حتروح من ربنا فين.. أنت خسرت يا حازم.. خسرت خسارة عمرك.

وبكت زينب في عنف بكت حزناً على حازم وفريدة.. بكت حزناً على حفيد لها مات بيد وحيدها.. وانتفضت وهي تبكي

خوفاً من ذنبه في حق جنين صغير وامرأة ما فعلت شيئاً سوى أنها أحبته في صدق!

وجاءها صوته مختنقاً بالبكاء:

ارحميني.. أنا فيّ اللي مكفيني.. ما تسيبنيش أسافر وأنتي زعلانة مني.. يمكن يجرالي حاجة..

ورفعت زينب عينيها في ذعر وقالت:

بعد الشر يابني.. دانا ماليش غيرك.. ربنا يغفر لك يا حازم، ربنا يسامحنا كلنا.. فريدة ربنا حيعوض عليها..

وضمّها إلى صدره وقال كأنه يفرغ آخر ما في جعبته:

أنا رحت أسلم على الدكتور أحمد إمبارح قاللي إن فرحها بعد أسبوع.

وأبعدته زينب عن ذراعيها ونظرت في عينيه ثم عادت تضمه وهي تعلم أنه مازال يحب فريدة وقالت:

ربنا يسعدها ويسامحك ويعوض عليك يا ضنايا..

وحمل حازم حقيبته ليتوجه إلى مطار القاهرة، وحين ركب الطائرة المتجهة إلى الأقصر أغمض عينيه ورآها..

رآها كما يراها دوماً كلما أغمض عينيه.

قارب فراقهما العام ومازال يراها ويشم رائحتها كأنها كانت بالأمس بين ذراعيه.

ä ä ä

لم يكن زفافاً عادياً لكنه كان زفافاً أسطورياً..

وبعد انتهاء الزفة الكبيرة على درجات سلالم فندق «الماريوت» وبعد أن جلست فريدة إلى جوار مروان في «عايدة» أكبر قاعاته تستمع إلى غناء «عمرو دياب».. نظرت حولها في هدوء وغابت كل الأصوات عن أذنيها وشعرت أنها تفيق للمرة الأولى منذ شهور طويلة كانت تلهث فيها بسعادة.. كان مروان دوماً يشغل كل وقتها في إجراءات الزفاف.. في ديكورات الدور الثاني في فيلا سالم.. في كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة.. لم يكن يدعها إلا وهي مغمضة العينين من إجهادها، إنه مليء بالأفكار.

لكنها الآن.. هدأت وجلست واستدارت تنظر إليه.. إنها حقاً تحسده على كل هذه السعادة التي تنطق بها كل ملامح جسده.. كانت في يوم ما مثله.. وأرخت جفنيها في خجل.. كيف تفكر في ليلتها مع حازم وهي إلى جواره، ولكن هل هي حقاً تحب هذا الرجل.. هل حقاً تريد أن تكون زوجته.. ورفعت عينيها لتنظر إلى باب قاعة «عايدة» وتمّنت لو ترى حازم يدخل.. وسرت قشعريرة باردة في جسدها..

ماذا لو حقاً حضر؟! وابتسمت ابتسامة صغيرة مريرة مدّت بعدها أصابعها الرقيقة البيضاء في خجل لتضعها بين كف مروان كأنها تعتذر.. كأنها تريد أن تحتمي به من جنون أفكارها.. ووضع مروان قبلة سريعة على كفها وأخذ يسألها عن المدعوين.. إنه لا يصدق أن مكاناً واحداً بإمكانه أن يتسع لكل هذه الشخصيات العامة.. وابتسم وهو يقول لها:

ده الحكومة كلها هنا..

واقترب «عمرو دياب» يدعوهما للرقص وقامت فريدة وهي تحاول أن تكون سعيدة لكن ما بقي في رأسها شيء سوى سؤال واحد:

.. هل هي حقاً سعيدة كما ينبغي أن تكون؟!

رقصت «دينا».. غنى «مدحت صالح» وعزف «عمرو سليم» وفي الرابعة صباحاً وقبل انتهاء الليلة طلبها مصطفى للرقص.. ووقف يضمها في حنان على تلك الموسيقى الهادئة ورمت فريدة رأسها على كتفيه وقال في مرح:

حتوحشيني يا فريدة..

وقالت فريدة في صدق:

خلاص.. بلاش نسافر.. بلاش نسافر يا حبيبي أنت كمان حتوحشني..

ثم عادت تلتصق به كأنها حقاً لا تريد فراقه..

وضمّها بحزن.. إنه يشعر بخوفها لكن مروان يحبها.. هو يعلم كم يريد مروان أن يحيا وأن يكون سعيداً.. فريدة بحاجة إلى رجل يأخذها إلى الحياة إلى السعادة وقال في حنان:

مش عايزين نزعل مروان ولا ميري... دي تلاقيها بتعد الدقايق يا فريدة وبعدين لما ترجّعوا حنرجع نعيش مع بعض في البيت والمستشفى يا حبيبتي..

ورفعت فريدة عينيها وسحابة من الدموع تخفي زرقتها قائلة: ربنا يخليك ليّ يا حبيبي..

وقفت بعدها فريدة تقذف بوكيه الزهر من خلف ظهرها لتعلو صيحات البنات وتلتقطه «هدى» في جنون وهي تصيح:

حاتجوز بعدك يا فريدة..

وأخذها مروان من يدها إلى مصعد الفندق ليدخلوا جناح «البريز دينشال».

ووقفت فريدة في منتصف الغرفة تراقب مروان وهو يغلق باب غرفة النوم ويخطو نحوها في لهفة كبرى ودق قلبها في جنون وابتسمت وهي تقول:

ياه ما كنتش فاكرة إن الفرح حيخلص متأخر قوي كده.. أنا ميتة من التعب..

واقترب مروان وهو يخلع ملابسه ووقف أمامها وهو يقول:

أنا ميت من الشوق..

وخلع عنها طرحتها بعصبية واضحة حتى شعرت فريدة بالألم من جذبه لشعرها ومدت أصابعها تكمل نزعها وشعرت بأصابعه تتسلل إلى ظهرها لتفتح لها «سوستة» ثوبها وهمست:

مروان.. فيه إيه؟!

وضمّها إليه وهو يقول:

فيه إنك عروسة وأنا عريس.

وسقط ثوبها تحت جسدها ولم يبق على جسدها سوى الكولون الذي ترتديه وانحنت فريدة في غضب تلتقط ثوبها ثم خلعت حذاءها.. ولاحقتها أصابع مروان تخلع عنها ما تبقى من ثيابها.. وشعرت فريدة أنه لا فائدة من مقاومته ونظر إلى جسدها العاري وقال في صوت متقطع:

ياه.. أنتي فعلًا مافيكيش غلطة واحدة..

وحاولت فريدة أن تغمض عينيها وتحتمي بصدره لكنه كان محموماً بها وأسقطها على فراش جناح الماريوت وأخذ يقّبلها قبلات سريعة محمومة وهي تحاول كثيراً أن تجعل من لقائهما الأول شيئاً آخر، لكنها حين يئست تركته يلتهمها في صمت.. وفي النهاية قبلّها قبلة صغيرة على جبهتها وقال:

تعالي.. تعالي نامي في حضني..

وعندما لم ترد فريدة.. استدار مروان لينام في لحظات وبقيت فريدة تحدّق في سقف الغرفة في هدوء ودموع ساخنة صامتة تزحف على أطراف وجهها في حزن..

نهضت فريدة بعد أن تأكدت من نوم مروان لتأخذ بين أصابعها قميص نومها الذي وقع على الأرض كأنه هرب من رؤيتها تتعذب بين ذراعيه.. ومضت لتقف تحت الماء الساخن دقائق طويلة.. كأنها تتمنى لو تمحو آثار كل قطعة مرت عليها أصابع مروان..

وارتدت قميص نومها الأبيض القصير ووقفت ترقب نفسها في المرآة في ذهول..

ربما كان مروان معذوراً.. ربما يجب أن تحاول هي أن تكون أكثر اقتراباً منه.. ربما كان هذا هو الزواج وهذا هو الحب والجنس الحقيقي..

ã ã ã

وقفت ماجي تطمئن بعينيها على نظافة وترتيب كل جزء في الدور الثاني بالفيلا والذي أصبح سكن مروان وفريدة.. لقد نقلت غرفة نومها هي ومصطفى إلى الدور الأرضي.. لقد رفض مروان أن يغلقوا الدور العلوي.. وابتسمت ماجي.. مروان حقاً رجل رائع لقد قام بإعادة تصميم الدور الثاني بأكمله..

غرفة نوم كبيرة له هو وفريدة وبجوارها غرفة أخرى يفصلهما باب ليجعل من الأخرى غرفة معيشة كبيرة، وغرفة مكتب خاصة به تقع على الجهة المقابلة لجناح النوم والمعيشة.. وقام بتصميم أوفيس كبير أمامه غرفة صالون وسفرة صغيرة في الجزء المفتوح على السلالم التي تقود إلى الدور السفلي.. وترك غرفتين خاليتين قال يومها وهو يبتسم إنه ينوي إنجاب طفلين ولد ثم بنت.. وعادت ماجي تبتسم..

هل حقاً تصبح فريدة أماً.

من المقرر أن يصلوا غداً.. لقد أعدت ماجي لهم حفلًا رائعاً دعت إليه كل من كانوا في الزفاف.. فهي تعلم أن الجميع يريدون مجاملة مصطفى سالم الذي لا ينسى أبداً أن يجامل الجميع في أي مناسبة.

إن ماجي سعيدة... تشعر أن فريدة أخذت حقها أخيراً في الحياة.. وفي طريقها إلى الدور السفلي رأت فريدة ومروان يدخلان من باب الفيلا وصرخت وهي تخطو على السلالم:

إيه ده مش معقول.. إيه اللي جابكم النهاردة؟

ونظرت إلى فريدة التي كانت ترتدي جوب سك ضيقة تقف فوق ركبتيها في لون قشرة البرتقال وترتدي فوقها قميصاً من الحرير البيستاج وشعرها مرفوع فوق رأسها كأنه تاج على رأس ملكة جمال الكون.. ورمت فريدة بنفسها بين ذراعيها وهي تقول:

وحشتيني يا ماجي.. پاپي هنا ولا في المستشفى؟

عندما أخبرتها ماجي أنه في المستشفى.. ضم مروان ماجي وقبّلها قائلًا:

طيب أنا طالع ارتاح شوية.. فريدة صممت إن إحنا نعملّكوا مفاجأة..

جلست فريدة إلى جوار ماجي تحكي لها عن كل ما شاهدته.. عن ميري.. عن سعادتها بهما وشعرت ماجي أن فريدة تحكي عن كل شيء إلا أنها لا تذكر اسم مروان أبداً في قصة من قصصها.

ä ä ä

فريدة تتحرك في حماس كبير.. صباحاً في المستشفى ومساءً في أوراق الماچستير.. إنها ليست سعيدة ولا حزينة.. لا شيء حقاً يؤلمها إلا تلك اللحظات التي يحاول فيها مروان الوصول إلى جسدها.. لكنها كثيراً ما كانت تدعه يلتهمها في سكون.. وفي كل مرة بعدها كانت تحتضن وسادتها لتغمض عينيها وتتذكر حازم في خجل كبير.. كانت دائماً تردد لنفسها أنها تحيا نقيض حياتها مع حازم.. كان يومها دوماً معه مليء بالحيرة والألغاز وحده ليلها كان يشتعل بالحب والإحساس، وها هي مع مروان يومها مليء بالإثارة والحركة وليلها وحده يذبحها جموداً ومللًا ويأساً..

كل هذا مر في رأسها وهي تشعر أنها متعبة لا رغبة لها في العمل منذ أيام.. وأسندت رأسها على ظهر كرسيها ثم استدارت ترقب النيل وهي تعجز عن مقاومة تفكيرها في حازم.. لقد اشتاقت إليه حقاً وتتمنى لو تعرف شيئاً عن أخباره.. ثم عادت تهز رأسها في حيرة، إنها لا تعلم إن كان يجب أن تكرهه أم تغفر له.

أطرقت فريدة برأسها قليلًا ثم فجأة تذكرت شيئاً ما.. قامت بعدها بخطى متثاقلة تسرع نحو معمل المستشفى.. لابد أن هناك تفسيراً لهذا الإجهاد الذي تشعر به منذ أيام..

بعد دقائق من دخولها المعمل علمت أنها حامل..

ووقفت تنظر إلى طبيبة المعمل التي كانت تهنئها في وجوم.. إنها سعيدة لكنّها تذكرت لحظات حملها أول مرة.. لقد كانت تهرب دوماً من ذكرى تلك اللحظات.. اللحظات التي أضاعت حب العمر.. وخطت خارج المعمل بعد أن قررت الذهاب إلى مروان

لتخبره لكنها وجدت نفسها تدخل مكتب مصطفى في هدوء.. لتنظر إليه وهي تقول:

حبيبي.. أنا حامل..

ونهض مصطفى ليضمّها في حنان وهو يقول:

مبروك يا حبيبتي.. مبروك..

تنهدت فريدة بين ذراعيه.. كانت غارقة في دهشتها لِمَ أخبرت مصطفى أولًا.. لا تعلم.. شيء ما بداخلها لا يعترف بمروان ولا يقبله..

ودخل مروان إلى مكتب مصطفى وهو يصيح:

مبروك يا فريدة.. مبروك يا حبيبتي..

والتفتت فريدة تنظر إليه في دهشة.. لم تمض دقائق على خروجها من المعمل.. من أخبره.. كيف يعلم مروان كل ما يحدث في هذا المبنى الكبير؟

وأخذها بين ذراعيه ليرقص بها وهي تبتسم إحدى ابتساماتها الضيقة التي ما عرفت يوماً كيف تمنحه ابتسامة أكبر منها.

ä ä ä

دخلت مشيرة إلى مكتب مصطفى بعد طرقات صغيرة على بابه لتجلس في المقعد المواجه لمكتبه وهي تقول:

خلاص يا مصطفى.. حتبقى جد؟! وفريدة حتبقى أم؟!

والتقت عيناهما في هدوء.. لم يسألها من أين عرفت وفريدة ومروان لم تمض لحظات بعد على مغادرتهما مكتبه.. هذا جزء من عمل مشيرة.. هذا سبب من أسباب نجاحها وثقته فيها.. دوما تعلم أشياء كثيرة لكنها أيضا تنتقي ما يمكن قوله لمصطفى وتتعامل مع ما لا يجب أن يعرفه..

وابتسم ابتسامة صغيرة حائرة.. منذ متى يعرف مشيرة.. منذ متى وهي هنا معه.. أكثر من اثني عشر عاما.. منذ وفاة زوجها الدكتور صالح صديقه.. لن ينسى كيف كانت تبكي ذعرا وهي تحتضن أحمد ابنها الذي كان يبلغ السابعة يومها وعلى ذراعها الأخرى محمد الذي لم يكن قد أكمل عامه الثاني..

لم يكن صالح يملك شيئاً سوى عمله في مستشفى سالم ولم تكن هي تملك شيئا إلا شهادتها الجامعية.. لكن مصطفى وعدها أنه وحده سيتكفل بتربية أبناء صالح.. مشيرة بكت أكثر لحظتها لترجوه في كبرياء أن يجد لها عملا أيا كان.. حاول كثيرا أن يثنيها عن ذلك.. لكنها رفضت حتى أخذها لتكون سكرتيرته الخاصة.. واتقنت مشيرة عملها.. تفانت وفاء وإخلاصا حتى أصبح لا غنى له عنها.. إنها تعلم كيف تفصل بين الصداقة والعمل.. في لحظات العمل هو الدكتور مصطفى وهي مدام مشيرة التي يجب ألا تخطئ أبدا.. وفي لحظات الفراغ والعناء هي مشيرة الصديقة الحنون وهو مصطفى الذي لا يغلق باب قلبه أبداً..

وتنهّد، إنه يحب وجودها.. يحترم احترامها لنفسها وتمسّكها بأمومتها ومبادئها.. إن في حياته مجموعة من البشر يشكلّون الحياة نفسها..

كانت مشيرة تثرثر وتستعيد مواقف طريفة من طفولة فريدة ثم قالت فجأة في قلق:

أيه.. أنت سرحان في أيه؟!

وابتسم مصطفى قائلا:

عجّزت أنا وحأبقى جد خلاص.. لأ وأيه؟! أحمد ابنك بكرة يتجوز هو كمان وابقى جد لأبو البيبي اللي كنا بنلعب بيه من كام سنة..

وأدمعت عين مشيرة وهي تشعر أن مصطفى حقا هو أب لأبنائها ثم قالت في صدق:

ربنا يخليك يا مصطفى.. وتكبّر ولاد فريدة زي ما كبّرت ولادي وعلّمتهم وريّحت أبوهم في موته..

ونهضت مشيرة وهي تقول كأنها تذكرت هّما يجثم على صدرها:

مصطفى.. أنا عندي مشوار مهم دلوقتي ممكن استأذن؟!
لكن مصطفى كعادته قال وهو يرفع رأسه ناظراً إليها:
رايحة فين؟! فيه حاجة؟! محتاجة فلوس؟! مشيرة..
وابتسمت وهي تخطو نحو الباب قائلة:
اللي يعرفك مش ممكن يحتاج حاجة من الدنيا..
وما أن أغلقت الباب حتى عاد وجهها متجهما غاضبا..
ليتها تستطيع أن تخبره إلى أين هي ذاهبة..

ä ä ä

بحثت مشيرة بعينيها عن مكان تترك فيه سيارتها الريتمو القديمة تحت العمارة التي تسكنها بشارع فوة في العجوزة لكنها لم تجد، ونظرت حولها في عصبية تبحث عن أي مناد تتركها لديه ولم تجد فأخذت تدور حول العمارة بحثا عن مكان.. كانت تشعر بغيظ كبير بل كانت تشعر أن دمها يكاد يفور.. لقد حادثها الدكتور خالد ليخبرها أن ميرفت أجرت تحليل حمل لفريدة وأنها غادرت المعمل بعد ذلك في عصبية واضحة.. بل أخبرها أنها كانت تهمهم بكلمات تلعن فيها فريدة لأنها سرقت منها مروان.. هذه الحقيرة تعتقد أن فريدة سرقت منها مروان.. إن مشيرة لم تندم يوما على شيء فعلته في حياتها قدر ندمها على أنها هي من طلبت من مصطفى تعيين ميرفت طبيبة في معمل المستشفى.. كانت تشفق عليها.. ألحقتها بالعمل في مستشفى سالم رحمة بأمها «الست محاسن».. جارتها التي أفنت عمرها لتربية ميرفت حتى أصبحت طبيبة تحاليل.. مسكينة محاسن.. ميرفت لا تعترف بالجميل.. إنها شابة ناقمة.. كل ما تريده هو الثراء. ظنت الغبية أن مروان سيأخذها إلى عالم الثراء.. حتى قبل أن يتم طلاق فريدة من حازم.. قالت لها مشيرة كثيراً إن مروان لن يتزوجها أبدا.. مروان بسمعة أبيه الكبيرة وبثروته التي جاء بها من أمريكا.. بأناقته.. باستعلائه وغروره لن يرضى أبدا بها.. لكن ميرفت كانت تؤكد أنه سيتزوجها.. حمقاء.. كان يعبث بها.. لكن ما يثير جنون مشيرة هو ما فعلته ميرفت اليوم..

ما فعلته لا معنى له سوى ان علاقتها بمروان مازالت مستمرة وإلا ما كانت لتجرؤ على قول ما قالته أمام خالد زميلها في معمل المستشفى.. حتى إن لم تكن تلك العلاقة مستمرة.. كيف تجرؤ هذه الدنيئة على التطاول على فريدة وهي ابنة مصطفى الذي منحها فرصة يحلم بها آلاف ممن هم أكثر منها كفاءة واحتراماً وأفاقها صوت «أسامة» الابن الصغير لحارس العمارة وهو يصيح مشيراً لها بخلو مكان.. وأوقفت مشيرة سيارتها لتصعد وأسامة يلهث حولها وما أن دخلت إلى المصعد حتى ضغط لها أسامة بأصابعه الصغيرة مفتاح الدور الرابع فقالت في عصبية:

لأ.. التالت يا أسامة أنا طالعة عند الست محاسن.. هي الدكتورة ميرفت رجعت؟!
وقال أسامة:
ما أعرفش.. أنا لسه جي من المدرسة..

ä ä ä

أشرق وجه محاسن بابتسامة كبيرة عندما رأت مشيرة أمامها وبعد أن ضمَّتها جلسا معا على أحد مقاعد الصالة المتواضعة لتنظر إليها في قلق قائلة:

مالك يا مشيرة.. أيه اللي جابك من الشغل بدري.. فيه حاجة؟!
غضب مشيرة وثورتها كانا أكبر من إشفاقها على محاسن فقالت في غيظ حاولت قدر استطاعتها أن تكتمه:
أبدا والله أنا خلصت بدري وكان عندي موضوع عايزة اتكلم مع ميرفت فيه..
ورفعت محاسن حاجبها في دهشة قائلة:
هي ميرفت مش في الشغل.. فيه أيه؟! البنت دي عملت أيه تاني؟!

وقبل أن تسترسل إحداهما في الحديث دخلت ميرفت من باب البيت لتنظر إليهما في دهشة وهي تحاول الترحيب بمشيرة قائلة:

طنط مشيرة؟! لو أعرف إن حضرتك حتخرجي بدري زيي النهاردة كنت جيت معاك أرحم من المواصلات..

لكن مشيرة نهضت كأنها لم تسمع حرفاً مما قالت وهي تقول:

عايزة اتكلم معاكي لوحدنا..

ä ä ä

عندما رمت ميرفت بحقيبتها الصغيرة على فراشها استدارت لتجد مشيرة تغلق باب الغرفة عليها ثم تفتح حقيبتها وتخرج منها ورقة مدَّت بها يدها إلى ميرفت قائلة في صوت حاد:

اتفضلي.. امضي الورقة دي..

حين قرأت ميرفت الورقة رفعت عيناها البنية الجميلة ناظرة إلى مشيرة في استخفاف قائلة:

ليه حضرتك متخيلة إني ممكن أوافق وامضيها؟!

عندها مدت مشيرة كفها لتمسك بذراع ميرفت وتنظر إلى عينيها في قسوة قائلة:

لأنك ما تستاهليش تكوني هناك.. لأنك ما قطعتيش صلتك بالدكتور مروان.. لأنك رجعتيله بعد ما اتجوز الدكتورة فريدة.. لأنك اتطاولت عليها وهي ربة نعمتك وفي غيابها وقدام زميل ليك.. ليه كمان؟! لأنك غبية وحقيرة ومستشفى سالم مش ممكن يكون ابدا مكان للغباء والحقارة..

لكن ميرفت نظرت في عين مشيرة وقالت في ثبات:

أنا أولا ما رجعتش لمروان.

وزاد ضغط مشيرة على ذراع ميرفت ليعلو صوتها قليلا وهي تقاطعها قائلة:

رجعتيله... وعارفة بتقابليه فين.. في شقته اللي في المعادي الجديدة.. تحبي اقولك عنوانها؟!

ونفضت ميرفت ذراعها من كف مشيرة بعد أن بدأ الذعر يسكن أوصالها وقالت وهي ترتعد:

إيه اللي بتقوليه دا؟ وبعدين حتى لو رجعتلوا دا مش ممكن يديكي الحق إنك..

وارتفع صوت مشيرة أكثر قائلة:

يديني كل الحق.. دا حتى يديني الحق إني أكسر رقبتك علشان خاطر الست اللي ضحت بعمرها وربتك وعملتك دكتورة مش صيادة رجالة وياريتك عرفتي تصطادي.. يا مسكينة دا هو اللي بيلعب بيكي لأنك رخصتي نفسك قدامه..

صاحت عندها ميرفت كأن مشيرة سكبت ناراً على جرحها الكبير.. صاحت في جنون كأنها تود أن تحطم المعبد فوق رأس مشيرة وحدها:

ما تخافيش يا طنط.. إذا كنتي أنتي ما عرفتيش تخلّي الدكتور مصطفى يتجوزك وقبلتي تعيشي السنين دي كلها معاه كدا.. أنا حاعرف ازاي أخلّي مروان يتجوزني.

وشهقت مشيرة شهقة كبيرة كأن سكيناً اخترقت صدرها وأفاقت من الألم لتصيح بصوت هيستيري:

مصطفى سالم اللي بتتكلمي عنه..

لكن ميرفت عادت تقاطعها وهي سعيدة بنجاحها في سحق عروق مشيرة.. سعيدة بنجاحها في خلق قصة جديدة تخرج بها عن قصة مروان.. عادت تقاطعها بصوت أكثر علواً:

أيوة لو اتكلمتي معايا في الموضوع دا.. أنا حاحكي للدنيا كلها.. حاكلّم ماجي مراته.. حاكلّم أحمد ابنك وأحكيله عن كل اللي أعرفه..

كانت مشيرة تعلم أن ميرفت لا تعرف شيئاً لأنها لو كانت حقاً تعرف ما قالت حرفاً فانحنت لتلتقط الورقة التي القتها ميرفت

على الأرض وعادت تقف لتصرخ من جديد:

امضي يا ميرفت.. امضي الورقة...

وفتحت محاسن الباب في قسوة وهي تسمع صياحهما معاً لتنظر إليها ميرفت ثم تركض نحوها وهي تصرخ:

تعالي يا ماما.. شوفي جارتك.. فاكرة انها علشان جابتلي شغل يبقى ممكن...

لكن محاسن لم تنظر إلى مشيرة حتى نظرة واحدة بل مضت إلى ميرفت لتمسك بشعرها القصير بين كفها في قسوة وهي تحني رأسها إلى الأسفل وتلتقط بيدها الأخرى الورقة من يد مشيرة قائلة في هدوء:

امضي الورقة اللي بتقولك عليها طنط مشيرة وبعدين ممكن اسمعك..

وتألمت ميرفت وشعرها يتلوي بين أصابع محاسن واقتربت مشيرة من محاسن وهي تقول:

بلاش كدا.. الورقة دي.

لكن محاسن قاطعتها:

مش عايزة أعرف الورقة دي إيه.. لكن هي لازم تعرف اللي عمرنا ما قولناه.. امضي باقولك..

والتقطت ميرفت القلم من يد مشيرة وانحنت لتمضي الورقة، وقبل أن تستدير كانت يد محاسن من جديد تمسك بذراعها وهي تقول في هدوء وصوتها ينتفض بدموعها:

أبوكي رماكي وأنت عندك ست شهور.. بعت ورقة الطلاق واختفى.. يمكن تكوني تعرفي الكلام دا.. لكن اللي لازم تعرفيه النهارده ان الدكتور صالح الله يرحمه كان يوم واحد في كل شهر قبل ما يدخل بيته عند مراته وولاده كان يطلع هنا الأول يديني نصيبي في ماهيته.. نصيبي اللي كنت أدفع منه الإيجار وأصرف بيه عليكي جنب فلوس الخياطة اللي على قدي.. لما مات الدكتور صالح الست اللي أنتي واقفة تبجحي فيها دي كانت بتبكي على الولدين الصغيرين اللي في إيديها وكانت بتبكي عليكي معاهم.. ولما الراجل اللي انتي بتتكلمي عنه دا شغّلها الله يستره.. بقت كل يوم واحد في الشهر تطلع هنا تديني من ماهيتها اكتر من اللي كان بيدهوني الدكتور صالح الله يرحمه.. وأما دخلتي كلية الطب..

وقاطعتها مشيرة قائلة ودموعها تغسل عينيها كأنها تكمل القصة:

لما دخلتي طب يا ميرفت.. مصاريفك وكل فلوسك كان مصطفى هو اللي بيدفعها زي ما بيدفع مصاريف ولادي.. كلّمي ماجي وقوليلها أي حاجة بس تبقى عبيطة.. ماجي عارفة إني لا أنا ولا مية زيي ممكن مصطفى يفكر فيهم.. البني آدم لما يحسن على حد ويقف جنبه ما يستغلش دا أبداً.. أما أحمد ابني.. النهاردة أول ما يرجع من الجامعة حأقوله إنك عايزاه.. لو صدقك لو سمعك يبقى برضة ما يستاهلش شقي العمر وحرمان السنين.

واقتربت مشيرة من ميرفت لتضع كفها على رأسها في هدوء وقد انخفض صوتها قليلًا:

يا ميرفت.. مروان بيتسلي.. أنا كنت فاكرة إنك سبتيه.. لو أعرف إنك رجعتيله، كنت قلتلك حكايته مع مريم الحكيمة بتاعة العناية..

ورفعت ميرفت عينيها لتقول في جنون:

مريم هي اللي كانت بترمي نفسها عليه وعلشان كدا طردها من المستشفى.

وانخفض صوت مشيرة اكثر وهي تقول في ألم:

طب عرفت عنوان شقته منين.. دا هو اللي قالها عليه.. دا كان بيحط المفتاح في ايدها زي أكيد ما حطّه في ايدك..

يا عبيطة فيه حكيمة في الدنيا تتجرأ على دكتور وجوز بنت صاحب المستشفى الا لو كان هو اللي عايزها.. أهي الحكيمة الغلبانة دي رفضت وجت مكتبي وقدمت استقالتها.. علشان ما تعملش شوشرة لأنها عارفة مين مصطفى ومين فريدة.. أنتي.. أنتي يا دكتورة عايزة أيه.. الفلوس مش هي السعادة يا ميرفت.. السعادة هي المبادئ.. هي الاحترام، هي وقفتك مع نفسك وضد نفسك علشان خاطر مبادئك وقيمتك.. فوقي لنفسك.. ارحمي امك وارحمي نفسك.. الاستقالة اللي أنا خليتك تمضيها دي

هي الحاجة الوحيدة اللي تصوني بها اللي فضل من كرامتك صدقيني..

وسارت مشيرة في خطى ثقيلة نحو الباب ومحاسن تتبعها بكلمات اعتذار كثيرة وقبل أن تخرج استدارت لتقول لها:
ماتزعليش.. أنا مش حاسيب ميرفت.. حاشوفلها شغل في حتة تانية كويسة.. دول ولادنا.. مش حنفقد الأمل فيهم بعد كل اللي عملناه وضحينا بيه..

وأغلقت محاسن الباب خلفها لتستند إليه بظهرها وتجهش في البكاء.. لقد ضاع العمر هباء..

ä ä ä

في شارع القمر الصناعي وأمام إحدى تلك العمارات الصغيرة التي تخلو شققها من ساكنيها، وقف مروان بسيارته ليدخل إلى الدور الأرضي ويفتح باب شقته الصغيرة ليشعل الضوء ويلقي بجسده على أول مقعد في صالتها الكبيرة.. وابتسم ابتسامة كبيرة.. لم يكن يود الحضور لكن ميرفت أصرَّت في جنون.. أبشع ما في النساء عنادهن.. إصرارهن على أشياء تافهة لا معنى لها.. لكنهم دوماً يجعلون منها قضايا مصيرية..

وعاد يتجول بعينيه.. كل قطعة في هذا المكان صممها لتخدم هوايته الكبيرة.. عشقه وعشق عمره.. جهاز كبير للأسطوانات يضم مجموعة كبيرة من كل أنواع الموسيقى والأغاني.. من شكوكو وحتى أم كلثوم في قصائد ناجي وأبو فراس الحمداني.. ومن موسيقى حسب الله حتى موسيقى موزارت وياني..

هناك أيضاً هذه المكتبة الكبيرة التي تضم ما يقارب خمسمائة كتاب.. من ميكي وحتى دائرة المعارف..

وفي قلب الصالة طاقم من البامبو الأبيض المصنوع برقة ومهارة ويكسوه قماش مشجّر بألوان زاهية هادئة كأنها حقل يدعو مروان إليه النساء.. وفي أحد أركان الصالة بار صغير به كل أنواع المشروبات..

حقاً.. كل شيء في هذا المكان يخدم هوايته الكبرى..

المرأة.. المرأة هي هوايته الكبرى.. ليس جسدها.. ليس رأسها ولا قلبها ولكن تحويل النساء.. تغيير النساء هو هوايته الكبرى.. الصبر والهدوء والهدايا أدواته.. إنه ماهر.. ماهر في إقناع الغانية بأنها طفلة رقيقة بإمكانها أن تقرأ مجلات ميكي وأشعار الغزل العفيف.. أما الطاهرة الرقيقة فهو يعلم كيف يتسلل إلى ضلوعها ليطلق سراح الغانية النائمة هناك..

إنه يعلم ويؤمن أن كل امرأة يراها على كوكب الأرض تغفو بداخلها على البعيد امرأة مناقضة لها تماماً..

وحده الرجل الماهر يعلم كيف يجعلها تطفو على السطح.. وتنهد.. هناك نساء لا يطلقن سراح المرأة النائمة بسهولة.. فريدة.. مريم ومشيرة منهن.. ولكن لا يعني هذا أبداً أنه خاطئ.. إن لم تهرب منك المرأة أيقظت أنت الأخرى النائمة في عروقها وإن هربت فلا معنى لهروبها سوى أنها لا تريد إطلاق سراحها بين يديك أنت.. ولكن يوماً ما في مكان ما وفي توقيت آخر معك أو ربما مع رجل آخر ستفعل.. كل النساء تفعل ذلك..

تأخرت ميرفت في الحضور.. وابتسم مروان.. لكنها لم تتأخر أبداً في إطلاق سراح النائمة في ضلوعها.. بداخل ميرفت السمراء الرقيقة امرأة شرسة هوجاء بإمكانها أن تفعل أي شيء وكل شيء لترضي النائمة بداخلها.. هناك نساء يفعلن أي شيء وكل شيء لتتقن ملامح المرأة التي يراها الناس.. حقاً النساء عالم من المتعة والإثارة.. فقط هم بحاجة إلى الرجل الماهر وليس هناك أبداً من هو أكتر منه مهارة..

ووقف مروان ليتجه نحو الباب لتدخل ميرفت وهي بكامل زينتها التي لم تستطع معها أن تخفي ثورة يراها مروان بداخلها.. وعاد يبتسم.. جميل أن تعرف كيف تطفئ ثورات النساء.. وألقت بحقيبتها على المقعد لتجلس أمام مروان وتشعل سيجارة قائلة:

مبروك.. مبروك يا دكتور.. خلاص حتبقى أب وابنك حيبقى حفيد مصطفى سالم..

وأجابها مروان في هدوء:

الله يبارك فيك يا حبيبتي.. وأنتي حتفضلي أول واحدة قالت مبروك لأمه وأول واحدة بلغت أبوه الخبر..

وجن جنون ميرفت لتصيح في غيظ:

أنا مش فاهمة.. ساعة تقول اتجوزتها مجاملة لمصطفى وساعة تقول إنها باردة وتقرف وإنك أكيد حتسيبها في يوم من الأيام والنهارة تتنطط من الفرحة انها حامل ازاي؟

كان مروان يعلم كل ما تفكر فيه ميرفت. وكان مرهقاً منهكاً لا وقت لديه ليضيعه في المناورات فقال في صدق هادئ حاسم:

شوفي يا ميرفت.. فريدة مراتي وأي راجل بيكون سعيد لما مراته تبقى حامل.. أسيبها أفضل معاها دي حكاية مالهاش دعوة بيكي وما أحبش إن أنت تتكلمي فيها.. مرة قولتلك إنها باردة.. إنها تقرف.. طيب ما أنا ميت مرة قولتلك إنك مجنونة وقليلة الأدب وبعدين أهو ادينا مع بعض.. عايزة أيه؟!

وقالت ميرفت في لهفة كأنها قررت حقاً أن تصل إلى أمر ما:

نتجوز.. عايزاك تتجوزني.. حتى لو عرفي.. أنا موافقة..

ومد مروان ذراعه إليها ليشد جسدها الصغير ويجلسها على ركبتيه ويضع أصابعه بين طيات شعرها الأحمر القصير قائلًا:

يا مجنونة.. لو عايز اتجوزك كنت اتجوزتك من زمان.. يا عبيطة.. عايزة ايه أكتر من اللي أنتي فيه.. حب وفلوس وحرية.. ويوم ما تحبي تتجوزي حاكون أول واحد يهنيكي، لا عمري حا أعملك مشكلة ولا برضه حاقفل الباب دا في وشك، برضه حيبقى عندك بيت تاني وراجل تاني..

واغمضت ميرفت عينيها.. إنها لا تعلم لماذا تبقى معه وقالت وكأنها تخرج آخر أفعى في جعبتها علَّه يتألم:

عارف؟ لازم تغيّر الشقة دي.. مريم قالت لمشيرة على عنوانها وممكن تلاقي فريدة ولا باباها في أي وقت عاملين كبسة عليك.. يلاقوني.. يلاقوا واحدة تانية... لا تتهنى بالدكتورة ولا بابنها..

ودسَّ مروان شفتيه في عنقها ليتجول بهما عليه قائلًا:

يا عبيطة.. كلّمي مصطفى أنتي وقوليله على عنوان الشقة.. ممكن يجيي ويبص من الشباك اللي وراكي دا.. لكن عمره ما حيقولي ولا يقول لفريدة.. حتى لو فريدة هي اللي جت.. عمرها ما حتقول إنها شافت ولا عرفت.. أما طنطك مشيرة ما هي عارفة من زمان من ساعة مريم ما قالتلها.. ما جتش ليه؟!

مصطفى وفريدة ومشيرة دول عندهم حاجات لسه أنت ما اتعلمتيهاش.

ومن بين آهاتها الصغيرة سألت ميرفت:

حاجات أيه..

ووضع ذراعيه تحتها ليحملها ويخطو بها إلى الداخل قائلًا:

حاجات اسمها الحب والكرامة والكبرياء!!

ã ã ã

مرت الشهور الثلاثة الأولى من حمل فريدة.. وبدأت تصبح أكبر استقراراً ونشاطاً.. وأصبحت تنهي عملها من المستشفى لتنطلق إلى المنزل لتعد غرفة الصغير القادم.. وما أن علمت أنها فتاة حتى اختارت الألوان.. دهانات الغرفة من اللون الوردي الفاتح كأنه زهرات وردية سقطت في نهر من الحليب الأبيض.. ورسمت سقف الغرفة بأكمله.. سحاب رمادي وسماء زرقاء صافية يتسرب من جوانبها ضوء أبيض غير مباشر كأنها انعكاس لهلال القمر الكبير الذي رُسم في إحدى زوايا السقف وعليه وجه باسم كأن القمر يبتسم لمن ينظر إليه.. ونجوم كثيرة متناثرة حوله.. لقد رسم السقف أحد كبار فناني مصر في فن «ترمبلييه».

ستائر الغرفة من الأورجانزا الوردية الأغمق قليلًا من دهانات حوائطها وستائرها عليها نقوشات زهرات باربي المعروفة. فريدة تحب باربي كثيراً ربما لأنها تشبهها إلى حد كبير.. وأمام البلاكار الوردي الكبير الذي احتل حائطاً بأكمله يوجد سرير صغير من خشب الأرو باللون الشيروازيه الأبيض وكأنه مركب صغير يتأرجح وعلى أعمدته شرائط وردية كثيرة.

وعلى الحائط المقابل سرير 140 سم أيضاً لونه وردي ومفروش بطاقم كامل بألوان الباربي الوردية.. وبجوار حائط الحمام الخاص بالغرفة تسريحة وردية بها مرآة كبيرة والكرسي الخاص بها أيضاً تنجيده من القماش الوردي الذي يتوسطه وجه باربي وهي تحمل في يدها بالوناً كبيراً.. وعلى أرض الغرفة سجادة كبيرة من اللون الوردي الداكن وعلى حوافها ارتسمت قلوب صغيرة من اللون الرمادي وكأنها قطع صغيرة سقطت من سحاب سقف الغرفة.

كل الأقمشة والستائر أرسلتها ميري لفريدة من باريس.. حتى اكسسوارات حمام الغرفة أيضاً جاءت من هناك.

فريدة كانت سعيدة بجنينها وكانت سعيدة أكثر لأنها وجدت حملها عذراً مقبولًا تتذرع به وبأعراضه كلما حاول مروان الاقتراب من جسدها.

وفي المساء كانت فريدة تجلس لتستكمل أوراق رسالة الماجستير التي تصمم على الحصول عليه.

إنها ناجحة جميلة يتأبط ذراعها رجل ناجح ولكن دوماً تشعر بجفاف في مشاعرها.. دوماً تشعر بشوق إلى قبلة هادئة.. إلى ذراعين تضمها في حنان وهدوء.. مروان لا يعلم أبداً كيف يفعل هذا.. إنها تكره قبلاته المحمومة التي لا رائحة فيها سوى رائحة الغريزة.. إنها حتى لا تذكر أنه مشط شعرها بأصابعه مرة واحدة..

ولكن الحياة لا تعطي كل شيء.. يجب أن تسعد بما منحها القدر مادامت هذه هي إرادته!

ä ä ä

رفع مصطفى عينيه ونظر إلى فريدة في هدوء بعد أن نظرا معاً إلى صورة الجنين في الأشعة التلفزيونية..

لا فائدة.. مر أسبوع بعد انقضاء الشهر التاسع ومازال الجنين رأسه إلى أعلى.. يجب أن تلد فريدة بعملية قيصرية..

ومدت فريدة أصابعها لتضعها بين كف مصطفى وتنهض في هدوء ليجلسا معاً أمام مكتب د. سامح زكي طبيب التوليد الذي قال وهو يبتسم:

إنتي عارفة إن القيصرية أمان اكتر.. طبعاً مش حاقولك.. تحبي تولدي بكرة الساعة كام؟

وعاد مصطفى يقول:

أنا حاكلم د. أحمد شوقي للتخدير.. نقول مبدئياً الساعة عشرة كويس..

وهزت فريدة رأسها بالموافقة في هدوء.. وتأبطت ذراع مصطفى وعندما جلست إلى جواره في السيارة سألها:

هو مروان ماجاش معانا ليه؟!

وابتسمت فريدة ابتسامة صغيرة وهي تقول:

ياه.. ده أنا نسيت أقوله..

ولم يجب مصطفى سوى بتنهيدة صغيرة..

واستدارت فريدة تنظر من النافذة التي بجوارها.. إنها حزينة.. لا تريد أن يكون معها سوى مصطفى.. إنها لا تحب وجودها مع مروان وتكره أيضاً هذا الشعور ولكنها لا تعلم ماذا تفعل.. واستدارت فريدة تنظر إلى عمارة مصطفى التي كانت تقطنها هي وحازم ذات يوم.. وتنهدت لا شيء يفسر لها أبداً هذا الشيء الخفي الذي يخبرها أنها تمر بجوارها أياً كانت مشغولة بأفكارها أو غارقة في حديثها..

ä ä ä

جلس الجميع في المساء حول مائدة العشاء في السابعة حيث يجب أن تصوم فريدة بعدها حتى الغد من أجل التخدير.. كان مصطفى وماجي يأكلهما القلق ويحاولان انتزاع فريدة من وجومها ومخاوفها.. وقال مروان في سعادة:

بكرة زي دلوقتِ حبقى أب.. وحيبقى عندنا اتنين امريكان في البيت ده.. أنا وبنتي..

واستدارت فريدة تنظر إليه في دهشة وهي تقول:

بنتي حتبقى مصرية مش أمريكانية.

وعاد مروان يقول:

آه.. آه.. بس أنا حاديها الجنسية الأمريكية ولا أنت بتفكري في الفرنسية بتاعتك..

ورفع مصطفى عينيه في استنكار وقال في عصبية:

إيه يا مروان.. أمريكية إيه وفرنسية إيه.. هو إحنا مش لاقين جنسية للبنت عشان كل واحد يتبرع لها بجنسيته.. وبعدين المهم إن فريدة تقوم بالسلامة وهي اللي ترجع شايلة بنتها في حضنها.

وتمتمت ماجي في هدوء:

يارب.. يارب إن شاء الله.

وعاد مروان يكمل دون تفكير:

هو فيه إيه - دي ولادة.. حتولد وترجع علشان تولد تاني وتاني لو عايزة.. بس برضة أنا أول حاجة حاعملها بعد شهادة الميلاد أعملها پاسپور امريكاني.. هو حد لاقي.

ورمت فريدة الشوكة في هدوء ونظرت إلى مروان في برود وقالت:

أنا طالعة أحاول أنام.

ونهضت ماجي واقتربت من فريدة وهي تقول:

أنا طالعة معاكي يا حبيبتي..

ä ä ä

في العاشرة من الصباح التالي كانت فريدة في طريقها إلى غرفة العمليات.. وكان مصطفى يسير إلى جوارها ويمسك بيدها وهي مستلقية على ترولي العمليات وماجي تسير خلفه في هدوء.. كان مروان يسير على الجهة الأخرى ولكن عين فريدة ويدها وروحها كانت بين كفي مصطفى..

في العاشرة والنصف.. كانت ماجي تحمل ابنة فريدة مع ممرضة الأطفال لكي تقوم بمسح جسدها ووضعها داخل ملابسها.. وحملتها ماجي بين كفيها ومصطفى إلى جوارها ودموعها تسقط في هدوء.. إنها جميلة رغم إن ملامحها مازالت متورمة ولكن لا يمكن أن يراها أحد ولا يعلم أنها ابنة فريدة.. ونظر مروان إلى وجهها وهو يبتسم في سعادة وقال:

أنا كنت فاكر إنها حتبقى أحلى من كده بكتير..

ونظرت إليه ماجي في ذهول وهي تقول:

فيه حاجة في الدنيا أحلى من كده؟!

وانسحب مصطفى من خلفهما.. ليضع قدميه في حذاء التعقيم ويدخل إلى غرفة الإفاقة.. كانت فريدة مستلقية على أحد الأسرة ومازالت غائبة عن وعيها.. ووقف مصطفى ينظر إليها في حب وهو يهمس:

يا حبيبتي.. ربنا ما يحرمني منك أبداً..

وبدأت فريدة تفتح عينيها وهي مازالت تحت تأثير المخدر لتقول: پاپي.. پاپي.. آه.. آه.. عايزة.. عايزة مسكن..

وصرخ مصطفى في جنون ليحضر إليه طبيب التوليد وهو يقول:

إيه يا مصطفى فيه إيه.. اهدا.. طبيعي جداً إنها تتألم.. ومد يده ليحقن فريدة أعلى فخذها بمسكّن لألمها.

واقترب مصطفى ليحتضن كف فريدة التي قالت قبل أن تغيب عن وعيها:

هو حازم فين؟! حازم.. حازم!

ونكس مصطفى رأسه في حزن.. فريدة مازالت تحيا مع حازم!!!

ä ä ä

عندما أفاقت فريدة.. كانت ماجي ومروان إلى جوارها، وعندما أحضروا لها الصغيرة حملتها لها ماجي لأن فريدة مازالت

تتألم ولا تستطيع الحركة، ونظرت فريدة إليها.. إنها قطعة أخرى منها ولكن على منتصف ذقنها الصغير كانت هناك غمازة كتلك التي على ذقن حازم وأغمضت عينيها وهي تسأل لِمَ لم تكن هذه الصغيرة ابنة حازم وأفاقها مروان من حلمها وهو يقول:

شبه مين يا فريدة؟!

وانتفضت فريدة من سؤاله وكأنها خشيت أن يكون قد قرأ أفكارها وعادت تقول وهي تقاوم الألم لكي تعتدل قليلًا:

شبه ماجي..

وابتسمت ماجي وهي تجلس إلى جوار فريدة والصغيرة بين يديها وقالت في عفوية:

خلاص.. سموها على اسمي.

وقاطعها مروان في غباء:

طب حتى نسميها على اسم مامة فريدة.

ورفعت فريدة وجهها في غضب لترى في عيون ماجي دمعة ترقص، وكأن مروان صفعها دون أن يدري وقالت فريدة في حدة:

ماجي هي أمي يا مروان.. ماجي هي اللي ربتني وحضنتني وأهي هي اللي شايلة بنتي وحضناها وأنا وأنت قاعدين نتفرج.

وشعر مروان بغباء ما قاله ونظر إلى ماجي التي أشاحت بوجهها حتى لا يرى مروان دموعها التي سقطت على خدها..

وفي تلك اللحظة دخل مصطفى ليلتقط دموع ماجي بعينيه ويسأل في لهفة:

إيه.. فيه إيه؟!

وقبل أن ترد ماجي.. قالت فريدة في حزم:

أصل إحنا قررنا نسميها ماجي.. ماجي..

وقاطع مصطفى فريدة ليقول:

يا حبيبتي... ربنا يخلينا لبعض، وانحنى يحتضن ماجي ويقبّل رأسها وهو يقول:

ربنا يخليك يا ماجي وتربي ماجي الصغيرة زي ما ربيتِ أمها.

ä ä ä

إن بكت ميجو.. بكى الجميع وإن ابتسمت ابتسم الجميع.. وإن نامت.. نام الجميع على أمل أن يراها صباحاً من جديد..

شيء واحد لم يكن يفعله أحد سوى فريدة.. شيء واحد لا يعلمه أحد سوى فريدة وميجو.. في كل ليلة وبعد أن تنام ميجو على صدر فريدة.. تنظر إليها فريدة وتغمض عينيها وتسأل.. كيف كان سيبدو وليدها من حازم لو كتبت له الحياة.. كل ليلة تسأل وكل ليلة تشعر أنها تبتعد أكثر عن مروان لتلتصق بميجو وحدها.. ميجو وحدها هي نبض فريدة ودقات قلبها.

وفي كل ليلة تضع فريدة ميجو في زورقها الأبيض الصغير.. وتنام هي على السرير المجاور معها في نفس الغرفة.. ليالي طويلة تمر وميجو تكبر لتصبح قطعة أخرى من فريدة لا شيء فيها يختلف عنها سوى تلك الغمازة التي تتوسط ذقنها الصغير، والتي لا يمكن أن تمر ليلة دون أن تقبّلها فريدة وكأنها هدية السماء إليها لتحتضن قطعة من ملامح حازم بين يديها.

نظرت فريدة إلى ميجو وهي تلقي بشعرها الذهبي خلف ظهرها.. إن شعرها أغمق قليلًا من شعر فريدة ولكنه في جمال شعرها وإن كان أطول من شعر فريدة.. فهو يصل إلى منتصف ظهرها.

وابتسمت فريدة وهي تنظر إلى عيني ميجو الزرقاء الواسعة وشفاهها الصغيرة وأنفها الدقيق، وعادت تنظر إلى غمازة ذقنها لتبتسم ابتسامة أكبر.. وضمتها إلى صدرها وقالت في حنان:

كل سنة وأنتِ طيبة يا روحي.. ميجو بقى عندها كام سنة؟!

وقبّلتها ماجي وقالت في مرح:

تلاتة.. وبكرة عيد ميلادها.

وضحكت فريدة وعادت تقول وهي تخرج لها بيچاما وردية عليها صور فراشات بيضاء وزرقاء:

ومامي حتجبلها هدية كبيرة وپاپي كمان وپاپي مصطفى وماجي والدنيا كلها.

ورفعت فريدة ميجو على ذراعيها وخطت بها إلى سريرهما الذي أصبحا يتقاسماه كل ليلة معاً..

وقبل أن تمد فريدة أصابعها لتطفئ الأپاچورة الباربي التي بجوارها.. قفزت ميجو لتقول:

نازلة أقول لماجي وپاپي تصبحوا على خير..

واعتدلت فريدة وهي تراها تخرج من الغرفة بسرعة..

ونظرت إلى سقف الغرفة.. ترقب الغيوم المنقوشة عليه وابتسمت..

ميجو غسلت عن قلبها كل الغيوم.. ميجو علّمتها أن تضحك من جديد وتركض وترقص.. ميجو أعادت إلى كل القلوب الجريحة في هذا البيت الفرحة والابتسامة.

وشعرت بميجو تقفز بين ذراعيها من جديد وأطفأت فريدة النور والتقطت ميجو «بوتشي» دبها الصغير الذي أحضره لها مصطفى وهي صغيرة ليصبح رفيقها الذي لا تنام بدونه.. ووضعت رأسها على صدر فريدة وهي تقول:

كملّي بقى اللي حصل في الحدوتة إمبارح..

ووضعت فريدة قبلة على رأسها وهي تكمل قصة سندريلا والأمير..

وهدأت ميجو ونامت.. وتسللت فريدة من جوارها لتذهب إلى غرفة المكتب وتستكمل إعدادها لرسالة الدكتوراة.. يجب أن تنتهي منها كما انتهت من رسالة الماچستير.. يجب أن تفعل ذلك قبل أن تذهب ميجو إلى المدرسة في العام القادم.

وفي طريقها إلى غرفة المكتب.. رأت مروان يصعد السلالم بعد عودته من المستشفى، ونظر إليها وهي تخطو نحو المكتب بقميصها العاري وجذبها من ذراعها وهو يقول:

تعالي.. عايزك ضروري..

وسارت معه فريدة على مضض ودخلت إلى غرفتهما والتي أصبحت غرفته وحده وهي تقول:

ما تقدرش تستنى لبكرة.. أصل عندي حاجات مهمة في الرسالة بتاعتي..

ونظر إليها مروان وهو يخلع ملابسه ويقول:

لأ.. أنا عايز آخذ رأيك في حاجة.. عايزين نقنع الدكتور مصطفى يجيب طقم تمريض من بره.

وقاطعته فريدة في ملل وهي تقول:

مروان.. خللي الكلام في الشغل في المستشفى.. إحنا بنعمل اجتماع كل أسبوع وبعدين أنا ميت مرة قلتلك مش باحب تقولّي نقنع پاپي بحاجة.. لو هي حاجة كويسة أكيد حايقتنع من غير ما نعمل فريق ولو هي مش هايلة يبقى منحاولش.

واقترب مروان منها وهي تجلس على حافة السرير ليقول:

هو كلام في الشغل لأ.. وكلام في الحب لأ.. اتكلم معاك في إيه يا فريدة؟!

وابتسمت فريدة وهي تحاول أن تكون هادئة لتقول:

حاجات كتير قوي.. بكرة عيد ميلاد ميجو، تصوّر بقى عندها تلات سنين حتجبلها إيه هدية؟!

ووضع مروان كفه على كتف فريدة العاري وهو يقول:

بكرة حاشوف.. هو فيه حاجة نقصاها؟!

أي حاجة وخلاص.. تعالي تعالي إنتي وحشتيني..

وتركت فريدة نفسها له في يأس.. كم مضى عليها وعليه دون لقاء.. ولكن هل يدع لقاءهما يتم دون أن تنفر منه أكثر.

ورفعت فريدة جسدها على السرير واقترب منها مروان في لهفة وقبل أن يقبّلها فتحت ميجو الباب ووقفت تنظر إلى فريدة

وهـي تقول:

مامي.. مشيتي من جنبي ليه؟!

ونظر إليها مروان في جنون وهو يقول:

مش تخبطي يا ميجو الأول..

كانت ميجو تحمل بين يديها «بوتشي» وتنظر بعينيها الجميلة الواسعة إلى فريدة واقتربت وهـي تقول:

ممكن أنام هنا.. جنبك وجنبك يا پاپي..

وقبل أن تمد فريدة يدها لترفع ميجو إلى جوارها وهـي سعيدة لأنها ستكون معهما صرخ مروان وهو يقول:

لأ.. روحي أودتك.. ماحدش أبداً ينام جنب مامته وباباه.. روحي أودتك.

وسقطت دموع ميجو وهـي تنظر إلى فريدة كأنها تستغيث بها.

وقالت فريدة في هدوء:

أنا آسفة يا ميجو.. بس مادام پاپي مش موافق يبقى ما ينفعش.. روحي يا حبيبتي سريرك وأنا وعد حاجي جنبك كمان شوية..

وعاد مروان يصرخ:

لأ.. مفيش كمان شوية.. روحي أودتك..

وركضت ميجو إلى خارج الغرفة وهـي تبكي في صمت..

وأمسك مروان بذراع فريدة قبل أن تنهض عن سريرهما ليقول وهو يحاول أن يكون هادئاً:

سيبيها.. لازم تتعود.. دي مش صغيرة خلاص.. ونزعت فريدة ذراعها من بين كفيه في عنف وهـي تقول:

أسيبها ده إيه.. البنت بتقولك عايزة أنام جنبك يا پاپي تقوم تعمل ده كله ليه.. وامتى؟! ليلة عيد ميلادها.. وعايزني أسيبها وليه.. عشان أرضي سعادتك.. انت حقيقي ما عندكش دم..

وخرجت فريدة تبحث عن ميجو لتأخذها بين ذراعيها وتنام إلى جوارها وبين ضلوعها ثورة لا تهدأ على مروان!!

ä ä ä

نظرت ماجي إلى ميجو في زي التنس الأبيض.. الشورت القصير والتي شيرت البيضاء.. إن ميجو ممتلئة وكفيها الأبيضين الممتلئين أجمل ما فيها.. وأخذت تقرأ بعض الآيات القرآنية وهـي تضمها إلى صدرها ثم قالت:

أضفر لك شعرك يا ميجو؟!

وهزت ميجو رأسها وشعرها يرقص خلف ظهرها وهـي تقول:

لأ ماجي.. أنا حبّه كدا..

إن ماجي تخشى عليها من عيون كل الناس.. إنها جميلة مرحة دوماً تضحك وتبتسم ووجهها الأبيض المستدير دوماً مشرق.. ولكنها عنيدة لا فائدة من النقاش معها، وقالت وهـي تجذب مضرب التنس الصغير:

ناني أدت أحمد شنطة السباحة.. يللا نروح النادي نلعب تنس وبعدين ننزل الپيسين سوا.. وعارفة حا أغديك فين؟!

وصاحت ميجو:

تشيليز يا ماجي عشان خاطري..

وضمتها إلى صدرها وهـي تقول:

حاضر يا روحي أنتي..

وفي طريقهما إلى باب الفيلا وجدت ماجي فريدة تدخل وقالت لها في لهفة:

إيه يا فريدة.. انت مش قلت حترجعي من المستشفى الساعة خمسة أنت ومصطفى..

ونظرت إليها فريدة وهي شبه تائهة وقالت:
أصلي.. أصلي تعبانة..
وتعلقت ميجو في ساقي فريدة وهي تقول:
مامي.. تعالي معانا النادي..
وانحنت فريدة تضمها وتقبلها وقالت وهي مازالت شبه تائهة:
لأ يا ميجو.. روحوا انتو يا حبيبتي.. أنا عندي حاجات لازم أخلصها.
ونظرت ماجي إلى عيون فريدة في شك وقالت:
أنت كويسة؟!
وقبّلتها فريدة ومضت نحو الفيلا وهي تقول:
لا إله إلا الله..
ارتمت فريدة على فراشها في غرفة ميجو وأغمضت عينيها وسقطت على خدها دمعة.
مروان يخونها.. رأته اليوم يدخل إلى غرفة منال الحكيمة وعندما لحقت به لتسأله إن كان سيبقى معها حتى الخامسة سمعت من خلف الباب صوتهما في كلمات محمومة ساقطة، وعادت فريدة تفكر لماذا لم تفتح عليهما الباب.. لماذا لم تصفعه وتصفعها لماذا لم تفعل شيئاً.. لماذا حملت حقيبتها وجاءت إلى هنا.. لا تعلم ولكن كل ما تعلمه أنها لن تفعل شيئاً من أجل ميجو.. من أجل مصطفى.. لن تفعل شيئاً.. وعادت تهز رأسها في سكون وهي تفكر.. ليس من حقها أن تفعل شيئاً..
مروان رجل غريب عنها يسكن الغرفة المجاورة.. مروان والد ميجو.. وميجو تستحق أن يكون لها أب.. لا يجب أبداً أن تسقط كلمة پاپي من قاموس ميجو على الأقل ليس بأصابع فريدة أبداً.
وفي العاشرة اجتمع الجميع على مائدة العشاء.. ميجو ترتدي شورت أبيض قصيراً وتي شيرت حمراء بحمالات رفيعة تظهر ذراعيها الممتلئة الجميلة تحكي عن كل ما حدث في النادي ومصطفى يحادثها وماجي تضحك ومروان يلاحقهم بالتعليقات والنكات، وحدها فريدة لا تنظر أبداً في وجه مروان..
وقالت بعد فترة:
الوقت بيجري ولازم نستقر على مدرسة لميجو.. وقاطعها مروان في حزم:
ميجو حتروح الـ «C.A.C».. مش ممكن تروح مدرسة غيرها..
وعادت فريدة تقول:
أنا كان نفسي أوديها مدرسة فرنساوي.
وعاد مروان يقول في حدة:
يعني نودي البنت الأمريكانية مدرسة فرنساوي ونسيب المدرسة الأمريكية اللي جنبنا؟!
ورفعت ميجو عينيها وهي تقول:
هو أنا أمريكانية ولا مصرية يا ماجي؟
ونظرت إليها فريدة وقالت في حزم:
انتِ مسلمة يا ميجو ومصرية.. پاپي علشان عاش في أمريكا أخذ الپاسپور الأمريكاني وجبلك واحد زيه.. زي أنا مامتي ومامتها ميري فرنساويين ادوني پاسپور فرنساوي، لكن أنا وأنت مصريين يا ميجو وحنفضل كده طول عمرنا.
وشعر مصطفى بالحدة في صوت فريدة وقال وهو يحاول أن ينهي القصة:
فريدة.. أنا موافق مروان.. C.A.C أحسن مدرسة في مصر بالإضافة لأنها جنبنا عشر دقايق وبنتنا تبقى في حضننا.
وأرخت فريدة عينيها في طبقها ثم عادت ترفع عينيها لترمق مصطفى ينظر إلى مروان في ازدراء واضح، والتقت عينها

بعين مصطفى وشعر كل منهما أنه يعرف ما يدور في رأس الآخر.

وعادت فريدة تعبث بشوكتها في صحنها وهي تسأل نفسها إن كانت هي تحتقر مروان لما سمعته منه مع منال فلما تراه مصطفى يفعل؟!

ä ä ä

الجميع يرقب ميجو وهي في زي المدرسة.. من يصدق أنها أصبحت أربع سنوات.. وهاهي اليوم تذهب إلى المدرسة لتدخل أول مرة إلى KG1.

الكل يبتسم.. الكل يداعبها.. وفريدة تعدها بحفلة كبيرة وهدايا كثيرة مساء اليوم.. وتخبرها أن الذهاب إلى المدرسة شيء كبير يستحق كل ما تريده وتتمناه..

وقال مصطفى في اقتضاب:

مروان.. حتيجي معانا نوصل ميجو المدرسة...

ورفع مروان وجهه وقال وهو يشرب كوب الشاي:

لا.. لأ.. أنا عايز أروح المستشفى بدري.

وأمسكت فريدة بيد ميجو.. ومصطفى يحمل حقيبتها الصغيرة وماجي تمسك بيدها الأخرى وركب الجميع سيارة مصطفى.. وهبطوا معاً ليسيروا أحدهم جوار الآخر ومصطفى يحمل ميجو على ذراعيه وهم يحاولون أن يبتسموا، ولكن كلاً منهم يشعر بغصة في قلبه.

لا أحد أبداً يريد أن يترك ميجو وحدها في أي مكان كان حتى وإن كان هذا المكان مدرسة C.A.C.

وعندما أمسكت ميس ديان معلمة KG1 يد ميجو في مرح لتدخل بها الفصل.. شعرت فريدة بقلبها يقع في بئر سحيق.. هل تترك ميجو هنا في هذا المكان الكبير.. هنا وحدها بدون مصطفى أو ماجي أو حتى مروان.

وفي السيارة وبعد دقائق من الصمت قالت فريدة:

أنا حا أعدي آخذ ميجو الضهر.

وقاطعتها ماجي في لهفة:

لأ.. روحوا أنتوا المستشفى أنا اللي حا آجي آخدها.

وقال مصطفى في عصبية:

بصوا بقى يا جماعة.. إحنا لازم نكبر.. لو حد جه أخد ميجو حتبقى عايزة كدا كل يوم.. البنت لازم تتعود أن أحمد هو اللي حييجي ياخدها..

وهزت فريدة رأسها.. مصطفى على حق.

وعاد مصطفى يقول:

أحمد الساعة اتناشر ونص حيكون واقف على باب المدرسة.

وفي الحادية عشرة كانت فريدة تحادث أحمد للمرة العاشرة ورد قائلًا:

والله يا دكتورة ما تقلقي.. دا ماجي هانم والدكتور مصطفى كلموني يمكن سبع مرات لغاية دلوقتِ حاأقول لحضرتك حاجة.. أنا حاروح من دلوقت أقف على باب المدرسة..

وردت فريدة في خجل:

معلهش يا أحمد.. أصل ده أول يوم.. بعد كده حنتعود إن شاء الله.

وفي الثانية عشرة والنصف لم تحتمل فريدة.. أخذت سيارتها لتتوجه إلى المدرسة الأمريكية وهي تفكر في طريقها عما ستقوله لماجي ومصطفى لتبرر به حضورها لميجو..

وما أن اقتربت سيارة فريدة من بوابة المدرسة الأمريكية حتى رأت مرسيدس ماجي تقف خلف سيارة أحمد وما أن فتحت الباب لتهبط وتذهب لماجي وقفت إلى جوارهما سيارة مصطفى..

الثلاثة حضروا لميجو رغم الاتفاق..

ووقف الثلاثة يبتسمون وفي عين كل منهم دمعة حب!!

ä ä ä

نظرت مشيرة في قلق إلى الرجل الذي يجلس أمام مكتبها.. الاستاذ علاء محيي.. إنها لا تعرفه.. كل ما تعرفه عنه أنه يملك شركة مصر الكبرى للمستلزمات الطبية وهي الشركة التي يتعامل معها الدكتور مروان لتوريد الاجهزة التي يحتاجها قسم الحالات الحرجة.. لقد حادثها مساء الأمس ليطلب لقاءها في أمر وصفه بأنه شديد الأهمية والسِّرية.. ثم عادت تحاول أن تبتسم مرحبة به قائلة:

أيوة يا استاذ علاء.. أؤمرني.. إيه اللي ممكن أقدِّمه لحضرتك..

كان الرجل أنيقاً.. في بداية العقد الخامس من عمره إلا أنه كان متوترًا بعض الشيء، وهذا ما كان يزيد من قلق مشيرة وخوفها وأخرجها صوته الأجش من مخاوفها لتسمعه يقول:

حضرتك عارفة إن إحنا بنتعامل مع مستشفى سالم من حوالي سنتين ووردنا أجهزة صدمات قلب وتنفس صناعي ومونيتورز كتير.. لكن أنا من حوالي تلات شهور عرفت إن الدكتور مروان سعد الدين بيعمل مباحثات مع شركة جديدة منافسة وحيلغي العقد بتاعنا.. وتنهدت مشيرة في ارتياح.. علمت سر مجيئه فقالت:

أستاذ علاء.. الدكتور مروان وحده صاحب القرار في وقف أو تغيير التعامل مع أي شركة توريد أجهزة للقسم التابع ليه.. أنا آسفة مش ممكن اتدخل ولا حتى الدكتور مصطفى سالم حيرضي بكدا لأن دي سياسة المستشفى..

وابتسم علاء وهو يحاول أن يرطِّب شفتيه بلسانه قائلا:

أنا مش طالب وساطة.. أنا جيّ أوضّح موقفي.. أنا اللي عرفته إن الدكتور مروان بيتهم شركتنا إنها أقل كفاءة من الشركة الجديدة.. الحقيقة غير كدا تماما.. الحقيقة إن الدكتور مروان طلب عمولة أكبر من اللي متفق عليها وقاطعته مشيرة في ذعر:

عمولة؟! عمولة أيه؟!

وعاد الهدوء إلى صوت الأستاذ علاء الأجش ليقول وهو ينحني ليفتح حقيبة الأوراق الملقاة على المقعد المقابل له:

اتفضلي.. دي صور من أذونات صرف داخلية في الشركة ودي صور من أسعار التوريد الرسمية للمستشفى.. بالإضافة لصور الشيكات اللي كان بيستلمها الدكتور مروان في كل مرة بيشتري فيها أجهزة والحقيقة هما مش كتير.. دول تلات مرات اللي تم فيهم تحديث أجهزة العناية عندكم.. وأخذت مشيرة تقلب في الأوراق وأصابعها ترتجف في جنون.. باع مروان كل جهاز مونيتور لمستشفى سالم بمبلغ مائة وعشرين ألف جنيه بينما سعره من الشركة هو مائة ألف فقط.. وأجهزة المونيتورز وكل قطعة لها سعران، كانت تلهث خلف الأوراق وتحاول أن تحسب الفروق وشهقت أن مروان على مدى العامين أخذ ما يقارب الربع مليون جنيه.

وعاد صوته يكمل في هدوء:

رغم حرصي على التعامل معاكم لكن الحقيقة سمعة شركتي هي الشيء اللي مخوفني.. خصوصا إن اللي كشف القصة قدامي صديقة حميمة جدا للدكتور مروان وصديقة خاصة ليا أنا كمان..

ورفعت مشيرة عينيها في دهشة تنظر إليه ولكنه لم ينتظرها حتى تسأل بل أكمل قائلا:

حضرتك عارفاها.. الدكتورة ميرفت وجدي.. جارة حضرتك.. واتسعت عينا مشيرة في جنون.. ميرفت.. ميرفت من جديد.. وكأنما قرأ علاء دهشتها وتساؤلاتها فعاد يكمل:

الحقيقة.. المعمل اللي بتشتغل فيه الدكتورة ميرفت قدام شركتي، وبحكم الجيرة نشأت صلة صداقة قوية بيني وبينها

وعرفتني على الدكتور مروان، والحقيقة هي كمان ليها نسبة صغيرة في كل عملية.

وقاطعته مشيرة وهي تشعر أن رأسها تدور حول كوكب الأرض بأكمله:

ميرفت عرَّفتك بالدكتور مروان وميرفت هي اللي بلّغتك أنه بيشوه سمعة شركتك.. ازاي؟!

وتنهد الرجل ثم قال في صوت لا يخلو من السخرية:

أنا زي حضرتك كنت فاكر إنهم فريق واحد.. خصوصا إن الشركة المنافسة اللي بيتعاون معاها الدكتور مروان دلوقتي كمان عرفها عن طريق ميرفت.. لكن أنا لما رتبت اوراقي تأكدت أن ميرفت اتفاجئت باللي عملّه مروان.. يمكن هي حكتله عن الشركة التانية بحسن نية وهو أجري اتصالاته بيهم، أو يمكن غدر بيها في عمولتها.. لكن تصميم ميرفت على أني آجي لحضرتك.. خوفها على سمعة شركتي.. استعدادها لأنها حتى تقابل الدكتور مصطفى شخصياً.. كل دا ما لوش غير معنى واحد.. إن هي كمان اتخدعت.. العمولة يا مدام مشيرة أصبحت شيء ثابت ومتعارف عليه لكن كله إلا السمعة الطيبة ومستوى الكواليتي..

كان رأس مشيرة يترنح حزنا ورعباً واشمئزازاً من مروان وعلاء وميرفت.. إن ميرفت عشيقة للاثنين.. ميرفت تستغل الاثنين معا واليوم تنتقم من مروان وعلاء.. من الواضح أنه ما عاد يعنيها أمرهما في شيء.. ميرفت!! كيف أصبحت دنيئة إلى هذا الحد؟!

ربما كان صاحب الشركة الجديدة أكثر ثراءً وانقياداً لها.. أو ربما كان كل ما تريده ميرفت هو الانتقام من مروان سعد الدين، مسكينة تظن أنها تدمره.. ميرفت لم تدمر إلا نفسها.. وأغمضت مشيرة عينيها وهي تتذكر مصطفى وفريدة.. دمرتهم ميرفت معها.. أما مروان وعلاء وكل من باعوا أنفسهم ومبادئهم ماتوا مرة، ومن مات مرة لا يضيره أن يموت ألف مرة..

واستندت مشيرة إلى مكتبها لتقف في هدوء وهي تمد يدها لمصافحة علاء قائلة في وهن وحزن كبيرين:

أنا اتشرفت بمقابلتك وأوعدك إني حادرس الورق وأعمل اللازم.

لكن علاء قال وهو يصافحها:

مدام مشيرة.. أنا لازم أقابل الدكتور مصطفى.. صحيح أنا عارف وضع حضرتك لكن..

وقاطعته مشيرة وهي تخرج من خلف مكتبها لتريه الطريق وكأنها تود لو تقذفه إلى الخارج قائلة:

أكيد.. أكيد.. حتقابله.. بكرة الصبح حاكلم حضرتك وأحدد معاك ميعاد.. اتفضل..

كم مرة قرأت الأوراق.. كم مرة قارنت الأوراق التي أحضرها علاء بأوراق الحسابات المالية للمستشفى والتي أحضروا لها منها صوراً.. عشرات المرات.. لا مجال للشك.. الرجل على حق.. رغم دناءته إلا أنه على حق.. فعلتها ميرفت.. ترى كم كان نصيبها من كل هذه العمليات.. الحقيرة مازالت تفتعل مع محاسن ألف مشكلة.. إنها حتى لا تمنحها قرشاً أو تساعدها بأي مبلغ.. ربما كان هذا أفضل من أن تمنحها بعضاً من قروشها الحرام.. لم تخطئ محاسن في تربيتها فكيف تحولَّت ميرفت الطفلة السمراء الجميلة إلى هذا الوحش أسود القلب والرأس، ولكن ما يهم الآن هو فريدة ما يهم الآن هو مصطفى.. وتنهدت مشيرة.. يؤلمها كثيرا أن يتألم مصطفى. لا شيء يؤلم القلوب الرقيقة سوى ألم أبنائها.. مصطفى سيقتله الحزن ولكن ليس على ما سرقه مروان.. ليس حتى على مروان نفسه ولكن فريدة.. وعادت تتنهد.. فريدة.. هذه الفراشة الرقيقة.. كم تمنت مشيرة لو كانت فريدة ابنتها ومصطفى زوجها.. وعادت تهز رأسها في جنون فيما تفكر الآن.. القضية أكبر من خيالات صباها وأحلام حرمانها.. القضية أكبر حتى من عقلها ورأسها.. مصطفى يجب أن يعلم.. لا تستطيع مشيرة أبدا أن تتعامل مع هذه القصة وحدها..

وسقطت من عينها دمعة.. مصطفى سيتألم.. ليتها تعلم كيف تتحمل عنه ألم الدنيا.. ومرَّ مصطفى من أمامها بعد عودته من العمليات ليقف أمامها ناظراً إليها في ذهول.. كان وجهها يصرخ بكارثة ما وانحنى ليضع كفه على يدها الملقاة على تلك الأوراق المتناثرة على مكتبها وقال في حنان:

مالك يا مشيرة؟! فيه حاجة.. أنت تعبانة..

حين رفعت مشيرة عينيها لتراه.. رأى مصطفى دمعة تسقط منها وهي تقول:

أيوة فيه حاجة.. اتفضل على مكتبك.. أنا حالغي كل مواعيدك النهارده.. لازم نتكلم!!

ä ä ä

وقف مروان في هدوء أمام مكتب مشيرة ليخبرها بأن الدكتور مصطفى طلب رؤيته.. وأشارت إليه مشيرة ليجلس على المقعد أمام مكتبها لترفع سماعة الهاتف وتخبر مصطفى بدخوله.. لم تكن تحاول أبداً أن تخفي كرهها واحتقارها له اليوم.. وقبل أن يدخل مروان نظر إليها وقال في استخفاف:

نفسي أعرف أنتي ليه مش بتحبيني؟!

ونظرت إليه مشيرة وقالت في مرارة:

أنا نفسي أعرف إنت ليه ممكن أي حد يحبك؟!

رغم أن إجابتها أثارت غيظه إلا أن مروان قرر ألا يرد حتى لا يتأخر على الدكتور مصطفى وخطى إلى باب مكتبه وهو يفكر في مشيرة.. هذه اللعينة سيجعلها تدفع ثمن وقاحتها يوماً..

لم يكن وجه مصطفى أحسن حالًا من وجه مشيرة.. كان واضحا أن شيئا ما سيدوي في مكتب مصطفى بعد لحظات وقبل أن يجلس مروان على المقعد المقابل لمكتب مصطفى قال له في هدوء:

لأ.. اتفضل على أودة الاجتماعات..

عندما جلس مروان على المقعد الذي أشار إليه مصطفى وجد مجموعة من الأوراق أمامه حيث قال مصطفى في هدوء مشيرا إليها:

أرجوك يا دكتور مروان تقرا الورق دا بتأني وتقولي تفسيرك أيه..

كان مروان يتصفح الأوراق في هدوء، ورغم تلوّن وجهه إلا أن ابتسامة باردة ساخرة كانت تطفو على ملامحه، وبعد لحظات قليلة قال في هدوء كبير:

دا مجهودي وتعبي وبحثي عن أفضل سعر وأفضل أجهزة.. دي عمولة عادية.. في عالم البيزنس النهاردة فيه حاجة معترف بيها اسمها كوميشن.. يعني عمولة..

وقاطعه مصطفى بصوت أكثر هدوءاً قائلًا:

أنا أعرف إن العمولة دي لما يكون السعر اللي اشتريت بيه هو السعر اللي وردت بيه الأجهزة للمستشفى، العمولة دي بياخدها مندوب مبيعات فوق مرتبه من صاحب الشركة اللي مشغلاه.. لكن اللي على الورق دا.. دا سرقة.. حضرتك بتتفق على سعر وبتورد بسعر تاني.. دكتور مروان باختصار شديد أنا عايز أقولك قراري.. أنا ماقدرش أنكر أبداً مجهودك الكبير في تحديث وتطوير قسم العناية والحالات الحرجة.. ولهذا الاعتبار ولهذا الاعتبار فقط أنا حاكتفي بقبول استقالتك.. اللي حتقدمها دلوقتي حالًا..

أطرق مروان برأسه إلى الأرض يفكر.. هو أيضا يعلم أن العمل في هذا المكان سيصبح مستحيلًا، ولكن ماذا تراه مصطفى أن يفعل خارج هذا المكان.. ثم رفع رأسه بعد أن بدأ شيء من القلق يطفو على ملامح وجهه قائلًا:

أنا مع حضرتك.. أنا كمان ماقدرش اشتغل في مكان ثقته فيا اتزعزعت.. لكن اللي بينا مش شغل بس..

ورفع مصطفى وجهه في ثبات وهو يلتقط سماعة الهاتف قائلا:

مدام مشيرة.. اتفضلي هاتي استقالة الدكتور مروان علشان هو مصمم يمضيها دلوقتِ..

لم تحاول مشيرة حتى أن تنظر إلى مروان وهي تضع أمامه ورقة الاستقالة التي طلب منها مصطفى تجهيزها قبل استدعائه له.. كل ما كانت تفكر فيه هي تلك اللحظة التي طلبت هي فيها من ميرفت توقيع استقالتها منذ أعوام.. كيف تشبّعت

بسياسة مصطفى إلى هذا الحد..

إنها أبدا لا تريد أن تتركه يتألم كما كانت هي تتألم أمام ميرفت، ولكن كيف وهي تعلم أنه لا يتألم بل يتمزق ألماً على ابنته وعلى خديعته في هذا الرجل..

وأخذت مشيرة الاستقالة بعد أن وقّعها كل من مروان ومصطفى وأشار إليها مصطفى بالخروج بعد أن طلب منها إغلاق الباب خلفها.. ثم عاد ينظر إلى مروان في حزن كبير ويقول:

علاقة الشغل اللي بينا انتهت.. لكن تفضل علاقتي بمروان.. مروان ابن الدكتور الفاضل سعد الدين الله يرحمه.. تفضل علاقتي بمروان جوز بنتي.. الراجل اللي استأمنته على بيتي ومالي وعرضي.. شوف.. مراتك أنا حاسيبك أنت تشرحلها وتبرر لها استقالتك.. لو صدقتك أنا مش حتكلم.. لكن لو دورت بنفسها وسألت وعرفت أنا مش حاكذب.. وأفتكر أنت عارف إن التفتيش وراك مش صعب.. خصوصا وإن اللي غررت بيك واضح إن همَّها الأكبر إني أنا وبنتي نعرف..

وأطرق مصطفى برأسه لحظة ثم عاد يكمل كأنه يجيب على السؤال الذي ينوي مروان أن يسأله:

ميرفت.. الدكتورة ميرفت وجدي هي اللي ورا دا كله.. عارف؟! أنا وقفت ورا البنت دي لغاية ما بقت دكتورة وشغلتها هنا.. علشان في النهاية هي اللي تكتب المشهد الدرامي دا بينا.. والله ما أنا عارف.. يمكن أكون لازم أشكرها مش أغضب منها..

كان مروان يحاول أن يلاحق برأسه كلمات مصطفى ليجد شيئاً يقوله أو شيئاً يفعله.. لكن الرجل كان واضحاً أميناً وأيضاً كان يائساً.. ومروان يعلم ما يفعله اليأس بالرؤوس الأمينة..

ä ä ä

ركضت فريدة في خفة تبحث عن ماجي لتضعها في سريرها وهبطت السلالم وهي تعلم أنها ستجدها على ركبتي مصطفى أو بين ذراعي ماجي.. وتسللت قرب غرفة مصطفى وقبل أن تدفع الباب الذي كان نصف مفتوح سمعت صوت مصطفى يصرخ:

مروان بيسرقني يا ماجي.. سرق ربع مليون جنيه، وشهقت فريدة ورمت بظهرها على الحائط وقبل أن تسترد أنفاسها لتدخل إليه سمعت صياح ماجي الصغيرة وهي تمسك بساقيها وتقول:

مامي.. أنا اللي لقيتك.

وركض مصطفى إلى خارج الغرفة وحين التقت عيناهما عرف كل منهما أن فريدة سمعت ما قاله مصطفى..

وانحنت فريدة تحمل ماجي بين ذراعيها وخطت على درجات السلم وهي تقول بصوتها المرتعش:

يللا يا جميلة.. عندك مدرسة الصبح..

وامسكت ماجي بذراعي مصطفى وهي تقول:

مصطفى.. فريدة سمعت.. اطلع وراها..

وسقطت دموع مصطفى ليقول بصوته الحزين:

لا.. يا ماجي.. أنا زمان اشتريت سعادة بنتي لأني كنت عارف أنها بتحب حازم.. لكن مش حاشتري سعادة مروان وأنا عارف أنه ما بيحبهاش وأنها تعيسة.. تعيسة يا ماجي سيبيها تفكر وهي اللي تقول وتقرر..

ضمت فريدة ماجي في حنان وقوة إلى صدرها وقبل أن تنام قالت لها:

بكرة يا ماجي بعد المدرسة حا آخذك ونروح دريم پارك وعارفة إيه؟؟ حنروح نتعشي في تشيليز.. بكرة حنعمل حاجات كتير يا ماجي..

ونظرت ماجي وسألت:

پاپي معانا؟!

وضمتها فريدة في قوة وهي تقول:

لأ.. إحنا لازم نتعود يا ماجي نعمل حاجات كتير لوحدنا.. أنت عارفة قد إيه پاپي مشغول..

وابتسمت ماجي وهي تضع ذراعيها الصغيرتين حول عنق فريدة.

وعادت تسأل:

هو ليه مش بيحب يخرج معانا كتير؟

ووضعت فريدة أصبعها على شفتي ماجي قائلة:

بيحب.. لكن مش بيقدر.. ده مافيش حاجة پاپي بيحبها قدك..

وأغمضت الصغيرة عينيها.. ونهضت فريدة في هدوء لتذهب إلى غرفة مروان.. لم تعد هذه الغرفة غرفتها أو لم تعد تشعر هي أنها غرفتها.. ورمت بجسدها على السرير في إرهاق شديد.. وأخذت تفكر فيما يجب أن تفعله.. ما الذي ينقص مروان ليسرق.. ما الذي ينقصه.. كانت دوماً تمنحه الأعذار عندما يصل إلى مسامعها قصص علاقاته مع بعض ممرضات المستشفى، لقد كانت تلتمس له العذر دوماً لأنها تعلم دائماً أنها تهرب منه ونادراً ما تسلّم له جسدها ولكن لِمَ يسرق؟!

وغابت فريدة في أفكارها حتى غفت عينيها دون أن تشعر وأفاقت وكف مروان تتسلل إلى صدرها ودفعت يده في عنف وهي تفتح عينيها صارخة:

إيه ده.. أنت اتجننت؟!

وأجاب ضاحكاً:

لأ يا حبيبتي.. إنتي اللي باين عليك عقلتي.. مادام جيتي لوحدك تنامي هنا.. يبقى وحشتك..

وعادت يده تحتوي صدرها وهو يدمدم:

استني بس.. حاكافئك مكافأة كبيرة.

ودفعته فريدة في جنون وصاحت في اشمئزاز:

إيه يا أخي؟ أنت مش حتبطل كلامك المقرف ده..

واعتدل مروان ونظر إليها وقال في سماجة:

ده مش قرف.. ده حب.. كل المتجوزين بيقولوا ويعملوا كده.

وقالت فريدة في يأس:

أنت ما تعرفش حاجة لا عن الحب ولا الجواز..

وشعر مروان برائحة عاصفة كبيرة تهب من كل قطعة في جسد فريدة وقال في سخرية:

معلهش.. أصلها أول مرة أتجوز فيها.

وشعرت فريدة أنه سكب عليها ماء نار اشعلت في كل ذرة بها ناراً من الكراهية والاحتقار وسألت في تهكم:

بس يا ترى أول مرة تسرق فيها؟!

وفتح مروان عينيه الضيقة وأدرك أنها علمت كل شيء وقال:

هو مصطفى قالك؟

وقاطعته فريدة:

الدكتور مصطفى..

وعاد مروان يصرخ أكثر:

مش إنتي اللي طول عمرك تقولي احنا دكاترة جوه المستشفى لكن براها إحنا ناس عاديين.

وقاطعته وهي تقول:

أنت لا صنته جوه المستشفى ولا حتى في بيته..

وضحك مروان في هيستيريا واضحة وقال:

إيه.. ماجي لقت فضية ناقصة ولا فازتين «جالي» اتسرقوا؟!

ونظرت إليه فريدة في ازدراء وهي تقول:

لأ.. سرقت كرامته وكرامة بنته.. أوعي تفتكر إن جريك ورا المرضات ما بيوصلنيش ولا المسخرة اللي بتعملها مع الجرابيع دول أنا مش عارفاها..

وارتفع صوته أكثر وهو يقول في سخرية:

جرابيع؟!.. جرابيع؟!!.. الجرابيع دول ستات.. ستات يا فريدة وبعدين أنا ما عملتش حاجة.. أنا عملت زيك بالضبط عاشرت جرابيع ويوم ما حبيت أخلف خلفت من دكتورة..

ولم تفهم فريدة ما يعنيه مروان ولكنها ظلت تحدق في وجهه باحتقار واضح وعاد يكمل وكأنه يتعمد سحق عروقها بالألم:

حازم طلقك ليه يا فريدة؟! طلقك لما عرف أنك أجهضت نفسك.. وأجهضت نفسك ليه يا دكتورة.. علشان عايزة تخلفي من واحد دكتور ابن دكتور.. مش ابن موظف كحيان أمه كانت...

وصرخت فريدة في ألم:

أسكت..

ووقف مروان يفتح حقائبه ويقذف بملابسه داخلها وهو يصيح:

أنتي مش ست.. أنتي حتى مش أم.. انتي شخصية مزيفة في بيت مزيف.. انت تمثال شمع.. أنا خلاص زهقت من العيشة معاكم..

وفي تلك اللحظة فتح مصطفى باب الغرفة دون حتى أن يطرقها ونظر إلى مروان في عنف وقال في هدوء:

برافو عليك.. لم حاجتك كلها واخرج من هنا.

ومال على فريدة ليأخذها بين ذراعيه ويخطو بها خارج الغرفة وسار ليدخل بها غرفة المكتب ولكنهما سمعا صوت مروان يصرخ:

أنا ليا ورق وحاجات هنا..

والتفت إليه مصطفى وهو يحتضن فريدة ليقول:

خد كل اللي أنت عايزه ولو عايز أكتر حاديك يا مروان.. قدامك نص ساعة لو ما سبتش البيت المزيف ده حاقتلك..

واحتضن مصطفى فريدة ونزل بها إلى غرفته وجلس إلى جوارها في سريره وأخذ رأسها في صدره وسقطت دموعه على شعرها وماجي ترقبهما في صمت..

كانت فريدة تبكي بكاء حاداً يمزق قلبه وتتمتم:

ليه.. ليه يحصلّي كل ده.. ليه يا پاپي؟!

ومصطفى لا يتحدث وإنما يضمها أكثر إلى صدره.. حتى سمعوا جميعاً صوت صفقة عنيفة لباب الفيلا وأدركوا أن مروان قد خرج..

عندها حاولت فريدة أن تجذب جسدها من ذراعي مصطفى وهي تقول:

أنا حاطلع أنام جنب ميجو..

أجابت ماجي وهي تتجه إلى باب الغرفة:

لأ.. نامي أنت هنا جنب مصطفى.. أنا حانام جنب ميجو وأغلقت باب الغرفة في هدوء وعاد مصطفى يضم فريدة بين ذراعيه وهو يقول:

ياه يا حبيبتي.. بقالك قد إيه ما نمتيش في حضني؟!

ä ä ä

احتضنت فريدة ميجو بعد أن ارتدت ملابس المدرسة وقالت لها:

النهاردة بالليل حانروح نقضي الويك إند في مارينا ان شاء الله.

ورفعت ميجو عينيها الجميلة وسألت:

پاپي معانا؟

نظرت إليها فريدة لحظات في صمت ثم قالت:

لأ مش حيبقى معانا..

النهاردة بالليل حا أفهمك كل حاجة يا ميجو - أوكي؟

ورمت الصغيرة بنفسها على صدر فريدة وهي تقول:

مامي.. بلاش أروح المدرسة النهاردة علشان خاطري..

وانقبض قلب فريدة لحظات وعادت تقول:

لأ.. المدرسة مافيهاش عايزة ومش عايزة يللا ياجميلة.. أحمد تحت مستنيكي..

وهبطت الاثنتان السلالم وفريدة تحمل ماجي على صدرها وتتمنى لو حقاً لا تدعها تذهب.. وبعد أن فتحت الباب وقبل أن تدخلها إلى السيارة عادت فريدة تضم ميجو وتقول لها:

بحبك قوي يا ميجو.. أكتر من روحي بحبك..

ولوّحت ماجي لفريدة وهي تضع حزام الأمان حول جسدها الصغير وانطلق أحمد بالسيارة خارج الفيلا..

وعندما عادت وجدت مصطفى في طريقه إلى الخارج وقالت له:

پاپي.. آجي معاك المستشفى؟!

وأجاب في حنان:

لأ يا حبيبتي.. أخرجي يا فريدة أعملي أي حاجة.. روحي النادي.. روحي لهدى صاحبتك.. أنتِ بقالك عشرة أيام مز ساعة الليلة إياها.. أخرجي.. أخرجي يا حبيبتي.. أنا والمحامي والمأذون حنقابله النهاردة الساعة سبعة.. أوعدك كل حاجة حتنتهي الليلادي.

وابتسمت فريدة وضمته في حنان.. وصعدت إلى غرفتها ووقفت أمام دولابها تفكر ماذا ترتدي.. وأخيراً أرتدت چوب سك بيضاء فيها زهور صغيرة سوداء كثيرة مفتوحة من أحد جانبيها حتى ركبتها وأرتدت تي شيرت سوداء بلا أكمام.. ونظرت في المرآة وهي تمشط شعرها دون اهتمام.. إنها جميلة رغم الحزن.. رغم هذه الهالات السوداء التي بدأت تحفر نفسها تحت عينيها.. إلا أنها مازالت جميلة.

وابتسمت وهي تهمس لنفسها، يجب أن تبتسم.. اليوم تتخلص من مروان وهي تعلم أنها احتملت كثيراً من أجل ميجو، لقد كان باستطاعتها أن تحتمل أكثر ليبقى لابنتها أب يحيا معها ولكن الآن تعلم أنها بريئة من ذنبه.. لم يدع لها أي اختيار.

ووضعت زخات من عطر «چادور» وحين دخلت سيارتها انطلقت في هدوء وهي لا تعلم إلى أين تذهب..

كان كورنيش النيل مزدحماً وحين وصلت إلى قرب عمارة مصطفى التي كانت تسكنها هي وحازم.. نظرت إلى بابها وتنهدت في ألم.. لم تمر يوماً من جوارها دون أن تنظر وتتنهد حتى ومروان معها.. وابتسمت في مرارة.. لابد أنه كان يعلم أنها كانت تسكن هنا.. لقد اتضح أن مروان يعلم أشياء كثيرة حتى قصة إجهاضها.

وفجأة مدّت فريدة أصابعها إلى مفاتيح سيارتها المعلقة بها ووجدت مفتاح الشقة الذي لم تخلعه يوماً منها وأوقفت سيارتها بلا تفكير وخرجت من بابها ووقفت ترفع عينيها بحثاً عن شرفتها.. ثم عادت إلى السيارة من جديد لتمد يدها تأخذ المفاتيح وحقيبتها وهي تسأل هل غيّر مصطفى المفتاح أم تراه مازال كما هو..

لقد سألها مرة واحدة عما تريد فعله في الشقة منذ أعوام طويلة وطلبت منه يومها أن يتركها كما كانت..

هل تراها حقاً كما كانت؟ وقبل أن تخطو إلى الداخل سمعت صوت «سيد» يصرخ:

ياه.. دكتورة فريدة.. إزيك يا دكتورة.. هاتي المفاتيح ندخل العربية الجراچ.

ونظرت إليه فريدة وقالت:

أنا مش حتأخر يا سيد مش حتأخر.

وفي المصعد كان قلبها يدق في جنون.. وعندما وصلت إلى الباب وضعت المفتاح وهي تدعو الله أن يكون كما هو وفتحت الباب.. ودخلت..

كل شيء كما كان.. ولكن من تراه جاء إلى هنا ليغطي كل الأثاث بهذا القماش الذي تعلوه أكوام من التراب..

وأغلقت خلفها الباب وخلعت نظارتها السوداء.. وعادت تنظر من جديد ودموعها تزحف على وجهها في هدوء.

كم اشتاقت لهذا المكان.. كم تمنت لو تدخله..

وعادت تخطو في هدوء إلى غرفة نومها وفتحت الباب ونظرت إلى سريرها ورفعت القماش وعندما هبّ في وجهها التراب أغمضت عينيها ثم فتحتها.. مازالت نفس الملاءة منذ تلك الليلة وتحسستها في حزن وما أن رمت بكل القماش المستخدم لتغطية السرير حتى وجدت بيچامتها التي كانت ترتديها في آخر ليلة كانت لها هنا.. وحملتها بين أصابعها ومضت ترفع شيش الحصيرة من خلف الزجاج ليتسلل إلى عينيها الضوء..

عادت تجلس على سريرها وهي تضم البيچاما بين أصابعها ووضعتها على أنفها.. لقد ضمّها حازم وهي ترتديها.. وذبحها أيضاً وهي ترتديها..

لِمَ لم تنتظر.. لِمَ لم تغفر له.. كيف انتهى كل شيء في تلك الليلة بكل هذه السرعة؟

ترى هل نسيها حقاً.. وهزت فريدة رأسها كأنها تريد أن تفيق.. عن ماذا تسأل وعن ماذا تبحث بعد ستة أعوام..

وقبل أن تغرق في دموعها وذكرياتها من جديد سمعت طرقاً على الباب وتنبهت فريدة أن الكهرباء مفصولة عن الشقة وألقت البيچاما على السرير ومشت في خطى ثقيلة لتمرّ بالمطبخ ثم ترفع سكين الكهرباء.. وأكملت طريقها إلى الباب... لابد أنه سيد.. جاء يأخذ المفاتيح ليُدخل سيارتها إلى الجراچ.. وفتحت الباب ولم تجد أحداً وقبل أن تستدير لتدخل رأته على البعد يقف بظهره أمام باب المصعد..

وارتفع صوت قلبها من جديد وقالت بصوت مذبوح:

حازم؟!

واستدار من بعيد ينظر إليها وهي لا تصدق.. إنه هو.. وأين؟؟ هنا.. هل تحلم؟ هل تتخيل؟

لكنه اقترب في هدوء نحوها وهي مازالت تقف على الباب وعادت تقول:

حازم؟!

ووقف أمامها بعينيه العسليتين العميقتين.. بشعره الغزير القصير.. بجسده الرائع الفارع الطول.. وقف ينظر ثم قال في صوت خفيض:

أنا آسف.. أنا شفت عربيتك.. سيد قاللي إنك لوحدك.. أنا حقيقي آسف.. آسف يا فريدة إني طلعت كده..

ومدت أصابعها المثلّجة تجذبه في هدوء إلى داخل البيت وأغلقت خلفه الباب وهي لا تفهم ولا تصدق ولا تعي شيئاً مما يحدث.

وسارت في ذهول لتفتح شيش الحصيرة في نافذة الريسبشن وجاء خلفها ليفتحه هو وشعرت بجسده قريباً منها.. لو مالت خطوة واحدة إلى الخلف لوقعت بين ذراعيه.. فجأة شعرت فريدة بكل قطعة في جسدها تتنفس وتنبض وتصحو من جديد وحين دخل الضوء إلى عينيها أغلقتهما في خجل.. من يدري ربما كان زوجاً أو أباً لعدد من الأطفال.

وشعرت به يبتعد.. واستدارت نحوه في هدوء لتقول دون تفكير:

أنا عندي بنت عمرها أربع سنين ونص.. وحا أطلّق النهاردة الساعة سبعة بالليل.

وابتلعت زحف الدموع الذي هاجمها واستدارت لتنظر إلى النيل من جديد وقالت بصوتها المذبوح:

لولا بنتي.. لولا پاپي.. كان زماني قتلت نفسي.. حتى وأنا عارفة إني حاروح النار.. نار ربنا أكيد أرحم كتير من النار اللي عشتها من ساعة ما خرجت من هنا..

واستدارت لتجده خلفها ينظر إليها ودموع تغطي عينيه.. ولم تستطع أن تقاوم.. ألقت بنفسها على صدره وضمّها في قوة حتى شعرت أنه يسحقها بين أصابعه وقال في صوت مختنق:

لو أنا أعرف يا فريدة إن فيه نار في الدنيا أو الآخرة ممكن أرمي نفسي فيها وتخليكي تسامحيني.. صدقيني ورحمة أبويا كنت رميت نفسي فيها.

ولم يعلم أحد منهما كيف دخلا غرفتهما.. أو أيهما الذي أغلق شيش النافذة لم تعلم فريدة من فعل هذا.. لم تعلم من منهما أخذ الآخر.. كل ما شعرت به أن شيئاً صغيراً بداخلها كان يذكر ماجي الصغيرة شيئاً صغيراً كان يذكّرها بأنها مازالت زوجة لمروان ولكنها سقطت أمام أشياء أخرى كثيرة كان صوتها أعلى.. أشياء كان ضعفها أقوى كثيراً من صوت عقلها..

لم تشعر أبداً أن ما يحدث هو خطيئة.. كانت تشعر بحب.. بمشاعر ظنت أنها ماتت.

كانت تشعر بأنثى تصحو لتغسل عنها تراب الموت الذي كانت تحياه طوال الأعوام الستة.. وقبل أن يهدأ جسدها بين ذراعيه انتفضت روحها وبكت وهي تردد:

وحشتني يا حازم وحشتني قوي..

وهدأت على صدره العاري ووضع ذراعه حولها في حنان وأخذت تحكي له عن كل شيء ودموعها تسقط في هدوء على صدره وهو يصغي ولا يتحدث.. وعندما انتهت من كل قصتها رفعت وجهها ونظرت في عينيه وقالت:

أنا لسه بحبك.. لأ.. أنا دلوقت عرفت إني..

وسكتت وهي تنظر إلى شفتيه وقالت في يأس:

حازم.. بوسني تاني.

وعاد يقّبلها من جديد ويأخذها بلهفة أكبر.. وكأنه يتمنى لو تذوب فريدة بين ذراعيه.. وكلما شعر بشوقها وحرمانها أطلق شفتيه وأصابعه تكتب على جسدها قصائد حبه المنسية..

وأخرج بعدها حازم من ملابسه سيجارة وأشعلها في هدوء ثم اعتدل بظهره قليلًا ليأخذ فريدة على صدره من جديد وقال في حنان وثقة وكأنه يعيد على نفسه ما يردده كل يوم:

أنا اشتغلت في الصعيد تلات سنين، ومن يوم ما رجعت وأنا باعدي قدام العمارة كل يوم تقريباً.. مرة شفتك داخلة المستشفى.. فريدة أنا كل يوم كنت بادور عليك وسكت قليلًا ثم قال:

فريدة.. أنا دلوقت في مباحث أمن الدولة، بقى عندي عربية وسواق ودخلي بقى كويس قوي.. أنا كمان ممكن أعمل مشروع كويس بعلاقاتي.. لو تقبلي يا فريدة بنتك تبقى الابن اللي راح مننا ونجبلها أخ أو أخت..

لو ممكن تسامحيني ونرجع لبعض حتلاقيني اتغيرت..

وأكمل وهو يحاول أن يبتسم:

عارفة؟ أنا دلوقت ممكن آخذك ونتعشي بره مرتين في الأسبوع.. وكمان ممكن أشيل مصروف البيت كله.. ولما يبقى عندنا عيل كمان ممكن أدفع مصاريف مدرسته ولو مقدرتش مش حتضايق لو أنت دفعتِ.. إحنا كبرنا يا فريدة.. أنا كبرت.. أنت طول عمرك كبيرة.. فراقك علّمني وكبّرني..

ثم سكت لحظة ليقول:

فريدة.. ترجعيلي؟!

ولم تحرك فريدة رأسها من على صدره.. كانت أصابعها مازالت تتجول على صدره في حنان وكأنها تتحسس كنزاً كان مفقوداً.. كانت تسمع كلماته وتتخيل ماجي وهي بين ذراعي حازم، ولكنها أيضاً كانت تفكر في مروان هل يتركهما وهل يترك لها ماجي وشعرت بحازم يرفع رأسها وينظر في عينيها وكأنه يرجوها أن توافق.. ونظرت فريدة في عينيه وقالت في صوت خفيض:

ياريت.. ياريت يا حازم.. أنا تعبت.. تعبت.

وشعر حازم بخوفها.. بقلقها.. وعلم أنها تفكر في ابنتها وزوجها وعاد يأخذها بين ذراعيه وهو يقسم لها أن كل شيء سيتغير وأنه أبداً لن يتركها حتى يعود ليحيا معها هنا ومعهم ميجو الصغيرة.

وابتسمت فريدة في أمل وعادت تقبّله من جديد وعاد يأخذها كما أخذها أول مرة وهدأت.. هدأت كأنها حقاً ارتوت وغفت في نوم عميق بين ذراعيه..

وضع حازم رأسها على الوسادة في رفق وجلس يرقبها وهي نائمة في هدوء..

كم اشتاق لها.. كم ظن أنه أبداً لن يراها أو تلمسها أصابعه.. ولكن ها هي نائمة إلى جواره.. وعاد يفكر في كل ما يمكن أن يفعله من أجلها ومن أجل ابنتها وابتسم وهو ينظر إلى وجه فريدة.. ترى هل تشبهها ابنتها.. هل تحبه؟! حتى وإن رفضته سيفعل المستحيل ليجعلها تحبه.. وحدها ستكون الممحاة التي تغسل ذنبه وخطأه.

ã ã ã

كانت الساعة قد قاربت الرابعة عصراً وتلفون فريدة الصغير مازال يدق.. وقرر حازم أن يوقظها.. وتوجه إليها ومال بجسده عليها وقبلها قبلة صغيرة على جبهتها وهو يهمس:

فريدة.. حبيبتي.. تلفونك ما بطلش رن.

وفتحت فريدة عينيها ومدت ذراعيها وضمّته إليها وهي تقول:

بحبك قوي..

وعاد يخبرها عن أمر تلفونها.. ومدّت فريدة أصابعها لتفتح حقيبتها التي وضعها حازم إلى جوارها وقالت في دهشة:

دا پاپي متكلم عشرين مرة.

وقال لها حازم في قلق:

طب أطلبيه يا حبيبتي علشان تطمني..

وقامت في عجل وهي تقول:

ياه.. دي الساعة أربعة.. لأ.. أنا حاروّح يا حازم هو زمانه قلقان عليّ.

ارتدت فريدة ملابسها وقبل أن تخرج ارتمت بين ذراعيه ومنحته شفتيها في قبلة طويلة شعرت أنها أحلى قبلة ذاقتها بين يديه وقالت:

حاكلّمك أما أروّح.. اقفل أنت وروّح براحتك..

وما أن جلست فريدة بداخل سيارتها.. حتى بدأت تفكر في كل ما حدث وشعور ما بالخجل يعتريها.. مازالت زوجة..

هل أخطأت؟! هل ارتكبت خطيئة؟ هل يعاقبها الله؟

اليوم تتحرر من مروان.. سيغفر لها الله.. وعلا صوت هاتفها من جديد ليأتيها صوت مصطفى قائلًا:

فريدة.. انتِ فين؟

وشعرت بشيء ما في صوته.. شيء لم تفهمه لكنها قالت وهي تحاول أن تكون هادئة:

أنا في الطريق راجعة البيت.. فيه حاجة يا پاپي؟!

وصمت مصطفى لحظات وتنهد وهو يقول:

سوقي على مهلك.

وصلت فريدة بوابة الفيلا لتجدها مفتوحة ومضت لتجد أحمد يقف إلى جوارها وهو يبكي.. وفتحت فريدة النافذة المجاورة لها وسألته:

مالك يا أحمد؟ فيه إيه؟

ونظر إليها أحمد من خلف دموعه وهو يدرك أنها لا تعلم ما حدث ثم أجهش في البكاء.. وضغطت فريدة بقدمها على دواسة البنزين ووقفت في جنون أمام باب الفيلا ودخلت بسرعة لتجد ماجي تجلس في إحدى الزوايا ودموع كثيفة تزحف على خديها.

واقترب مصطفى من فريدة يأخذها بين ذراعيه وهو يقول:

تعالي.. يا فريدة..

وصرخت فريدة:

فيه إيه؟ فيه إيه يا پاپي؟

وعادت تنظر حولها وهي لا تفهم ثم عادت تصرخ:

ميجو فين؟ ميجو - يا ميجو..

ولم يرد أحد.. وركضت فريدة على السلالم ودخلت غرفة ماجي ولم تجدها وحين استدارت لتخرج وتبحث عنها كان مصطفى يقف خلف دموعه وهو يقول:

ميجو بخير يا حبيبتي.. ما تخافيش.. مروان أخدها.

ورمت فريدة بنفسها على حافة سرير ميجو وهي تتمتم:

يا خبر.. يا خبر.. الحمد لله.. أنا افتكرت..

ثم عادت تنظر إلى مصطفى وهي تسأل:

هو فيه إيه؟!

وجلس مصطفى إلى جوارها وماجي تقف خلفه مستندة إلى الباب وهي مازالت تبكي في صمت وانطلق مصطفى يحكي ما حدث:

أحمد راح ياخد ماجي زي كل يوم من المدرسة الساعة واحدة قالوا له ان باباها أخدها الساعة 11 الصبح لّما كلمني وقاللي.. كلمت أنا مروان لقيت الموبايل مقفول.. رحت الشقة اللي سكن فيها عرفت انه سابها وأخد هدومه وسافر..

كلمت اللي أعرفهم في الداخلية.. واتصلنا بالمطار..

وتنهد في ألم وعاد يقول:

فريدة... مروان أخد ماجي وسافروا على طيارة نيويورك الساعة واحدة الضهر..

كانت فريدة تحملق في الفراغ.. الحادية عشرة.. أخذها مروان في تلك اللحظات التي كانت فيها بين ذراعي حازم وصرخت:

آه.. أنا السبب.. أنا السبب.

وعاد مصطفى يقول وهو يأخذها بين ذراعيه ولا يفهم سر ما تقوله:

لا يا فريدة.. إحنا كان لازم نبلّغ المدرسة إن في خلاف بينكم.. لكن مين كان يتصور إنه يعمل كده؟

وعادت فريدة تقول:

يا حبيبتي يا ميجو.. قالتلي الصبح بلاش أروح النهاردة وأكملت في جنون وهي تنظر حولها:

يعني إيه؟ مافيش ميجو؟ مافيش ميجو؟

وضمها مصطفى وقال وهو يبكي:

أنا وأنت مالناش تأشيرة لأمريكا.. حنركب طيارة بكرة ومش حانرجع غير بيها.. حنلاقيه يا فريدة حنلاقيهم..

لم تكن فريدة تسمع أو ترى شيئاً سوى ما حدث بينها وبين حازم.. هل عاقبها الله على ما فعلت وعادت تقول من بين بكائها العنيف:

لأ يا رب.. لأ يارب.. إلا ميجو.. حرام.. حرام.

ما كان من الممكن أن تهدأ فريدة إلا بعد أن أعطاها مصطفى في الحادية عشرة قرصين «زانكس» وتركها في سرير ميجو وهبط السلالم ليدخل على ماجي التي كانت مستلقية على السرير وهي غارقة في حزنها.. ورمى مصطفى جسده إلى جوارها وضمّته ماجي بين ذراعيها ليبكي بكاء مريراً وهو يقول:

فريدة بتتعذب يا ماجي.. طب ليه؟؟ أنا عمري ما عملت حاجة وحشة في حد.. عمري.. عمري.. ما ظلمت ولا بخلت على حد.

وهدّأته ماجي وهي تقول:

حتلاقوها.. حتلاقوها يا مصطفى.. صدقني ربنا مش حينسانا..

وعاد مصطفى يكرر لها:

بكرة حبيبجي إبراهيم ياخذ الپاسپور بتاعك.. خدي التأشيرة.. لو اتأخرنا تعالي يا ماجي.. أنا مش حأقدر لوحدي استحمل اشوفها كده.. أنا مش عارف إحنا حنبتدي منين.. أنا حتى ما أعرفش هو عايش فين هناك..

أنا تايه.. تايه يا ماجي.. ده ممكن ياخدها ويروح كاليفورنيا ولّا ألاسكا.. ده مجنون.. مجنون يا ماجي..

ä ä ä

ضمّت ماجي فريدة في التاسعة صباحاً ومنحتها «چاكيت» وهي تقول:

إحنا أول أكتوبر يا فريدة.. صحيح الجو هنا لسه حر موت بس في نيويورك حيبقى ساقع.

ونظرت إليها فريدة وكأنها لا تفهم ما تقوله ماجي.. مازالت فريدة لا تستوعب ما حدث ومازال رأسها يترنح من تأثير قرصي الزانكس اللذين أعطاهما لها مصطفى.. وحين جلست إلى جواره في السيارة.. دق هاتفها الصغير ونظرت إلى الرقم الذي لا تعرفه وقالت في لهفة كأنها تنتظر لو تسمع صوت ميجو:

آلو.. مين؟!

وقال لها حازم في هدوء:

صباح الخير يا فريدة.. أنا استنيتك تكلميني طول الليل.. أنا قلقان عليك.. أنت كويسة؟

واتسعت عيناها أكثر وهي لا تعلم.. ماذا تفعل إنها حتى لا تعلم بماذا يجب أن تشعر - هل يجب أن تتمنى لو كان معها أو يجب أن تتمنى لو لم تلقه بالأمس أبداً..

وعاد صوته يسأل:

إيه يا فريدة مالك.. أنت نايمة؟

وقالت فريدة في يأس:

مروان خطف ميجو.. خطفها وطلع بيها على نيويورك أنا رايحة المطار يا حازم.. أنا حاموت لو مالقيتهاش حاموت يا حازم..

والتقط مصطفى بأذنه كلمة حازم ورفع حاجبه في دهشة.. منذ متى وفريدة تحادث حازم.. ولكن عندما نظر إلى دموعها وشرودها لم يستطع أبداً أن ينطق بحرف واحد..

والتفتت إليه فريدة لتسأل:

هو فيه حد هناك حيساعدنا؟!

ورد مصطفى في وجوم:

أنا كلمت الدكتور على سفيرنا هناك.. ووعدني إنه حيبقى معانا خطوة بخطوة.

لم تشعر فريدة متى ركبت الطائرة.. أو ماذا حدث على مدى الاثنتي عشرة ساعة طيران.. أو من ذاك الذي التقاهما في المطار.. لا تذكر شيئاً سوى تلك اللحظة التي لفحت وجهها فيها النسمات الباردة عند خروجها من بوابة مطار چون كيندي.. ودخولها إلى السيارة اللينكولن الزرقاء، وحين جلست جوار مصطفى فيها سمعت ذاك الرجل الذي يجلس إلى جوار السائق يقول:

سيادتك العربية دي حتفضل معاكم بالسواق بتاعها.. شقة حضرتك في «روزفلت إيلاند» قدامنا ساعة على مانوصلها تقريباً.

وعادت فريدة تسأل:

روزفلت إيلاند دي فين؟!

إحنا عمرنا ما قعدنا في نيويورك أكتر من ليلتين.

وأجاب مصطفى في هدوء:

أنا مش فاكرها قوي..

وعاد أيمن والذي كلفه السفير من واشنطن بمتابعة أمر فريدة ومصطفى يشرح:

دي جزيرة قدام مانهاتن.. اللي بيفصلكم عنها الميه.. وسيادة السفير وصّاني أنه عايز مكان الإقامة يكون أمان ومافيش في نيويورك حتة أأمن منها.. بالإضافة لأنها مكان جميل.

وعاد يحكي وعادت فريدة تشرد بأفكارها وتنظر من خلف زجاج السيارة وكأنها تبحث عن ابنتها من يدري.. ربما تجدها تركض أو تلعب هنا أو هناك.. وأفاقت فريدة عندما عبروا الجسر الحديدي ليدخلوا «روزفلت إيلاند».

عندها وقفت السيارة أمام إحدى عمارات الجزيرة ليتقدم رجل أمن العمارة يساعدهم في نزول الحقائب ويرحب بهم في ابتسامة كبيرة.

وفي الدور السابع وبعد أن مشى الثلاثة في ردهة طويلة أشار أيمن إلى باب الشقة ومنح مصطفى المفاتيح وأعطاه رقم تلفون السائق وهو يقول:

لما حضرتك تعوزه كلّمه.. أصل ممنوع الركنة لأكثر من ربع ساعة تحت العمارات.

وفتح مصطفى الباب ليجد على يمينه مطبخاً مفتوحاً على ريسيبشن كبير تحتله نوافذ زجاجية كبيرة تطل على النهر وعلى مانهاتن بأكملها من خلف النهر.. وتنعكس على مياه النهر أضواء كوبري كوينز الذي يظهر بوضوح.. وفي الداخل غرفتا نوم وحمام واحد في مواجهتهما.. الأثاث أنيق.. والمكان هادئ رائع ولكن الحزن الذي كان بين ضلوعهما كان فوق كل جمال وهدوء.

ä ä ä

جلست فريدة على أحد المقاعد الكثيرة المتناثرة أمام النهر أسفل العمارة التي تقطنها هي ومصطفى.. لقد عادت لتوها من الخارج لتخبره أنها ستجلس أمام النهر قليلًا.. انها الحادية عشرة ليلًا والجو بارد.. كانت ترتدي بنطلوناً من الچينز الأسو وعليه «پولونيك» من الصوف الأخضر في لون الزيتون اليوناني وفوقه پلوفر أسود وأخذت تنظر إلى مياه النهر وهي تفكر..

مضى شهران منذ حضورهما.. لقد علما الكثير عن مروان الذي كان يسكن في حي «مانهاتن» لقد تحدثا مع كل من كانوا يعرفونه.. لا أحد يحبه ولا أحد رآه منذ أن ترك أمريكا منذ أكثر من تسعة أعوام.

لا أثر له.. لا أثر له أبداً بعد دخوله إلى مطار نيويورك.. مروان وميجو لم يستخدما مطاراً آخر للخروج من نيويورك ولكن هناك ألف طريقة يتحرك بها داخل أو خارج أمريكا..

إن الأمل يخبو يوماً بعد يوم في العثور عليهما.. ومصطفى بدأ يغزوه اليأس.. وسقطت دموع فريدة وهي تحدق في النهر..

هل ضاعت ميجو؟!

ألن تراها أبداً.. إنها لا تصدق إنها عاشت بدونها شهرين ولكن من قال إن فريدة لم تمت.

لقد مات فيها كل شيء.. لم تعد حتى تبتسم.. وعادت تتذكر حازم.. إنه يطلبها كل يوم ولكنها لا ترد عليه أبداً.. إنها تائهة مذبوحة.. في بعض الأحيان تشعر أنها تكرهه.. ليس فقط من أجل لقائهما الأخير والذي ضاعت بعده ميجو ولكن لأنه تركها تتزوج مروان..

إنه المسؤول عن كل الأعوام التي قضتها فريدة مع ذاك المريض الذي حين اكتشفوا مرضه ودناءته قطف روحها وهرب بها.

وعادت تتنهد وهي تشعر أنها أحياناً تتمنى لو كان حازم معها.. لو كان بإمكانها أن ترتمي بين ذراعيه وتبكي.. تبكي على كتفيه.. كما تبكي على صدر مصطفى أو على وسادتها كل ليلة.. إنها لا تعلم هل تحبه أم تكرهه؟!

وشعرت بكف تلمس كتفها واستدارت لتجد مصطفى يقف أمامها وهو يرتدي بالطو أسود حيث انحنى ليقبّل رأسها وجلس إلى جوارها ليقول:

الساعة بقت واحدة يافريدة والدنيا برد.. قلقت عليكِ..

ومالت فريدة على صدره ولف ذراعيه حول كتفيها وعاد يقول:

فريدة.. ما فضلش قدامنا أي سكة غير سكة التلفزيون أنا رتبت كل حاجة.. حتطلعي وتتكلمي.. الأمريكان لو اتعاطفوا معانا حيدلونا.. أي حد حيشوفهم حيتكلم ويقول..

وتنهدت فريدة في يأس.. هل حقاً هناك طريق على الأرض بإمكانه أن يقودها إلى ميجو بعد كل هذا؟!

ä ä ä

وقفت فريدة أمام كاميرا التلفزيون بعد أن أخبروها أن لديها خمس دقائق فقط على الهواء.. وعندما سألها أحد المخرجين الموجودين في الاستديو إن كانت قد أعدت ما تقول هزت رأسها بالنفي وعاد يقول لها إنها يجب أن تعد ما تقول.. ظهورها على الهواء إن لم يكن محسوباً قد يقتل فرصة تعاطف المشاهدين معها.. ولكن فريدة لم ترد..

كانت ترتدي تايير «شانيل» أسود ومن تحت الجاكيت يظهر قميص أبيض.. لم يكن على وجهها أي نوع من المساحيق وكان شعرها فوق رأسها في شينيوه بسيط.. كعادتها جميلة وأيضاً كعادتها منذ أعوام حزينة.

وحين أشاروا لها بالبدء.. نظرت فريدة إلى الكاميرا وكل ما يسكن رأسها هو شيء واحد.. هذه العدسة الصغيرة هي آخر أمل لها لرؤية ميجو وقالت في هدوء:

أخبروني أنه من الأفضل أن أُعد كلماتي.. قالوا لي إنه من الضروري أن أشير إلى أنني طبيبة فرنسية.. ولكن أنا لن أفعل هذا.. كل ما سأقوله إنني لست فرنسية ولا مصرية.. أنا حتى لم أعد امرأة.. أنا أم.. أم تبحث عن ابنتها.. أنا لا أبحث عنها إلا لكي أراها.. أضمها بين ذراعي..

والتقطت فريدة أنفاسها وقالت بصوت متقطع:

لن أقول إن غرفتها في مصر خاوية منها.. لن أقول إن أصدقائها في المدرسة الأمريكية هناك يفتقدونها.. لكن سأقول إنه ما من شيء على الأرض يجيز أن تحرم فتاة في الرابعة من عمرها من ذراعي.. من أنفاسي.. لا شيء على الأرض يساوي الألم الذي أشعر به..

إلى كل أم تعرف معني الأمومة.. إلى كل امرأة حرمتها الحياة من أن تكون أماً.. ساعدوني لأري ماجي.. لأضمها إلى صدري ولو لحظات إلى أن أسمعها تناديني «مامي» ولو مرة واحدة فقط..

كانت فريدة تتحدث بهدوء وعلى عينيها الزرقاء طبقة من الدموع ترقص في حيرة وألم شعر بها كل من في الاستديو.. وكانت صور كثيرة لماجي تظهر.. صور لها وهي تلهو.. وهي تركض وترتمي بين ذراعي فريدة.. وكان كل من في الاستديو حبس أنفاسه وهو يتابع كلمات فريدة كأنه يرى دخاناً يخرج من بين حروفها وكأن حريقاً هائلًا يدور في عروقها.

ووقف الجميع ينظر إليها بعد أن ابتعدت عنها الكاميرا وفي عيون كثير منهم دمعة صغيرة.

وعادت فريدة تسمع لأول مرة أن مصطفى أعلن عن ربع مليون دولار مكافأة لمن يخبرهم بمكان ماجي.

ä ä ä

دخل مصطفى غرفة فريدة وهو يخلع معطفه وقفازيه.. إن الجو شديد البرودة والجليد يهطل بقسوة من سماء فبراير.. ووقف مذهولًا وهو يراها تعد حقائبهما وقال في صوت مبحوح:

بتعملي إيه يا فريدة؟!

ولم تستدر نحوه لكنها مضت تغلق إحدى الحقائب في هدوء ثم قالت:

أنا حجزت.. حنرجع مصر بكرة..

قال:

إيه؟!

وعادت تقول:

تعبت.. بقالنا خمس شهور.. تعبت... تلات شهور من ساعة المكافأة اللي أنت أعلنت عنها.. مكالمات وبلاغات وجري ورا وهم.. مافيش فايدة.. مافيش فايدة يا بابي..

واقترب منها مصطفى وضمها إلى صدره وللمرة الأولى لم تبك فريدة.. ولكنها ربتت بكفيها على ظهره وعادت تقول:

حقيقي ما بقتش قادرة..

وضمّها بكل قوته.. إنها على حق ولكن لم يكن أبداً يجرؤ أن يطلب منها العودة.

ä ä ä

استدارت فريدة بكرسي مكتبها في المستشفى لتواجه النيل ثم عادت بظهرها إلى الخلف وأغمضت عينيها.. كان يوماً شاقاً..

إنها تعمل في صمت وتتمنى لو تبقى في المستشفى ولا تعود أبداً إلى المنزل.. مصطفى يحوّل إليها حالات القلب الخاصة بالأطفال ويستلم منها التقرير المبدئي وأيضاً وحدها هي التي تحدد من تجري له العملية بالمجان.. لا شيء يهدئ خاطرها إلا أن تجد طفلًا كان على وشك أن يموت يعود إلى الحياة بعد العمليات التي يجريها لهم مصطفى..

وعادت تتنهد وهي تتذكر أن هناك عمليات لا تنجح.. منذ أيام جاءتها أم بطفل في السابعة.. لم يحتمل العملية ومات بعدها..

مازالت فريدة تذكر كيف ضمته الأم وهي تبكي في جنون.. لقد ضمّتها فريدة في حنان وقالت لها.. إن عذابها أرحم كثيراً من عذاب أمهات لا يعرفن أين أبنائهن.

الموت أرحم من الحياة بذراعين خاويتين وأمل لا يتحقق.

وعادت تفتح عينيها واستدارت لترى من دخل مكتبها.. ووقفت آمال أمامها تنظر إليها في إشفاق..

وقالت فريدة في هدوء:

فيه حد بره يا آمال؟!

وقالت آمال:

لا يا فندم.. مافيش كشوفات.. بس في واحد عايز يقابل حضرتك اسمه حازم علي..

وبعد لحظات صمت طويلة نكّست فريدة رأسها وقالت:

خليه يتفضل..

ودخل حازم ووقف ينظر إليها وهي واقفة خلف مكتبها.. يا إلهي كم تغيرت.. إن عينيها تبرقان وكأنهما قطعتان من الزجاج

الأزرق بلا روح.. وخيوط الشمس على كتفيها تتدلى في صمت كبير.. وتقدم حازم نحو المكتب ولم تتحرك فريدة ولم تحرك حتى يدها لتصافحه وجلس حازم على أحد المقاعد الموجودة أمام مكتبها في سكون.. وجلست وهي لا ترفع عينيها إلى وجهه.. وعندما طال الصمت رفع حازم رأسه وقال في صوته العميق:

ليه يا فريدة؟! ليه مش عايزة تشوفيني ولا تكلميني؟ بقالك تلات شهور في مصر ولا مرة رديت على تلفون فيه إيه؟!

ونظرت إليه فريدة من خلف قطع الزجاج الزرقاء وقالت في صوت خفيض والحيرة تكسو وجهها:

أنا آسفة..

ثم عادت ترخي عينيها وتعبث بأصابعها بالأقلام الموضوعة على المكتب ونظر حازم حيث أصابعها تتحرك في حركات عشوائية بلا هدف، والتقطت عيناه صورة لشقراء صغيرة تبتسم وهي تضم شفتيها الصغيرتين وكأنها ترسل قُبلة لمن يصورها.. ومدّ أصابعه وأمسك بالصورة ورفعت فريدة عينيها في جنون والتقت عيناهما ليضع حازم الصورة على المكتب في هدوء وقام عن كرسيه ليقترب منها..

كانت تشعر به ولم تحاول القيام عن كرسيها وشعرت به يقف إلى جوارها ووضع كفه فوق رأسها في حنان بالغ وعاد يقول:

الحزن لو ما أتقسّمش ممكن يقتلنا.. أنا جي أشيل معاكي نصيبي.. ما تبخليش على نفسك أو على إني أقاسمك الحزن.. أرجوكِ..

وعادت فريدة بكرسيها إلى الخلف ونهضت لتقف أمامه... هي تعلم أنه صادق وأنه يتألم ولكن لو تألم سكان الأرض جميعهم معها ما خفف ألمهم من ألمها شيئاً.

وعاد يقول:

فريدة.. فريدة.. أنا جنبك..

وأرخت عينيها وضمها إلى صدره في حذر وهدوء..

ووضعت فريدة رأسها على صدره وتركته يمشط شعرها بأصابعه.. لم تصح المرأة بداخلها.. لم تنبض روحها ولم يدق قلبها.. كان بداخلها أم كسيرة مذبوحة لم يترك منها القدر شيئاً.

وأفاقت بعد دقائق من وقوفها على صدره على صوت هاتف مكتبها وأجابت وهي تقول:

أيوة يا پاپي.. خلّصت ونازلة حالاً..

وفهم حازم الرسالة وخطى في هدوء نحو باب مكتبها وقبل أن يغادر قال لها وفي عينيه ظلال دمعة:

أنا دايماً عايزك.. دايماً بحبك.. لو في أي لحظة حسيت إننا ممكن نكون مع بعض أوعي تترددي لحظة.. الحزن لازم يتقسّم.

ä ä ä

جلست زينب ترشف فنجان قهوتها في هدوء وهي تنظر إلى حازم.. لقد غاب عنها أسبوعاً في مأمورية.. آه لو يعلم كيف يقتلها الخوف عليه في كل مرة يغيب فيها.. ونظر إليها وقال:

اتكلّمي.. عايزة تقولي إيه؟

وابتسمت ابتسامتها الجميلة وأشرق وجهها بهذا الضوء المريح الذي يحبه كل من يعرفها وقالت:

بقى عندك اتنين وتلاتين سنة في حضني ومش عارف لسه عايزة أقول إيه..

وتنهد قائلًا:

عجزّت أنا قوي.. عجزت حتى على الجواز.. صدقيني..

وعادت تنظر إليه وقد نفذ صبرها وقالت:

انت بتقابل فريدة يا حازم؟!

وشهق حازم وهو ينظر إليها في ألم وقال في مرارة:

ليه يا أمي بتسألي عنها بعد كل السنين دي..

وقالت في مرارة أكبر:

لأنك كبرت.. لأن الحكاية خلصت.. لأنك لازم تتجوز بقى زي ما هي اتجوزت.. لأن ما ينفعش ترجعوا لبعض حتى لو فريدة اطلقت يا حازم صدقني.. الست لما يبقى قلبها نضيف جرح الكرامة بيقتلها.. وأنت جرحت كرامتها.. يابني أنا قلتلك الكلام ده زمان.. فيه إيه بقى؟!

ورفع حازم عينيه وقال في عصبية:

أنا اللي فيه إيه؟! انتِ يا أمي فيه إيه؟!

ثم عاد يكمل في عصبية أكبر:

كل ده علشان عايزاني اتجوز.. مش حاتجوز يا أمي مش حاتجوز.. فيه إيه؟!

ومدت زينب يدها وأخرجت من تحت مقعد الكرسي المجاور لها ظرفاً أبيض ومدت يدها نحوه قائلة:

فيه ده.. السواق بتاع فريدة جابلك ده من يومين كان عايز يسلموهلك في ايديك.. سيب البنت بقى في حالها وعيش حياتك..

ومد حازم يده وأخذ الظرف في لهفة ودخل إلى غرفته ليشعل سيجارة وعندما أمسك بالظرف وجده شبه مفتوح.. ترى هل فتحته زينب.. وأخذ يقرأ في ذهول..

حازم..

تاهت الحقائق واختلطت ملامحها في عيني..

لم أعد أعلم هل أحبك أم أكرهك..

لم أعد أعلم من هي المرأة التي تركض في يومي.. من هي المرأة التي تسأل وتجيب وتعمل وتصف الدواء..

هل أنا هي.. أم أنا تلك الجثة الباردة التي أشعر بها بين ضلوعي..

استحلفك بذاك الجنين الذين فقدناه.. بذاك الأمل الذي قتلناه.. لا تسعي إلى لقائي أبداً..

استحلفك بذاك الحب القديم الذي أضاعنا كما أضعناه دعني أبحث عن ابنتي وابحث أنت عن امرأة سواي..

حازم:

أنا قتلت طفلاً وأضعت الآخر في تلك الساعات التي قضيتها بين ذراعيك..

دعني أدفع وحدي ثمن ضعفي وأخطائي..

مازلت زوجة لمروان وسأبقى حتى تعود ابنتي..

من الظلم أن أطلب منك الانتظار.. ومن العار أن أرمي بنفسي بين ذراعيك وابنتي الصغيرة بين ذراعي المجهول..

أستحلفك بالله أن تنسى وتبتعد.

ã ã ã

كانت فريدة تجلس إلى جوار مصطفى يشاهدان التلفزيون.. وذراعه تلتف حولها.. كانت صباح تغني اغنيتها «أمورتي الحلوة» ولف مصطفى ذراعه حول كتف فريدة في حنان كأنه يعلم أن كلمات الأغنية ستوقظ بداخلها الألم.. ووضعت فريدة رأسها على صدره وابتسمت في مرارة.. أكثر من ثلاث سنوات منذ اختفاء ميجو.. تجاوزت الآن السابعة من عمرها.. كيف تراها

تبدو.. هل مازالت ممتلئة الجسد.. هل مازال شعرها طويلًا.. وتلك الغمازة التي تتوسط ذقنها هل زادت وضوحاً أم تراها تاهت في ملامحها الأخرى..

كيف مرت ثلاثة أعوام.. كيف مرت وهي مازالت هنا تتنفس؟!

وارتفع صوت الهاتف والتقط مصطفى السماعة بذراعه الأخرى وقال في هدوء:

أيوة مين؟

كانت فريدة مازالت على صدره عندما شعرت برعشة تسري في جسد مصطفى واعتدلت لتسمعه يقول:

اهدي أرجوك يا ست زينب.. أنا حاجيلّك حالًا.. أنتو في العجوزة؟!

ودق قلب فريدة وهي تشعر بشيء ما رائحته بغيضة.. وبعد لحظات أغلق مصطفى التلفون ونظر إلى فريدة في حيرة وهي تنظر إليه ولا تعرف إن كانت تريد أن تعلم أم لا تريد..

ووقف مصطفى وقال في حذر:

فريدة.. حازم في مستشفى الشرطة اللي في مدينة نصر.. واضح ان حالته وحشة جداً.. الست بتستغيث بينا أنا حاروحلها.

ونظرت فريدة في ذهول وهي تسأل:

إيه اللي حصل؟!

وعاد يقول وهو يخطو نحو غرفته:

بتوع أمن الدول دول حياتهم على كف عفريت.. إرهابيين ضربوا عليه رصاص.

وقالت فريدة وهي تخطو بسرعة نحو السلالم:

أنا حاغيّر وآجي معاك..

وارتدت فريدة بنطلوناً من الجينز الأسود وقميصاً رمادياً لا أكمام له ووضعت في قدميها «سابوه» من اللون الأسود واختطفت حقيبتها بسرعة دون حتى أن تمشط شعرها الملقي على كتفيها وركضت لتجلس إلى جوار مصطفى في السيارة وسمعته وهو يقول:

أنا حاكلم اللواء عادل أسأله عن الحالة..

ونظرت فريدة من النافذة المجاورة لها وأخذت تفكر.. منذ متى لم تر حازم، منذ ثلاث سنوات تقريباً أو أقل قليلًا.. منذ تلك اللحظات التي قضاها في مكتبها..

منذ تلك الرسالة التي أرسلتها له لم يحاول يوماً الاتصال بها ولكن كانت دوماً تشعر أنه حولها.. إنه هناك في انتظارها..

يا إلهي كيف تمضي بنا الأيام والأعوام لنكتشف فجأة أننا أضعناها في غباء.

وشعرت بكف مصطفى تضم يدها والتفتت إليه لتشعر بأن ما عرفه من أخبار لن يطمئن قلبها الجريح.

وقال في هدوء:

حازم في غيبوبة كاملة من خمسة أيام.. خمس رصاصات واحدة منها في أسفل البطن نزف كثير قوي يا فريدة وغالباً حالة تسمم.. حازم على «الفينتليتور».. ربنا يكون في عون أمه.

وانتفض جسد فريدة.. وانتفض قلبها وروحها وهي لا تصدق.. ما الذي فعلته زينب لتحرم من وحيدها؟؟

إن كانت هي تدفع ثمن خطيئتها.. فما الذي تدفع زينب ثمنه؟؟ لا.. حازم سيعود من جديد.. حتماً هناك خطأ ما.. أم أن الحياة كلها أصبحت سلسلة من الأخطاء.

عندما وصل الاثنان وعندما خطت فريدة إلى جوار مصطفى في تلك الردهة الطويلة المؤدية إلى غرفة العناية المركزة رأت فريدة زينب على البعد تستند إلى حائط ودموعها تهطل في جنون وتحمل بين كفيها مصحفاً.. وأسرع مصطفى إليها وتثاقلت

خطى فريدة.. هل رحل حازم..

وانفجرت زينب في بكاء حاد عندما رأتهما وضّمها مصطفى إلى صدره وسمعتها تقول:

خمسة أيام يا دكتور مصطفى.. خمسة أيام على دا الحال.

اقتربت فريدة لتنظر حولها واتجهت إلى باب غرفة العناية ودخلت لترى حازم مسجى على سريره وصدره عارياً إلا من تلك الأسلاك الكثيرة..

كانت عينيه مغلقة ولكنها تبدو هادئة جميلة كأنه يغفو في حلم جميل.

ونظرت إلى ذراعه اليسرى فوجدته متصلًا بأسلاك أخرى كثيرة والكانيولا تقتحم كفه.. واتجهت في صمت إلى الجهة اليمنى لتجلس على حافة السرير وتمسك بكفه الأيمن الطليق بين يديها في هدوء.

وسقطت دموعها في صمت وسخاء.. كيف حدث هذا وهي لا تعلم؟! كيف حدث هذا وهي لم تشعر.. كيف نظن أننا نشعر بما يحدث لمن نحب ونكتشف أننا لا نعرف حتى ما يحدث لنا نحن أنفسنا..

ومن بين دموعها وكفه بين أصابعها قالت:

أنا كدّابة.. أيوة كدّابة.. أنا لا عمري عزتك تبعد ولا عمري عزت أنسي.. أنا كل يوم كنت باحلم تاخدني في حضنك.. كل يوم كنت أتمنى أجيب ميجو وآجي أقولك بنتي أهي وأنا أهو.. أوعى تسيبني أرجوك.

عايزة أقسّم حزني معاك وعايزة أستنى أنا وميجو معاك.. أرجوك.

وشعرت فريدة بكف حازم تضغط على أصابعها وشهقت في جنون ونظرت إليه.. ولكنه كان كما هو في غيبوبته وعادت تنظر إلى أصابعها.. أنها لا تتخيل.. إنها تشعر بكفه تضغط على أصابعها وعادت تقول في جنون:

حازم.. انت سامعني؟!

ولكن لا شيء سوى تلك الضغطة الخفيفة التي تشعر بها على أصابعها واستدارت لترى مصطفى يقف بداخل الغرفة ودموعه تسقط على وجنتيه.. لقد سمع ما قالته فريدة ولكنه يعلم إن ما لم تقله كان أكثر.

ä ä ä

استلقى مصطفى إلى جوار ماجي في سريره في صمت.. إنه لم ير فريدة هذا المساء.. إنه حتى لا يستطيع أن يصعد إلى غرفتها ليراها.. لقد مضى أقل من شهر على رحيل حازم..

وعاد يتنهد... حازم.. ذاك الشاب المسكين.. لقد رأى في جنازته تظاهرة حب كبيرة.. كان كل زملائه يبكونه في صدق.. هو أيضاً كان يحبه.. لم يستطع يوماً أن يكرهه.. وعاد ينظر إلى سقف غرفته ويرفع عينيه وهو يقاوم دموعه.. مسكينة زينب.. كانت تقف في ذهول في أيام العزاء.. لم تكن تبكي.. كل ما كانت تفعله أنها تقرأ في مصحفها وتبحث بعينيها عن فريدة.. وكأنها تشم فيها رائحة حازم..

شعر مصطفى أن الحزن يجثم على صدره في عنف، لقد تعب وتعبت فريدة من بكائها وذهولها.. لقد تعب هو حتى من النظر إلى وجهها.

كلما التقت عينه بعينيها يراها تسأله لماذا.. لماذا فقدت أمها وهي طفلة.. لماذا فقدت طفلتها وهي شابة صغيرة.. لماذا فقدت حازم مرتين.. ولكن لماذا فقد هو زويي.. لماذا فقدها أمام عينيه.. مازال صوت ارتطام جسدها بتلك السيارة الملعونة يدق في رأسه.. ماتت زويي ومات جنينها معها.. لم يكن أحد سواه يعلم بأنها حامل.. لماذا يرى هو ابنته الشابة تتحول إلى حطام أمام عينيه..

وعاد يتمتم:

أستغفر الله العظيم..

إنه لم يسئ إلى مخلوق.. لم يسرق يوماً د. أوليميه فلِمَ سرقه مروان؟

ما أساء يوماً إلى أحد حتى مراد والد ماجي صفح عنه وأصبح يحبه كما يحب ماجي وأمجد.. لماذا إذاً..

لم يظلم أحد يوماً فلماذا تظلمه الأقدار دوماً؟!

وعاد مصطفى يحاول أن يطرد الأفكار من رأسه ورفع ذراعه ليطفأ نور الأباچورة وينام إلى جوار ماجي.. وصرخ صرخة صغيرة من الألم.. إنه لا يستطيع أن يحرك ذراعه... ماذا حدث.. واعتدل في سريره بصعوبة شديدة وشعر بألم حاد يمزق ذراعه وصدره ويدق ظهره بعنف شديد.. ومد أصابعه ليلتقط تلفونه الصغير وهو يشعر أن عرقاً غزيراً قد بدأ يتصبب من رأسه وشعرت به ماجي وهو يتحدث إلى الدكتور طلعت وفتحت عينيها لترى مصطفى والعرق يتصبب من جسده وصرخت في صوت مكتوم:

مصطفى.. مالك يا مصطفى؟!

كان مصطفى يقول:

جهّز كل حاجة.. أنا جي حالًا..

وقال لها وهو يحاول أن يبدو متماسكاً:

ساعديني يا ماجي.. الظاهر إنها جلطة..

وقفزت ماجي من السرير في جنون وهي لا تعلم ماذا تفعل، وعاد صوت مصطفى يطرق أذنها وهو يطلب أحمد ويقول له:

جهّز العربية على باب الفيلا.. أنا تعبان قوي..

وركضت ماجي إلى خارج الغرفة وهي تصيح:

فريدة.. فريدة.. الحقيني..

وحاول مصطفى أن يناديها.. أن يتوسل إليها أن تترك فريدة ولكن ما استطاع..

كانت فريدة في فراشها بغرفة ميجو.. تحتضن «بوتشي» دبها الصغير في نصف إغماءة.. وجاءها صوت ماجي وفتحت عينيها وهي لا تعلم.. هل هذا هو أحد كوابيسها اليومية، لكن ماجي دخلت الغرفة لتشعل ضوءها وتشعل معه حريقاً في قلب فريدة وهي تصيح:

فريدة.. مصطفى.. الحقي مصطفى.

وقفزت فريدة من فراشها وهي لا تفهم وبوتشي مازال في أصابعها ورمته إلى الأرض ثم وضعت قدميها في «السابو» الساتان الملقي تحت فراشها دون وعي وركضت إلى السلالم وماجي تتبعها في جنون.

وما أن دخلت غرفة مصطفى حتى رأته يخطو بصعوبة وأنفاسه تتقطع نحو الباب وقال وهو يحاول أن يبدو متماسكاً:

ما تخافوش.. الدكتور طلعت مستنيني..

وصاحت ماجي:

إحنا مستنين إيه؟

وقال مصطفى:

طب غيّري هدومك يا ماجي.

كانت ماجي ترتدي قميصاً من الساتان العاري خلعته دون تفكير لتقف عارية أمام دولابها وهي لا تعلم ماذا تفعل لكنها التقطت أول ثوب وقفت عليه أصابعها وركضت لتلحق بمصطفى الذي كان يستند على ذراع فريدة في طريقهما إلى باب الفيلا.. وعاد مصطفى يقول:

البسي انت هدومك يا فريدة وحصلينا يا حبيبتي..

وفتحت فريدة باب الفيلا لتجد أحمد يقف في لهفة وركض ليفتح أبواب السيارة وساعدها لإدخال مصطفى إلى المقعد الخلفي وصاحت فريدة:

ادخلي جنبه يا ماجي..

ودخلت فريدة لتقود وقال مصطفى كأنه يرجوها:

لأ.. أرجوكي بلاش تسوقي.

ودفعت فريدة أحمد بيدها في عنف وأغلقت باب السيارة في جنون وركض أحمد يركب السيارة الحمراء ليلحق بها.

وانطلقت فريدة في جنون لا تبالي بمطبات شوارع المعادي الكثيرة وعيناها ترقب مصطفى في المرآة كل حين، وهو يحاول أن يتماسك أمامها وأخذت ماجي رأسه على صدرها وهي تقرأ بعض الآيات القرآنية وانطلقت فريدة على كورنيش النيل في سرعة مجنونة وأحمد يحاول أن يلحق بها وقد أخرج يده من النافذة كأنه يحذر كل السيارات من الاقتراب من فريدة.

كان الألم قد بدأ يمزق صدر مصطفى وأنفاسه... وعندما نظر بعينيه إلى ماجي وفريدة ازداد ألمه..

رغم ملايين الدولارات.. رغم الشهرة.. رغم كل العلاقات.. لا أحد لهما سواه.. ووقفت فريدة أمام باب طوارئ المستشفى ونزلت لتجد العشرات على الباب في انتظار مصطفى وصرخت:

الدكتور طلعت وصل؟

ورفعوا مصطفى على «الترولي» الموجود وساروا به وفريدة تركض معه وهي تمسك يده في جنون ونظر إليها مصطفى وهو يفكر.. كم يحب هذه الشقراء الكسيرة.. لو تعلم أنه يحبها كما لم يعرف أحد الحب.. فقط لو تعلم!

ä ä ä

كانت ماجي تنظر في ذهول وهم يأخذون مصطفى من على صدرها ويركضون به إلى داخل المستشفى.. كانت تنظر إلى فريدة وهي تركض إلى جواره وهي مازالت في بيجامتها الزرقاء.. كان الكل يركض في هدير يدق رأسها وهي في مكانها بداخل السيارة ترقبهم في ذهول.. إلى أين يأخذون مصطفى.. لماذا هي هنا وحدها؟

لماذا لا تركض إلى جواره كما تركض فريدة.

هل هي في حلم؟!..

وعادت تهز رأسها.. إنه حلم..

كيف نفيق من الأحلام التي لا نحبها..

يارب.. لما لا تفتح عينيها وتجد نفسها في سريرها إلى جوار مصطفى؟

وسمعت نقراً على زجاج السيارة وأطل وجه أحمد يسألها في إشفاق:

ماجي هانم.. مش حتنزلي؟!

وعادت تنظر إلى حيث أخذوا مصطفى.. وهي تسأل هل يموت؟ هل يموت مصطفى؟!

ä ä ä

ضم الدكتور طلعت فريدة إلى صدره في حنان بالغ ليهدئ نزف بكائها وقال:

فريدة.. يا بنتي أنت حضرت القسطرة بنفسك.. كل حاجة سليمة وتحليل الأنزيمات كان سليم.. دي حتى القسطرة ما كنش ليها لازمة.. بس أنا حبيت أطمّن.. ومصطفى شاف كل حاجة.. أزمة وعدت.. بكرة يشوفه الدكتور حاتم الخبيري.. ده احسن دكتور باطنة.. انتي عارفة وأكيد حانطمّن أكتر.

وسكت قليلًا ثم قال:

فريدة.. مصطفى مشكلته حلها في إيده وإيدك.. ورفعت فريدة عينيها إلى الدكتور طلعت وقالت من خلف دموعها:

أنا مش حاسيبه لحظة بعد النهاردة..

وربت طلعت على كتفيها وقال في حنان:

ربنا معاكم يا بنتي.. ربنا يريح قلبك وقلبه وترجعلكم ماجي الصغيرة.. كل حاجة ساعتها حتبقى كويسة..

ودخلت فريدة إلى الجناح الذي يرقد فيه مصطفى لتجد ماجي تجلس على أحد مقاعد الريسبشن الرمادية وهي تضع

رأسها بين كفيها وقد سندت كوعيها على ركبتيها وقالت دون أن ترفع رأسها:

مصطفى نايم يا فريدة.. أقعدي من فضلك أنا عايزة أتكلم معاكي شوية..

ورمت فريدة بجسدها الذي كان مازال ينتفض على الكنبة الصغيرة المقابلة لماجي دون أن تنطق بكلمة واحدة وبعد لحظات طويلة من الصمت جاءها صوت ماجي خفيضاً ولكنه ثائر يسأل:

قوليلي يا دكتورة.. دقات القلب لما بتزيد عن معدلها الطبيعي مش دا معناه إن فيه خلل في الجسم؟!

ورفعت فريدة عينيها المنهكتين ونظرت إلى وجه ماجي في دهشة وقبل أن تجيب استطردت ماجي تقول:

فكّري كده معايا إيه الحاجة اللي لما تزيد عن معدلها اللي ربنا خلقها بيه تبقى حاجة حلوة وسليمة.. ولا حاجة حتى الفلوس.. الفلوس لما بتكتر وتزيد الثروة عن حدودها بيبقى سرقتها أسهل واللعب فيها أسهل.. وصاحبها بيبقى تعبان بيها وكارهها لأنها بتخنقه.. بتجننه ويتسقّط قدام عينه ناس كتير ومع الوقت يا إما بيفقد ثقته في نفسه وفي اللي حواليه يا إما بيبقى تعيس ويائس.. دا البني آدم نفسه لما بيكبر ما بيقواش، لأ دا بيضعف ويمرض ويبقى شكله وحش..

كانت فريدة تشعر بماجي تحترق وهي لا تفهم لماذا تقول لها كل هذا ولا تعلم بماذا يمكن أن تجيب أو عن ماذا يجب أن تسأل ولكن كان يجب أن تصغي.. للمرة الأولى في حياتها ترى ماجي بهذه الثورة وعادت ماجي تبتسم في مرارة وتقول في تهكم:

أنا ما اتجننتش يا فريدة.. أنا عايزة أقولك.. إن اللي وصّلنا هنا هو «الاكستريمز» اللي أنت عشتي طول عمرك بتجري فيها.. عمرك ما خليت مشاعرك تتحرك في تراك المعقول.. حبيتي حازم.. حبتيه أكتر من اللازم علشان كدا الحب دا بقى ضعيف وقع قدام أول مشكلة.. اتجرح بكلمة.. خلاكي تضيّعي جنين وبيت أنت عملتيه دا حتى البيت اللي عملتيه كان أكبر من المعقول عشان كدا حازم ما قدرش يعيش فيه.

أتجوزتي مروان يا فريدة.. كرهتيه.. قرفت منه.. كل ده كان فوق الطبيعي.. قتلتي فريدة الست وبقيتي مجرد أم.. زهدك فيه لما كبر يا فريدة جننه.. مش يمكن لو مروان حس معاكي بالأمان ما كانش سرق؟!

مش يمكن لو حس بحبك.. حتى لو شوية حب صغيرين ما كانش خان ولا كان أخد بنته وهرب؟!

وقاطعتها فريدة في ألم بصوت مخنوق:

مروان بقى طيب يا ماجي؟! وأنا بقيت السبب في..

وقاطعتها ماجي بحزم:

مروان لا طيب ولا بريء.. لكن لما احتقارك ليه زاد عن حدود المعقول طلّع كل السفالة النايمة جواه.. وبعدين تعالي قوليلي.. هو مروان حيقتل ميجو؟!

واتسعت عينا فريدة في جنون وقالت:

ماجي؟!

وعادت ماجي تقول في قسوة:

مروان مش حيقتل بنتك يا فريدة.. لأنه بيحبها لأنها بنته.. كلنا عارفين إنه بيحبها.. يمكن مش بيحبها زيّنا.. يمكن مش بيعبّر بطريقتنا.. لكن بيحبّها.. بيحبّها الحب اللي ما يقتلش.. الحب الصح الطبيعي.. مش حيقتلها يا فريدة.. لكن اللي أنا عايزة أعرفه دلوقتي حاجة واحدة.. سؤال واحد حيجنّني..

كان صوت ماجي قد بدأ يعلو وقالت فريدة في يأس:

عايزة تعرفي إيه يا ماجي؟!

ونظرت ماجي في عين فريدة في قسوة ويأس لم ترهما منها فريدة يوما وقالت:

إنتي.. إنتي.. ليه عايزة تقتلي مصطفى.. ليه مصممة تقتليه.. ليه؟!

شعرت فريدة أن ماجي مدت أصابعها إلى صدرها واعتصرت قلبها العاري بين أصابعها وقالت كأنها تئن:

أنا؟!.. أنا يا ماجي؟!

وعاد صوت ماجي يعلو:

ولَّا يمكن عندك حق.. لأنه هو حَبَّك أكتر من الطبيعي.. دخل هو كمان منطقة الأكستريمز بتاعتك.. اللي يدخلها مش بس بيمرض ويموت لأ.. دا حتى اللي حواليه بيكرهوه..

وقالت فريدة في لوعة:

يعني أنا باكرهه ويعني أنتو كرهتوني يا ماجي؟!

وسكتت ماجي لحظة ثم عادت تقول في ألم صادق:

يا ريت عارفين.. ما كناش بقينا كلنا بنتعذب بيكي ومعاكي.. ما كناش يا فريدة بقينا أنا وأنتِ قاعدين هنا ومصطفى جوه مرمي على سرير.. بصي حواليكي يا فريدة.. بصي كويس.. مين معانا؟! أنا وأنتي لوحدنا.. لو قتلتي مصطفى يا فريدة حتقتلينا معاه ولو فضل مننا حاجة الناس حتقطعنا يا فريدة.. إحنا مالناش غيره..

وسقطت دموع ماجي ومضت تقول:

إرضي يا فريدة.. أرضي بقى.. ما تقفيش قدام القدر.. بنتك مش في حضنك لكن بخير ومسير الأيام تجمعكم.. حازم مات.. طب ما أمك ماتت وأنت عيلة صغيرة.. إرضي يا فريدة.. إرضي في حدود الرضا المعقولة لأن حتى الرضا لما بيزيد عن حده بيبقى سلبية.. بس كمان المعافرة والرفض لما بيزيدوا بيبقوا..

سكتت ماجي برهة ورفعت عينيها وقالت:

بيبقوا كفر.. بلاش نكفر.. الكفر عقوبته كبيرة وإحنا مش قدها..

سالت دموع فريدة في صمت وعادت ماجي تقول بعد أن هدأ صوتها قليلًا:

روحّي يا فريدة نامي.. أنا حابات مع مصطفى وفكري في كل كلمة قلتهالك.. أرجوكي..

نظرت فريدة إلى ماجي وهي تستعيد كل كلمة قالتها.. إنها على حق.. نحن عندما يقتلنا الألم نزداد صدقاً وحكمة وجاءها صوت ماجي يقول:

فكّري يافريدة.. شوفي حب مصطفى ليكي خلّاه يعمل معاكي إيه وحبك أنتي نسَّاكي تعملي معاه إيه، واعمليه لو كنتي حقيقي فهمتي واقتنعتي باللي أنا قولته..

ونهضت فريدة في استسلام لتمضي نحو الباب ثم التفتت إلى ماجي تسألها في حيرة:

نسيت أعمل إيه؟ إيه اللي ممكن أعمله يا ماجي لپاپي.. إيه؟!

ورفعت ماجي عينيها البنيتين الجميلتين وسقطت منهما دمعة لتنظر في عين فريدة قائلة:

نسيتي الرحمة.. الرحمة يا فريدة!!

ä ä ä

نهضت فريدة في السابعة صباح اليوم التالي من فراشها. لم تنم إلا ساعات قليلة بعد عودتها من المستشفى.. ووقفت تأخذ حمامها تحت الماء الدافئ وهي تستعيد أحداث الليلة الماضية كادت تفقد مصطفى.. وأغمضت عينيها وهزّت رأسها في عنف.. وكأنها تقول يا رب.. إلا مصطفى.. وعادت كلمات ماجي الأخيرة تدق رأسها من جديد «الرحمة»..

ووقفت أمام مرآتها تجفف شعرها وتنظر إلى وجهها في وجوم.. لقد كانت طوال الأعوام الماضية تحزن وتبكي وتتمزق عروقها في صمت.. لقد نسيت حتى أن تطلب الرحمة.. ونظرت إلى عينيها في المرآة.. حقاً يجب أن ترحم مصطفى من عذابه عليها ليرحمها الله أيضا.. وخلعت البرنس الذي كانت ترتديه في هدوء.. وعادت تنظر إلى جسدها في المرآة.. إنها في نهاية الخامسة والثلاثين من عمرها.. عشر سنوات منذ رأت حازم.. عشر سنوات من الحب والعناء والشقاء.. آن أوان الرحمة.. ثم

خطت في هدوء إلى الپلاكار الكبير في غرفة ميجو التي أصبحت غرفتها ونظرت إلى ملابسها في هدوء.. ومدت أصابعها البيضاء الرقيقة وأخرجت قميصاً رمادياً في لون سحاب غرفة ميجو.. وأخرجت جوب سوداء قصيرة وارتدتها.. لقد فقدت كثيراً من وزنها لكنها مازالت جميلة وتنهدت.. ليتها كانت أقل جمالًا وأقل ثروة وأكثر سعادة وعادت تتذكر الرضا الذي حدثتها عنه ماجي وتمتمت:

«أستغفر الله.. يارب»

ارتدت ملابسها وأطلقت خيوط الشمس.. ومدت أصابعها لتلتقط قلم روچ وردياً.. منذ متى لم تلمس شفتاها الألوان.. منذ متى لم يلمس شفتيها شيء ما سوى قطرات دموعها.. ومرت بقلم «الروچ» الوردي على شفاهها ثم التقطت في ثبات عطر «الشيرير 2» لتضع زخات منها.. ووضعت في قدميها «سبادريل» أسود يلتف حبله حول ساقيها وربطته في هدوء لتهبط سلالم البيت وكأنها عرفت حقاً طريق الرحمة..

حين فتح لها أحمد باب السيارة الخلفي رأته يرمقها بنظرة كأنه لا يصدق أن هذه هي فريدة التي كانت تبكي طوال شهر في جنون وفاة حازم.. لا يصدق أن هذه هي فريدة التي كانت تقود سيارة مصطفى بالأمس في جنون أكبر على كورنيش المعادي وكأنها تتمنى لو يموتوا معاً جميعاً.. وابتسمت فريدة وقالت:

إزيك يا أحمد.. معلهش أنا عارفة إنك ما نمتش كويس.. بس حانجيب پاپي من المستشفى وحنحاول نرتاح كلنا.. كلنا يا أحمد..

وفي الطريق إلى المستشفى وقفت فريدة بكشك صغير يبيع الأزهار. وانتقت 24 زهرة بيضاء اختارت لها ورقة حمراء التفت حولها وحول خصر الباقة شريطة بيضاء كبيرة.. حملتها في يدها عند وصولها بوابة المستشفى لينظر إليها كل من رآها في دهشة وفرحة وهم يرددون:

حمدلله على سلامة الدكتور مصطفى، وابتسمت فريدة في هدوء وصعدت إلى الدور الرابع وفي طريقها وقفت تنظر إلى ذاك الجناح الذي رقدت فيه مهجة يومًا والتقت فيه حازم ونكسّت رأسها ومضت إلى جناح اليوم.. مصطفى هو اليوم الذي يجب أن تحافظ عليه وتحياه.

عندما دخلت لم تجد ماجي في الريسبشن فمضت إلى الغرفة الأخرى لتطرق طرقات خفيفة فتحت بعدها الباب لترى ماجي تجلس على مقعد بجوار مصطفى وتحتضن كفه بين كفيها ورأسها ملقى إلى الخلف وهي نائمة..

وفتح مصطفى عينيه ليرى فريدة وفي يدها باقة الزهر البيضاء تقترب منه وهي تقول:

وحشتني.. وحشتني يا حبيبي.

تأمَّلها مصطفى.. تأمل وجهها الجميل الرقيق.. ولمح شفاهها الوردية وثيابها الأنيقة وأغمض عينيه وتنهّد قائلا:

ياه.. وانتي كمان..

وفتحت ماجي عينيها لتنظر إلى فريدة وتسقط من عينيها دمعة.. وعادت فريدة تقول:

ممكن تعزمني على الغدا بره زي زمان..

وقال مصطفى في لهفة وعيناه تترقرق بدموعها:

نروح صبايا يا فريدة؟!

وألقت فريدة بالزهر على قدميه ورمت نفسها على صدره وقالت:

نروح.. نروح.. المهم نكون سوا.

ä ä ä

كانت زينب تجلس في هدوء تشرب قهوتها في غرفة حازم عندما جاء إلى أذنيها صوت الهاتف قامت في خطى ثقيلة لتلتقط سماعة التلفون ثم قالت:

أهلا يا محمد يا حبيبي..

وعادت بعد لحظات تقول:

لا يا ابني.. أنا كويسة.. أصلي كنت مسافرة.. كنت في عمرة.. لسه راجعة إمبارح..

وترقرقت عيناها بالدموع بعد أن سمعت كلمات محمد وقالت:

والله دعيتلك يا ابني ربنا ما يحرمني منكم كلكم.. مع السلامة..

ووضعت سماعة الهاتف في هدوء ورفعت رأسها لتسقط دموعها من جديد..

عام مر على وفاة حازم ومازال الكثير من أصدقائه يزورونها ويسألون عنها.. لم تكن تعلم أن حازم كان محبوبا إلى هذا الحد.. وخرجت من صدرها آهة حارقة وعادت تمسح دموعها وتستغفر الله..

وزارة الداخلية أخذتها إلى الحج.. وهي ذهبت إلى العمرة مرتين.. لمن تدخر النقود؟! العمرة الثالثة عادت منها بالأمس كانت دعوة من الدكتور مصطفى.. وعادت تتنهد من جديد.. مصطفى وفريدة.. هل يوجد على الأرض بشر مثلهم وعادت تهمس:

الله يرحمك يا بني..

كأن حازم التقى فريدة وتزوجها فقط لتجدها زينب حولها بعد رحيله.. هذه الفتاة الجميلة المسكينة.. كم تحبها زينب.. كم أصبحت تحبها بعد أن عرفتها أكثر.. لو عرفها حازم كما عرفتها زينب لما تركها يوماً.. ثم عادت تقول في داخلها.. حازم عرف فريدة.. لابد أنه عرفها وإلا ما كان رفض الزواج بعدها.. ما كان الحزن قتله وجعله أقل تركيزاً.. أو ربما قتله الحسد.. كل من حولها كانوا يحسدونه.. لقد كان جميلًا.. كان في مركز كبير.. سيارة وسائق وعساكر..

وعادت تهز رأسها في عنف وهي تقول:

اللهم اخزيك يا شيطان..

لم يقتله الفراق.. ولا الحسد.. ولا حتى تلك الرصاصات الرخيصة.. إنه القدر... لكل أجل كتاب.

وأطرقت برأسها تفكر.. عام من الفراق.. «آه يا حبيبي».. كم اشتاقت إليه..

وعاد صوت الجرس يدق أذنها وقامت زينب وكأنها تعلم أن الله أرسل إليها من يخرجها من وساوس الشيطان وفتحت الباب لتجد فريدة أمامها تبتسم ابتسامة صغيرة وهي تقول:

«حمد لله على السلامة يا طنط زينب»..

وصاحت زينب وهي تضمها إلى صدرها:

فريدة.. يا حبيبتي يا بنتي.. اتفضلي..

دخلت فريدة في هدوء لتجلس إلى جوار زينب على ذات المقعد الذي جلست عليه يوم جاءت مع حازم.. ذات المقعد الذي لا تغيره أبدا كلما جاءت لزيارة طنط زينب..

طال بهما الحوار زينب تحكي عن مكة.. عن الحرم.. عن قبر الرسول «عليه الصلاة والسلام» وفريدة تحكي عن المستشفى.. عن ماجي ومصطفى.. عن الدكتوراة التي أنهتها.. عن حازم.. عن كل الذكريات ككل مرة جاءت فيها إلى زينب وفجأة قالت زينب بابتسامة صغيرة:

آه.. أنا عندي ليكي خبر حلو يا فريدة..

ورفعت فريدة عينيها الزرقاوين في دهشة.. هل بقى عند زينب خبر «حلو»؟!

وابتسمت زينب ابتسامة أكبر قليلًا قائلة:

عارفة؟! المرة دي وأنا في الكعبة رفعت إيدي للسما وقلت يا رب اجمعني بابني وأجمع فريدة ببنتها ولما بصيت للسما يا فريدة شفت نور في عنيا.. والله يا فريدة.. ورحمة الغالي أنا حاسة إن ربنا حيستجيب لدعوتي حتشوفي بنتك يا فريدة وأنا حشوف ابني.. ومن خلف دمعة رقصت في عين فريدة احتارت هل تقول لها «بعد الشر عليك».. أم تقول «آمين»!!

لكنها نكسّت رأسها وهي لا تعلم ماذا يمكن أن تقول..

ä ä ä

نهض «هاني» من سريره.. إنه سعيد سعيد منذ حضر «عمر» لتمضية أسبوع معه.. لقد قتلته الوحدة.. منذ تلك اللحظة التي قرر فيها الهجرة إلى كندا منذ خمسة عشر عاما وهو يقيم وحده في تورنتو..

وعاد يجلس على حافة فراشه لينظر إلى المنبه الموضوع إلى جواره.. إنها التاسعة صباحاً.. قبل حضور «عمر» كان يستيقظ دومًا في الخامسة أو السادسة.. بالأمس سهر معه حتى الثالثة صباحاً.

وابتسم.. «عمر».. صندوق كبير من القصص والأخبار والقفشات والنكات.. منذ متى يعرفه؟! منذ كانا معاً في إعدادي طب جامعة القاهرة.. صداقة طويلة حقيقية.. إنه لا ينسى أبداً كيف حاول «عمر» طويلًا أن يثنيه عن قرار الهجرة.. لم يكن بحاجة إلى الهجرة.. إنه غني أو كما كان يقول عمر دومًا.. «حفيد الباشا» وابتسم هاني في مرارة..

حفيد الباشا.. كره البقاء على أرض مصر.. أنهكه التعامل مع الروتين والفقر والمرض.. أتعبه شعوره بالعجز عن تقديم شيء يشعره بالرضا والنجاح الحقيقي..

أغلق عيادته التي كانت مقراً لوالده في شارع طلعت حرب.. أغلق شقة العائلة في الزمالك.. قرّر الهجرة.. مع من يبقى؟! أخته الوحيدة تزوجت واستقرت في الإسكندرية.. مع من يبقى ومن أجل من؟!

كانت أيامه الأخيرة في مصر حريقاً يومياً لأعصابه.. زحام ودخان.. كم مستشفى التحق للعمل به.. أربعة مستشفيات.. وفي كل مستشفى كانت له قصة وثورة يترك بعدها العمل..

حتى العيادة.. وجوه كثيرة إما أنهكها الفقر والمرض وإما شوهتها الأطماع.. تعب كثيرًا وعندما يئس جاء إلى هنا..

التحق مؤخراً بالعمل في مستشفى «ترونتو چنرال هوسپيتال».. واختار سكنه في إحدى أجمل المناطق السكنية في مجمع انتيريو السكني والذي يطل على أجمل بحيرة في ترونتو.. «انتيريو ليك».. إنه يعشق نيل مصر.. اشتاق إلى مصر ويتمنى العودة ولكن لم يبق له أحد هناك.. الشعور بالوحدة في الغربة أرحم كثيراً من الشعور بها على أرض الأوطان..

وأفاقه صوت «عمر» يصيح من خارج الغرفة:

يا هاني.. يا دكتور هاني.. هو أنا جي أقعد معاك شهر علشان تفضل نايم كده؟! دا أنا كلها يومين ومسافر..

ابتسم هاني وهو يخرج من باب غرفته إلى الريسبشن الكبير حيث وجد عمر قد أعد الإفطار وعاد يصيح:

فول.. فول يا دكتور.. وارد مصر وكمان طعمية علشان بس ما تفتكرش إنك بقيت كندي بجد..

وابتسم هاني ابتسامته الجميلة وهو يلوح بيده قائلا:

طب اعمل الشاي على ما أغسل وشي وأسناني..

وجلس الاثنان يتناولان الإفطار وأمسك هاني بكوب الشاي وقال وهو ينظر إلى ماء البحيرة من خلف زجاج النافذة الكبيرة التي تحتل واجهة الريسبشن بأكملها:

مش بس الفول والطعمية.. مصر كلها وحشتني..

وصاح عمر:

عيّل اللي يرجع في كلامه.. حضَّر شنطك وارجع مصر معايا يا هاني وأنا حاشغّلك في أحسن مستشفى وأخليك كمان تبقى رئيس قسم العظام يا سيدي..

ووضع هاني كوب الشاي ليلتقط أحد أقراص الطعمية ثم قال في مرارة:

أرجع أعمل أيه.. أنا ما عرفتش أصلَّح حاجة وأنا شاب صغير.. أرجع وأنا عندي أربعة وأربعين سنة يا عمر.. أنا مبسوط هنا.. على الأقل مش شايف اللي بيحصل بعيني.. كفاية أتفرج عليه في شبكات الأخبار..

قاطعه عمر وهو يصيح:

يا هاني.. مصر اتغيرت.. طب تعالَ أجازة.. بقى فيه سياسة جديدة خالص.. صدّقني.. ثم ابتسم قائلًا:

دا حتى الستات بقت أحلى.. تعال أجوّزك دكتورة زي القمر..

ونظر هاني إلى البعيد.. «مصر».. هل يستطيع حقًّا أن يعود.. لكنه نكسّ رأسه في حزن ليقول:

لا يا عمر.. أنا هنا مبسوط.. أختي وأولادها بييجوا كل سنة يقضوا معايا شهر الصيف..

وقاطعه عمر:

والستات يا سيد؟! الستات.. ولا أنت خلاص عاجبك تعيش كده من غير جواز ولا تلاقي ستات كندا لحسوا مخك؟!

وعاد هاني برأسه إلى الخلف لكن عمر لم يتركه يرد أو يفكر بل عاد يسأله من جديد:

قول لأخوك بتعرف كام واحدة في الشهر..

ورفع هاني عينيه السوداوين الواسعتين وقال في صدق:

ما فيش ست واحدة دخلت البيت دا من ساعة ما سكنت هنا من سبع سنين.. الوحيدة هي أختي ومرتات أصحابي مع أجوازهم لما بيزوروني.. وبعدين أنت بتتكلم عن الجواز؟! ما أنا خطبت في مصر مرتين وأنا صغير.. ولا مرة تمت الحكاية ياعمر.. ما هو كان على إيدك.. بأقولك إيه!! قوم ننزل.. أنا عندي مستشفى الساعة خمسة وحأقضي الليلة هناك.. قوم..

صاح عمر ليقاطعه:

حتسيبني من خمسة لغاية بكرة؟! عايزني أقعد قدام القزاز أبص على البحيرة والجناين زيك.. لا يا سيدي أنا ماليش في الحاجات دي.. أنا عايز ناس.. عايز حاجات حلوة..

ضحك هاني ليقول:

آه.. كدا إحنا محتاجين نعمل تلفون نبلغ مها..

عندها رفع عمر يده وهو يصيح:

إلا مها في عرضك.. دا تسيب الولاد وتركب الطيارة وتيجي جري.. دي بالعافية على ما خلتني أجيلك أسبوع بعد مؤتمر نيويورك..

وقام هاني عن مقعده قائلًا:

أنا حا أغير هدومي وأنزل.. تعالَ نركب «الفيري» ونعدي البحيرة ونروح نقعد في سنتر إيلاند ويا سيدي بعد الضهر وصلني المستشفى وخد العربية وروح أنت الشلالات.. دي كلها مية وعشرين كيلو من هنا.. وحوالين الشلالات حتلاقي ستات من كل صنف ولون.. ورّينا شطارتك..

قبل أن ينهض هاني عن مقعده سمع رنين هاتفه الصغير وأسرع يحضره وهو يقول:

رزقك في رجليك دي المستشفى... شكلك حتقضي اليوم كله لوحدك..

واختفى هاني لحظات ليعود وهو يرتدي ملابسه على عجل قائلا:

عمر أنا لازم أروح المستشفى حالًا.. حادثة حصلت على الهاي واي 401 والحالات في الطريق.. البس بسرعة وصّلني المستشفى وروح الشلالات ولا اعمل أي حاجة.. يللا ما فيش وقت..

وابتسم عمر في هدوء.. هذا هو هاني.. لا يتأخر أبداً عن عمله.. يتعامل مع كل مريض وكأنه أحد أفراد عائلته.. ووقف يرتدي ملابسه وهو ينظر حوله.. هاني يعيش في الجنة.. كل شيء في منزله رائع.. لكن حتى بيت الزمالك كان أيضا رائعاً وجميلًا.. الخطأ الوحيد في هاني هو مثاليته.. صدقه.. صدقه في الحب.. صدقه في العمل.. في الكره.. ربما هذا الصدق هو الذي أحضره هنا.. من يصدق هاني رأفت.. حفيد رأفت باشا الذي كانت تتمايل حوله الجميلات في مصر يعيش هنا في كندا منذ خمسة عشر عاماً وحيداً بلا امرأة أو أطفال.. من يعلم ربما كان هذا حقاً أفضل من أن يكون زوجاً أو أباً شقياً مع زوجة لا تنتهي مطالبها مثل «مها» زوجته لكن هاني لم تكن لترهقه مطالب امرأة إنه ثري.. عمارات في الزمالك ومصر الجديدة.. عزبة

كبيرة قرب المنصورة.. لم تكن المادة أبداً لترهق هاني يومًا.. ولكن الأقدار لا تمنح كل شيء.. ها هو هنا وحيد يرجوه أن يبقى معه أياماً أخرى.. ليته يستطيع أن يبقى.. إنه يحب هاني.. يحب أن يكون معه.. إن صحبته جميلة فهو رقيق مجامل كريم.. ليته يتمكن من إقناعه بالعودة إلى مصر حتى لو في أجازة صغيرة.. وجاءه صوت هاني من بعيد..

«أنا نازل أطلع العربية يللا يا عمر والنبي على تحت»..

ولحقه عمر وهو يقول ضاحكاً:

إلا العربية.. اليورش دي أنا اللي أطلَّعها.. دا أنا عملت رخصة دولية وجيت كندا مش عشانك.. لا يا دكتور.. أنا جيت عشان أسوق اليورش..

ä ä ä

دخل هاني إلى المستشفى بسرعة لتلتقطه «چين» بعينيها ووقفت تجمع صور الأشعة والتحليلات لتركض نحوه ويتجه الاثنان معاً إلى الطوارئ وهي تحكي له ما حدث.. قائلة:

عندنا بنت أمريكانية وأبوها.. البنت عندها تسع سنين.. تفتت في عظم الذراع وكسر مضاعف.. الأب حالته وحشة.. إصابات جامدة في البطن والصدر وكمان كسر في الساق.

وارتدى هاني ملابسه على عجل وتوجه ليقف أمام الأب وينظر إليه وإلى صور الأشعة الخاصة به عندها فتح الرجل عينيه لينظر إلى هاني في هدوء وعندما حاول الحديث قال له هاني:

بلاش تتعب نفسك..

ولكن قاطعه الرجل في صوت خفيض قائلًا:

أنا دكتور وعايز أعرف حالتي وحالة بنتي إيه..

وأجاب هاني وهو يتفحص وجهه وشعور ما يعتريه بأن هذا الرجل شرقي فعاد يسأل چين عن اسمه لتقول:

دكتور أمريكاني اسمه مروان سعد..

ومضى هاني من جواره وهو يقول:

اطمَّن حالة بنتك كويسة جدا حارجعلك لما أشوفها..

ومضى هاني إلى السرير الذي كانت ترقد عليه الصغيرة ونظر إليها.. وابتسم.. من الواضح أنه طبيب عربي تزوج سيدة أمريكية.. ملامح الفتاة لا تشبه ملامح الأب الشرقية أبدا.. وانحنى عليها ليفحص ذراعها وهو يبتسم قائلا:

ممكن أشوف دراعك؟!

ونظرت إليه بعينيها الزرقاوين الواسعتين ولم تجب.. وعندما التقت عيناهما شعر هاني بشيء ما يدق صدره.. شيء ما في عينيها فيه رائحة خوف وحب وحزن.. ربما كانت خائفة من الحادثة التي تعرضت لها لكنها لم تكن تبكي.. كانت تنظر إليه نظرة فيها شيء لا يستطيع أبدا تفسيره.. ثم ربت على كفها الصغير قائلًا:

أنا اسمي الدكتور هاني واحتمال أعملك عملية او اتنين في دراعك.. لكن غير كده إنت كويسة.. انتو في تورنتو من زمان..

وأجابت في اقتضاب وتردد:

لأ.. إحنا جايين من شيكاغو.. كنا عايزين نقضي أجازة صغيرة جنب نياجرا..

وعادت تقول في هدوء:

پاپي كويس؟!

ونظر إليها هاني وقال بابتسامة ضيقة:

حيبقى كويس.. ما قلتيش اسمك إيه..

ورفعت عينيها الزرقاوين وقالت وهي تتألم:

ماجي.. ممكن تناديني ميجو..

ومضى هاني وچين خلفه.. وهو لا يعلم لماذا يتمنى حقاً لو يبقى إلى جوارها.. لكن الصغيرة بحاجة سريعة إلى جراحة تثبيت مفصل والتفت إلى چين يقول:

البنت محتاجة عملية سريعة وممكن تحتاج عمليتين تانيين كمان بعدها خدي موافقة كتابية من الأب ولو كان مش في وعيه.. ناخد الموافقة من المستشفى ما فيش وقت..

وقاطعته چين:

والأب؟

ونظر إليها هاني قائلًا:

لما الحالة تستقر ممكن نشوف الكسور.. لكن الوضع سيئ يا چين..

على العموم الكلمة دلوقت للجراحين.. واضح إن اصابات الصدر والبطن صعبة.. لو عدى منها الكسور بسيطة وممكن ساعتها نعالجها.

ä ä ä

استدارت چين برأسها لتنظر إلى هاني وهو يجلس على مكتبه في إرهاق وسألته إن كان يريد بعض القهوة معها وعندما هز رأسه بالموافقة عادت تمنحه قهوته وتجلس على المقعد المواجه لمكتبه لتتنهد قائلة:

سبع سنين بنشتغل مع بعض وسبع سنين باقولك علاقتك بالمريض لازم تنتهي برا حدود المكان اللي بيجمعكم سوا.. وما فيش فايدة..

ورشف هاني بعض القهوة ونظر إلى عينيها الخضراوين وقال وهو يحاول أن يبتسم:

المرة دي الوضع مختلف.. مش عارف ليه حاسس اني حقيقي مش عايز أسيب البنت دي يا چين، والله لو كانت أكبر شوية كنت قلت إني وقعت في حبها.. يومين من ساعة العملية وأنا مش أقادر أبطل تفكير فيها.. وابتسمت چين في مرارة ولم ترد.. هاني يحب!!

لا تتخيل هذا.. لكن هاني يحبه الجميع.. في سبع سنوات لم تر رجلًا أو أمرأة أو طفلًا لم يحب هذا الرجل الشرقي ورفعد عينيها لتتأمله من جديد.. جبهته العالية والتي ترتسم حدود شعره عليها كهلال رائع وحاجباه الأسودان اللذان تطل من تحتهما عينان متسعتان برموش كثيفة طويلة وأنفه الجميل الذي يميل إلى أن يكون أفطس قليلا، وشفتاه الرائعتان خاصة شفته السفلية الأكثر استدارة واكتنازا من الأخرى.. إنه رجل جميل هادئ.. بشرته البيضاء يطل منها ضوء هادئ مريح يجعلك تمنحه ثقتك بمنتهى البساطة. كانت چين تظن أنها تراه جميلا لأنها تحبه لكنها علمت مع الوقت أن كل من في هذا المكان يحبون هاني ويثقون في نزاهته ونقاء سريرته.. كم كانت تتمنى لو أحبها كما أحبته..

وتنهدت لتقول ضاحكة:

ما فيش فايدة.. عمري يا هاني ما بصيت عليك إلا..

وقاطعها وهو يعلم ما ستقول:

چين.. إنتي أقرب واحدة ليا.. ساعديني.. حاولي تعرفي من ميجو أي بيانات.. باباها لو مات حتروح فين.

وابتسمت چين في مرارة.. لا فائدة.. مازال هاني يفكر في تلك الصغيرة العنيدة وقالت:

كل ما أسألها عن أمها تقول ما عنديش أم.. على العموم هي مش حتخرج من المستشفى قبل شهر يا هاني.. لو ماظهرش حد وباباها جراله حاجة حنتصل بالمختصين ياخدوها..

وقاطعها هاني في ألم:

ياخدوها إزاي.. طيب لما تلاقي حالة والدها تسمح أرجوكي بلغيني يا چين أرجوكي..

بعد لحظات من الصمت قالت:

حاضر يا هاني.. هو بيفوق دقايق وبيغيب.. حاضر.. حابلغك..

وانصرفت چين بعد أن سمعت استدعاء لها لتترك هاني يحتسي قهوته في هدوء، وهو مازال يفكر في الصغيرة التي أجرى لها عملية جراحية منذ أيام.. لا يعلم لمَ تعلق بها قلبه إلى هذا الحد.. إنها لا تتحدث مع أحد سواه لكن كلماتها قليلة كأنها تخاف أن تتحدث.. ثم عاد يهز رأسه وكأنه ينفض منها فكرة تطاردها.. لكن لمَ يطردها؟! لو رحل الأب حقاً.. لو أخذتها منظمة رعاية الطفل سيقدم طلبًا يتبناها به.. إنه بحاجة إلى أنيس.. إنه بحاجة إلى رفيق.. وقلبه لم يدق يوما مثلما يدق كلما دخل غرفة هذه الصغيرة.. لماذا يقاوم الفكرة.. إلى متى سيظل سجين الوحدة والتردد.. ولكن.. لينتظر قد يشفى الأب.. من يعلم.. من يعلم؟!

ä ä ä

أغلق عمر حقيبته في هدوء ونظر إلى هاني في حزن.. اليوم مساء سيعود إلى القاهرة.. كان يتمنى حقا لو عاد هاني معه لكن يبدو أنه لا فائدة.. وابتسم هاني ابتسامة صغيرة وتنهد قائلًا:

حاول تجيب مها والأولاد وتيجوا تقضوا معايا أي أجازة يا عمر..

وقال عمر وهو يحاول أن يكون مرحًا:

مها والأولاد بعد كل الهدايا اللي انت باعتها ليهم طبعاً حيموتوا وييجوا يعيشوا معاك..

وقاطعه هاني في صوت خفيض:

إنت بتقول إيه.. دول ولادي.. يللا قوم نخرج أنا واخد أجازة النهاردة عشانك.. يللا نشوف يمكن نفتكر حاجة ناقصة نجيبها..

كان الصديقان يتحادثان ولكن غصة ما كانت بقلب كل منهما.. عمر كان يتمنى حقاً لو كان باستطاعته أن يعود بهاني إلى مصر لكي تشفي جراحه القديمة من الوطن، ولكن ما عاد هناك شيء يمكن أن يفعله معه.. ليته يعود.. هاني كإنسان بإمكانه أن يفعل الكثير على أرض مصر وهاني كطبيب من أكبر استشاري جراحة العظام وبإمكانه أيضا أن يفعل الأكثر لكن هذا اليأس بحاجة إلى شيء أكبر من الصداقة ليقتحمه.. شيء لا يقوى عليه عمر..

أما هاني فكانت غصته أكبر.. بعد رحيل عمر سيعود وحيداً رغم صداقاته، رغم نجاحاته.. رغم حتى كل علاقاته بالكثير من أبناء الجالية المصرية.. إلا أن عمر جاء يحمل عبق مصر.. عبق شبابهما وذكرياتهما.. عبق تلك الأيام الجميلة والمغامرات السعيدة في الجامعة والزمالك وشواطئ العجمي والإسكندرية.. لكن عمر له عمله.. له بيته.. له حياة بأكملها.. حياة لم يعد هاني جزءاً منها بل أصبح جزءاً من حياة أخرى.. حياة برّاقة هادئة هانئة لكنها خاوية لا روح فيها..

وأفاق هاني على صوت هاتفه الصغير ليقول في دهشة:

يا خبر.. دي چين..

وقاطعه عمر في غضب لم يعنيه:

مش ممكن يكونوا حياخدوك.. دا أنا فاضلي ساعات ما تردش..

وقال هاني وهو يبحث عن هاتفه في جيبه:

لأ.. دا الموبايل بتاعها هي..

قالت چين في صوت متردد:

هاني.. أنا آسفة.. بس الدكتور مروان فايق لكن حالته وحشة.. أنا حبيت أقولك لأني وعدتك..

وقال هاني في لهفة:

أنا جي حالًا..

ثم التفت إلى عمر يرجوه:

عمر أرجوك روح المستشفى الراجل اللي كلمتك عنه فايق.. أنا لازم اتكلم معاه..

وقاد عمر السيارة إلى شارع جامعة تورنتو حيث تقع المستشفى في صمت غاضب قال بعد لحظات منه:

لسه برضه؟! شاغلاك حكاية البنت دي؟!

أجاب هاني في حيرة صادقة:

فوق ما تتصور.. تعالَ معايا..أنا رايح مش بصفتي دكتور.. أنا رايح أتكلم معاه راجل لراجل في محنة.. تعالَ معايا.. أرجوك يا عمر.. أرجوك..

ودخل الاثنان إلى المستشفى وهاني يسرع بخطواته كأن شيئاً لا يعرفه يدعوه للركض.. شيء لا يفهمه، كل ما كان يسكن رأسه تلك الصغيرة وعينها التي كلما نظر إليها شعر بها تناديه وتطلب منه ألا يتركها أبداً..

ودخل الاثنان إلى غرفة مروان ليجدا چين وحدها هناك في انتظارهما ثم هزت رأسها في حزن كأنها تخبر هاني بأن الرجل رحل أو كاد واقترب هاني منه ليجده مغمض العينين وقبل أن يجلس إلى جواره ضغط عمر على ذراع هاني في قوة قائلًا:

هاني أنا أعرف الراجل دا.. أعرفه كويس لكن مش فاكر يبقى مين..

وفتح مروان عينيه.. ونظر إلى هاني في عينيه وقال في صوت خفيض ولأول مرة باللغة العربية وبلهجته المصرية:

إنت مصري؟!

وجلس هاني إلى جواره وقال في لهفة:

أيوة.. أنا الدكتور هاني حمزة رأفت.. جيتلك قبل كده.. إنت مصري؟!

وعاد مروان يسأله في تثاقل:

ماجي.. شفتها؟!

وتنهد هاني في لهفة كأنه فتح له الباب الذي طال وقوفه عليه ثم قال:

بنتك كويسة جداً وجت شافتك كذا مرة.. لكن نتصل بمين.. نكلم مين.. أمها فين..

كان مروان مجهدا وإصاباته بالغة، وكان يعلم بحس الطبيب أن حالته متأخرة لكنه أيضا كان متردداً يسكنه الأمل ككل البشر في أن يجتاز الأزمة فهل يبيع السر ولكن هل يقامر بحياة ميجو.. إنه مشوّش لا يفهم كل ما يسمع لكنه يعلم ماذا يجب أن يقول ومد يده في تثاقل محاولا الوصول إلى يد هاني وهو لا يرى عمر الذي كان مازال ينظر إليه وهو يحاول أن يتذكر أين رأى هذا الرجل وخرج صوت مروان متقطعاً ضعيفاً بعد أن منحه هاني كفه في إشفاق حقيقي ليسمعه يقول:

ميجو تبقى حفيدة مصطفى.. الدكتور مصطفى.. اوعدني تسلمها له في مصر أو تكلّمه.. الدكتور مصطفى سالم..

وعاد هاني يسأله:

دكتور إيه.. منين في مصر.. طب تخصصه إيه؟!

وابتسم مروان ابتسامة خفيفة ساخرة غاب بعدها عن وعيه من جديد وانحنت چين ترجو هاني أن يتركه ونهض هاني لينظر إلى وجه عمر في دهشة حقيقية.

كان عمر يبدو مذعوراً لا يصدق ما يسمع لكن هاني أمسك بذراع چين يرجوها أن تتصل به في أي وقت كان إن عاد مروان إلى وعيه مرة أخرى.. وحين سمعه عمر يرجوها قال له في صوت خفيض:

الجدع دا اسمه أيه؟

والتفت هاني إليه وهو يتذكر كلماته حينما رأى مروان ليقول في لهفة:

دكتور مروان سعد.. إنت قلت إنك تعرفه..

وجذب عمر هاني من يده قائلا:

أيوة.. مروان سعد الدين.. يللا يا هاني من هنا.. أنا حاقولك الحكاية كلها..

في الطريق كان عمر يحكي لهاني كل ما يعرفه عن مصطفى سالم.. عن قصة زواج ابنته.. عن مروان.. عن الصغيرة.. عن كل ما كان يسمعه وكل ما تردد في الأروقة الطبية عن قصة مصطفى سالم وابنته واختفاء ابنتها الصغيرة.. وعندما أخبر عمر هاني عن جنسية فريدة الفرنسية صاح هاني قائلا:

أيوة أنا شفت الست دي في التلفزيون من سنين وشفت جدتها مدام أوليه على تي في سانك كذا مرة بتتكلم عن الحكاية.. ياه. عشان كدا أنا باقول شفت البنت الصغيرة دي فين.. ياه يا عمر هي الدنيا صغيرة قوي كده.. ياه..

وقال عمر:

انت عارف إنهم كانوا عاملين مكافأة كبيرة للي يدلهم على مكان البنت..

والتفت هاني إلى عمر ليقول في حزم:

لأ يا عمر.. اوعدني إنك تسيبني أنا اتصرف في الموضوع أرجوك.. اوعدني..

نكّس عمر رأسه وهو مازال لا يصدق أن القدر وضع بين يديه أحد خيوط قصة كانت على لسان كل طبيب وممرضة. لقد التقى مروان أكثر من مرة في كثير من المؤتمرات الطبية.. كان دوماً يعامل الجميع بمنتهى الغرور والاستعلاء.. وابتسم في سخرية.. ذاك المغرور يحتضر ولا يطلب سوى مصطفى.. مصطفى الذي اختلسه وجعل منه ومن ابنته قصة تتناقلها الألسن.. حقاً.. الدنيا صغيرة رغم اتساعها.. الدنيا تعلم كيف تذل وتسحق في لحظات.. ثم قال في هدوء:

حاضر يا هاني.. أوعدك..

كان هاني شارداً برأسه لحظات ثم عاد يسأل:

ليه مروان ما قلش أم البنت.. ليه قال مصطفى وليه مصطفى لما أنت بتقول إنه اكتشف اختلاساته.. والأهم ليه ميجو نفسها بتقول إن ما لهاش أم.. فيه إيه؟!

عمر.. أديني تلفونات الراجل دا أرجوك..

وضحك عمر قائلًا:

أنا أعرف موبايل مصطفى سالم الشخصي تبقى اتجننت.. دا عنده خمس مساعدين.. مساعدين دكاترة كبار.. اساتذة.. لما أوصل بكرة حاجبلك نمر المستشفى عايزني أروح اقابله وأقوّله على حفيدته..

لكن هاني قاطعه في حزم وقوة قائلًا:

لأ يا عمر أوعي تعمل كده.. أنا حتى لو طلبت المستشفى عمري ما حاحكي لحد على حكاية ميجو.. لازم أعرف الحقيقة الأول.. هات أنت أي معلومات ونمر تقدر عليها لغاية أنا كمان ما شوف حا أعمل إيه معاها هنا.. أوعدني يا عمر.. ولا حتى مها مراتك تعرف حاجة..

أوعدني يا صاحب عمري.. أوعدني!!

ä ä ä

نظرت چين إلى هاني وهو يخطو من أمامها على عجل بعد أن ألقى عليها تحية الصباح.. لقد أصبح من الطبيعي أن يحضر مبكراً عن موعده كل يوم ليقضي الوقت مع تلك الصغيرة.. إنه حتى لا يختلس بعض الوقت من موعد عمله ليقضيه معها لكنه يقتطع من وقته الخاص.. هذا هو هاني.. يقدس عمله.. ساعات العمل من أجل العمل.. إنه يأتي مبكراً من أجلها ثم يقضي ساعة الغداء معها وأحيانا يقضي معها ساعة أخرى بعد انتهائه من عمله.. لكن هذا الصباح يبدو وجهه مهموماً خائفاً.. ترى ما الذي دار بينه وبين مروان وصديقه الذي جاء معه.. لقد كانوا يتحدثون العربية ولم تفهم حرفاً مما دار لكن وجهه بالأمس كان يقول الكثير، ووجهه هذا الصباح يقول الأكثر.. ثم عادت تطرق برأسها وتفكر من جديد كم تحب هاني.. كم كانت تتمنى لو أحبها كما أحبته.. لقد كانت بينهما قصة ذات يوم لكنه أبداً لم يخدعها.. كان واضحاً صادقًا لقد أخبرها يوم قالت له وهي بين ذراعيه في بيتها لما لا يتزوجا..

قال لها في هدوء إنه لا يستطيع أن يتزوج امرأة من غير وطنه.. إنها لا تنسى كيف ابتسم في مرارة بعدها عندما أضاف أنه يشعر أنه لن يتزوج أبداً لأنه لا يظن أنه سيعود إلى الوطن مرة أخرى..

منذ ذلك اليوم لم يدخل بيتها.. ثلاثة أعوام منذ تلك الليلة لم يلمسها وتحوّل كل ما بينهما إلى صداقة هادئة رقيقة يحرص فيها هاني دوما على مشاعرها، لكنها هي مازالت حتى اللحظة تحبه وتتمناه.. بل إنها طلبت منه أن تعود علاقتهما كما كانت ووعدته أنها لن تتحدث في موضوع الزواج مرة أخرى.. يومها ضمّها هاني في حنان وقال إنه يخجل أن يأخذها وهو يعلم أنها أرادت الزواج وهو رفض.. قال لها في حنان إنه دوماً سيبقى إلى جوارها صديقاً وأخاً.. وتنهدت إنه على حق.. سيبقى دومًا كل شيء كما كان.. ستبقى العمر تحب هذا الرجل الذي جاء من الشرق البعيد.

ä ä ä

بعد طرقات صغيرة دخل هاني إلى غرفة ميجو ورآها تدفن وجهها في الوسادة كأنها تتظاهر بالنوم واقترب منها في لهفة وقلبه يدق في خوف من كل ما ينوي أن يقول ومن كل ما يمكن أن تقول هي.. ولم ترد ميجو على ندائه.. فجلس على حافة سريرها ووضع يده على كتفها.. كانت ذراعها مازالت في الجبس منذ تلك العملية الثانية التي أجرتها وعاد يقول في هدوء:

ميجو.. صباح الخير؟!

ورفعت الصغيرة رأسها في هدوء ليرى في عينيها آثار قطرات من الدموع حاولت ان تخفيها وقالت في خوف حاولت أن تخفيه أيضاً:

أنا رحت شفت پاپي.. مش حيعيش؟!

ونكس هاني رأسه في حزن حقيقي ثم قال:

حالته صعبة.. لكن يا ميجو مافيش مخلوق على وجه الأرض يقدر يعرف مين حا يعيش ومين حيموت..

واعتدلت ميجو لتجلس وتستند بظهرها على سرير المستشفى ثم نظرت إلى عيني هاني.. هي أيضا لا تعلم لماذا تحب هذا الرجل.. لماذا تطمئن كلما دخل إليها وجلس إلى جوارها.. لقد بحثت عنه كثيراً في كل مرة رأت فيها مروان في غيبوبته. كانت تتمنى أن تراه لترتمي على صدره لكن ها هو الآن أمامها ولا تستطيع أن ترمي بنفسها بين ذراعيه.. إنها لا تفهم ماذا يحدث ولكنها تعلم أنها خائفة مذعورة لا شيء يهدئها إلا وجود هذا الرجل معها.

وجاءها صوت هاني الهادئ يقول:

ميجو.. ليه ما قلتليش إنك مصرية زيي؟!

ورفعت ميجو عينيها في ذعر حقيقي لكنها لم تعرف ماذا تقول.. كان خوفها أكبر من أن تجد ما تقوله.. وعاد هاني ينظر في عينيها الزرقاوين العميقتين ثم مد أصابعه ليربت على كفها في حنان ونظر إلى عينيها بثبات قائلًا:

ميجو.. أنا اتكلمت مع باباكِ إمبارح بالليل.. ميجو أنا عرفت اسم مامتك وجدك..

وتلَّون وجه الصغيرة بالغضب لتقول في حدة:

قلتلك إني ما عنديش أم!

وقال هاني بنبرة قوية لكن في صوت هادئ:

لأ يا ميجو إنتي عمرك ما قلتيلي إن ما عندكيش أم..

إنتي قلتي لچين.. لكل الممرضات والدكاترة.. لكن أنا لأ.. أنا كل ما كنت أسألك السؤال دا ما كنتيش تردي.. عارفة ليه.. لأنك مش عايزة تكدبي عليا.. لأنك عارفة وواثقة إني مش باكدب عليك وإني فعلًا مهتم بيكي.. ميجو؟!

ونظرت إليه من جديد بعد أن بدأت قسمات وجهها تهدأ ليطفو عليها الخوف والحيرة من جديد لتسمعه يقول:

أوعدك.. أوعدك يا ميجو إني مش حاسيبك ولو حصل أي حاجة حافضل جنبك حتى لو مش عايزة مامتك فعلًا وحصل حاجة لباباكي حاخدك تعيشي معايا لو وافقتي طبعاً.. أنا حكتلك قبل كدا قد إيه أنا وحيد.. لكن لازم أفهم يا ميجو..

ساعديني.. أرجوكي..
وقالت بعد أن بدأت دموعها تهطل في هدوء:
هو پاپي خلاص.. خلاص مش حا يعيش..
وقال هاني في حزن وهو يعلم قسوة ما يقول:
ما عرفش يا ميجو.. لكن حالته متأخرة جداً.. بس برضه لازم إحنا نبقى عارفين حنعمل إيه.. حتى لو فضل هو في المستشفى يا ميجو.. إنتي حتروحي فين؟!
قاطعته ميجو بكل براءة أعوام عمرها التسعة:
عندك.. أنت مش قلت إنه ممكن آجي عندك.
ونظر إليها هاني وكأنه يتمنى حقاً لو يأخذها منذ هذه اللحظة إلى بيته إلى حياته.. لكنه نكّس رأسه من جديد ليقول في صدق:
الموضوع مش بالسهولة دي.. أخدك بصفتي إيه..
وقاطعته في غضب:
بس أنتَ قلت..
وعاد يقول بسرعة:
أيوة يا ميجو.. الكلام دا لو.. وبعدين لازم حيكون فيه إجراءات وورق.. الموضوع فيه شهور شهور طويلة ومحامين.. إنت أمريكية يا ميجو.. أرجوك احكيلي فيه إيه..
وفتحت الصغيرة صندوق أسرارها.. فتحت قلبها الصغير وتحدثت في حزن وكره بعيد لا تفهم كيف أصبح عملاقا إلى هذا الحد.. تحدثت عن فريدة.. عن امرأة كرهت مروان لأنها تحب رجلًا آخر كانت على علاقة قديمة به.. رجلًا طلبت من مروان الطلا من أجله وحين رفض لأنه يحب ابنته قام جدّها مصطفى سالم بتلفيق قصة اختلاس وسرقة له.. أخبرته كيف هرب مروان بها خوفاً منهم وخوفًا عليها..
أخبرته عن أعوام من الشقاء والهرب والرحيل من ولاية إلى ولاية.. من مدرسة إلى مدرسة.. أخبرته عن خوفها من أن يعلما مكانهما.. أخبرته كيف لم يكن أبدا من الممكن أن تستمر في حياتها صداقة مع طفل أو طفلة.. لأنها كانت تعلم أنهما بعد كل فصل دراسي أو عام يجب أن ينتقلا إلى مكان جديد لتبدأ رحلة طويلة من البحث عن عمل في مستشفى جديد لمروان وبيت جديد ومدرسة جديدة وجيران مختلفين.. وأيضاً علاقات نسائية جديدة لمروان الذي لا يستطيع أن يتزوج لأنه يعلم أنه لا امرأة تحتمل الهرب معه، ولم يكن يستطيع أن يستقر لأن ميجو هي الأهم ومن أجلها كان يجب أن يحتمل هذا الشقاء..
كانت ميجو تتحدث بألم أكبر من عمرها.. بخوف أكبر من طفولتها وبكره حقيقي لمصطفى وفريدة.. كره لم يتخيل هاني أبداً أن يراه يوم يسكن قلب طفلة في عمرها ولمن؟! لأمها ومن الذي زرع بها هذا الكره؟! رجل وطبيب من المفترض أنه على درجة من الوعي والرحمة تمنعه من ذلك.. ورغم أن هاني شعر أنه يكره فريدة.. يكره مصطفى فإن كرهه لمروان كان أكبر.. حتى إن كان على حق ليس أبداً من العقل أن يضرم في أعماق طفلة كل هذا الصراع وأفاق على صوتها بعد لحظات من صمتها وهي تقول:
فريدة وباباها همَّا السبب.. لو پاپي مات حيكونوا هما اللي قتلوه.. أنا باكرههم..
ورفع هاني عينيه في إشفاق وهو يقول:
ميجو.. انتي مش فاكراها؟!
وقالت ميجو بعناد الأطفال.. بصدق الأطفال:
لأ.. ومش عايزة افتكرها ولا أسمع عنها حاجة..

لو پاپي جراله حاجة وأنت ما أخدتنيش عندك.. أنا حاطلب من لجنة رعاية الأطفال توديني أي مكان.. لكن عمري ما حاكون عايزة أشوفهم أو أعيش معاهم.. اوعدني انه عمرك ما تكلّمهم..

وبعد صمت قال هاني:

أوعدك يا ميجو إني لو اتأكدت من اللي قلتيه.. عمري ما أخلي حد فيهم يشوفك أو يلمسك.. أوعدك ان دا لو حصل حتكوني معايا عمري كله انت وباباكِ لو خف إن شاء الله..

كان يريد أن يمنحها الأمل لكنه كان يعلم أن نجاة مروان هي أمل ضعيف كضعف هذه الصغيرة وضعف حيلتها..

وعاد ينظر إليها في حنان ثم قال وهو يحاول أن يكون مرحاً:

قولليلي.. بتعرفي تتكلمي عربي؟! نفسي اتكلم معاكي عربي علشان ما حدش يفهمنا وعشان افتكر مصر.. مصر حلوة قوي يا ميجو..

بتعرفي؟!

ابتسمت ميجو ابتسامة صغيرة رغم دموعها التي مازالت تبلل وجنتيها وقالت باللغة العربية:

شوية.. شوية صغيرة!!

ä ä ä

أسابيع تمر وهاني يحادث عمر كل يوم تقريبا.. عمر يجمع له الأخبار.. فريدة لم تتزوج.. فريدة الجميع يحبها ويحب والدها.. عمر أخبره أن كثيراً ممن يعرفهم حاولوا كثيراً التقرب منها لكن هي أبدا لا تستجيب.. عمر جمّع له قصة كاملة لكنه لم يستطع أبدا أن يصل إلى أرقام مصطفى سالم الشخصية.. بالأمس فقط منحه رقم موبايل فريدة ومنذ تلك اللحظة وهاني حائر.. لا يعلم كيف يحادث امرأة.. أماً ليخبرها أنه يعلم أين ابنتها لكنه يرفض أن تراها حتى يعلم الحقيقة.. ماذا يقول.. كيف يقول لكن ميجو يجب أن تغادر المستشفى خلال أيام.. مازالت المسكينة تكره أن تتحدث عن فريدة ومازال مروان في غيبوبة كاملة لا يفيق منها أبداً. لا بديل أمامه.. يجب أن يحادث هذه المرأة.. من يعلم قد تكون هي الأخرى مظلومة كما ظلمت الأقدار ميجو ونظر إلى الساعة الموجودة إلى جوار سريره.. إنها السادسة مساءً.. إنها الواحدة صباحاً في القاهرة.. ربما كان الوقت متأخرا لكنه لم يعد يستطيع أبداً أن ينتظر.. الآن وإما أبدا.. والتقط هاتفه الصغير وبحث عن رقمها الذي سجّله عليه ورن الجرس. هل ترد امرأة على رقم لا تعرفه في الواحدة صباحا.. لكنها ليست امرأة عادية إنها طبيبة.. وقبل أن يغلق الخط جاءه صوت هادئ لا يخلو من الدهشة رغم جماله يقول:

أيوة...؟!

وشد هاني نفساً عميقاً من صدره ليسألها إن كانت الدكتورة فريدة مصطفى سالم وعندما أجابت بالإيجاب قال في هدوء وهو يحاول أن يراها بأذنيه:

أنا الدكتور هاني رأفت.. مصري كندي.. أنا آسف إذا كان الوقت متأخر بس الحقيقة الموضوع مهم جداً.. دكتورة فريدة أنا حاولت أوصل لتلفون الدكتور مصطفى الشخصي وفشلت.. أنا عايز أكلمه ضروري..

والتقط أنفاسه وقال:

دلوقتِ.. دلوقتِ يا فريدة هانم..

وشعر أن لحظات صمتها ساعات لكن جاءه صوتها مرة أخرى تسأل في أي شيء يريده طبيب من كندا في الواحدة صباحا واحتار هاني ماذا يقول.. هل يخبرها؟! لا يقوى أبداً أن يفعل ذلك.. إن كانت كما تقول ميجو هو لا يقوى على اكتشاف قسوتها وإن كانت كما يتمنى ويشعر إنها تكون فهو أيضا لن يقوى على سماع لهفتها وحيرتها فقال بصوت خفيض حائر:

صدقيني يا هانم.. الموضوع أهم من أي مواعيد وأي مسافات.. أرجوكي تصدقيني.

وأطرقت فريدة برأسها تفكر.. هل يريد العودة ويطلب عملًا في مستشفى سالم.. هل لديه مشكلة ويطلب مساعدة سالم.. لا

تعلم ولكن شيئا يدق قلبها ماذا لو كان هذا الرجل.. وعادت تنفض رأسها في عنف أبداً لن ترتمي تحت أقدام الأمل ثم قالت وهي تحاول أن تكون قوية هادئة:

دكتور هاني.. نمرتك مش ظاهرة عندي.. اديني النمرة وأوعدك إني أقوله وأطلب منه يكلمك في...

لكن هاني قاطعها في إصرار وكأنه يرجوها أن توفر عليه وعلى نفسها وعلى ابنتها المزيد من الحيرة والعذاب:

أرجوكي دلوقتي.. لو نايم صحيه.. فريدة هانم.. لو اتصالي دا طلع تافه أو مالوش أهمية في حياتكم ما افتكرش إن دي حتكون أول مرة حد يضحك فيها عليكي لكن أوعدك إنه مش حيكون.. أرجوكي..

وقفزت فريدة من فراشها.. إنها لا تستطيع أن تقاوم شعور قلبها بالأمل.. إنها لا تستطيع أن تصد هذا الصوت.. وقفزت وهي ترتدي بيچامتها الصفراء على سلالم البيت بسرعة لتطرق باب مصطفى وهي تقول ومازال هاتفها على اذنيها:

پاپي.. پاپي..

وفتحت الباب لتجد مصطفى ينهض من سريره وينظر إليها قائلًا:

إيه يا فريدة فيه حاجة؟!

ونظرت إليه فريدة في خجل واعتذار وهي تقول:

الدكتور هاني من كندا عايزك ضروري..

ومد مصطفى يده ليلتقط هاتفها وهو يقول:

هاني مين؟ أنا ما أعرفش حد في كندا..

وجلست فريدة على حافة السرير إلى جوار مصطفى لتنظر إلى ماجي التي فتحت عينيها لتحملق في وجه فريدة كأنها تحاول الوصول إلى شيء.

ونظرت المرأتان إلى وجه مصطفى وهو يتحدث.. ثم شعرت كل منهما أن شيئاً ما يسمعه مصطفى يعصف بكيانه لكنه لم يكن يقول شيئاً وفجأة نهض مصطفى من سريره قائلًا:

دكتور هاني.. أنا حاطلبك من أودة المكتب أديني النمرة..

ورفض هاني أن يغلق الخط وسار مصطفى في خطى ثقيلة خارج غرفته ليدخل ويغلق خلفه باب مكتبه ويترك ماجي وفريدة في حيرة كبيرة..

ä ä ä

زحفت دمعة ساخنة ببطء على وجنتي مصطفى وهو ينظر إلى أرقام تلفونات هاني التي كتبها على ورقة صغيرة بعد أن وضع هاتفه إلى جوارها وأغلق الخط..

مازال لا يفهم.. مازال لا يصدق.. من على الأرض يصدق.. إن مصطفى لم يركض ليخبر فريدة بأنه يعلم أين ابنتها.. من يصدق أنه لا يستطيع أن يخبرها بأن ميجو أصبحت حقيقة.. ولكن أي حقيقة تلك التي يخبرها بها.. كلمات الرجل كانت واضحة.. ميجو تكره مصطفى.. تكره فريدة.. وتريد أن تحيا مع هذا الغريب الذي اسمه هاني والغريب يتحدث بنبرة قوية.. إنه يعجز عن اتخاذ القرار.. هل تحتمل فريدة ألم ما سمعه.. هل تحتمل الدخول إلى عالم كبير من الاتهامات والقسوة؟ هل تحتمل طلقات جديدة من الرصاص وبيد من.. بتلك اليد الصغيرة التي أضاعت فريدة أعواماً من عمرها وشبابها في انتظار لحظة لقائها.. ووضع مصطفى رأسه بين كفيه وهو يتمتم:

يارب.. يارب كفاية.. كفاية قوي كده..

هل يسافر وحده كما طلب منه هاني.. هل يسافر ويحاول وحده أن يضع الحقيقة بين يدي هاني وميجو.. أو ربما يفيق مروان ويتحدث ويصبح باستطاعته وحده أن يزيل الوحل الذي وضعه على صورة فريدة في عيني ابنتها..

الرجل على حق.. لن يخبر فريدة.. سيذهب وحده ويحاول.

فريدة لن تحتمل.. هو أيضاً لن يحتمل أن يراها تتكسَّر أمامه من جديد ولكن أي أحمق ذاك الذي يقول إن فريدة مازالت قطعة واحدة..

ورفع رأسه ليسمع طرقات خفيفة على باب مكتبه لتطل ماجي بوجهها الحائر وهي تسأل:

مصطفى.. انت خلصت.. فيه إيه؟!

وقبل أن يفتح شفتيه كانت فريدة تتقدم من خلف ماجي نحوه وهي تنظر إليه بعينيها كأنها ترجوه أن يقول ما تتمناه.

وأرخى عينيه وهو ينظر إلى زجاج مكتبه وإلى هاتفها الصغير وإلى الورقة التي سجّل عليها أرقام هاني من جديد..

وسارت فريدة لتقف إلى جوار مقعده في هدوء وانحنت لتجلس على ركبتيها وهي تدير بكفيها مقعده نحوها وأخذت وجهه بين كفيها وهي لا تستطيع أبداً أن تطرد الفكرة التي تسيطر على رأسها، ورفعها مصطفى بذراعيه لينهض بها ويأخذها على صدره وهو يقول:

أيوة يا حبيبتي.. أيوة اللي أنت حاسة بيه صح يا فريدة..

وانتفض جسدها وهي على كتفيه.. لماذا ليس سعيداً إذن.. لماذا لم يركض ليخبرها.. لماذا لم..؟!

وعاد جسدها ينتفض.. هل.. لن تسأل أبداً.. لكن كيف تستطيع؟!

قالت ودموعها تستجديه:

ورحمة أمي.. لو جرالها حاجة ما تقولش.. ورحمة أمي يا پاپي عندك..

وبكي مصطفى وهو يقول بسرعة:

لا يا حبيبتي.. بنتك بخير يا فريدة.. أنا وأنت اللي متنا في نظرها.. أنا وانت يا فريدة.. الله يسامحه.. الله يسامحه..

واستمعت فريدة.. استمعت إلى كل ما قاله مصطفى..

إلى كل ما سمعه من هاني.. في لحظات تسقط دموعها وفي لحظات تشرد برأسها وهي تتخيل ميجو.. ولحظات تتخيل تلك اللحظة التي تعلم فيها الحقيقة وتعود إلى ذراعيها من جديد.. وأفاقت على صوت مصطفى الخفيض وهو يقول:

أنا كنت ناوي فعلًا أسمع كلامه وأخبي عنك لكن يا فريدة.. دي المعركة الأخيرة اللي لازم تدخليها بنفسك.. المعركة اللي لازم نكون واثقين انك حتكسبيها لأن ربنا ما يرضاش بالظلم أبداً.. أول ما النهار يطلع حنشوف أول طيارة.. صحّ يا فريدة؟!

ورفعت فريدة رأسها وقالت:

النهار مش حيطلع أبداً غير لما أشوفها وآخدها في حضني..

ä ä ä

قبل أن تغلق فريدة حقيبتها مدّت أصابعها لتضع «بوتشي» دب ميجو الصغير الذي لم يفارق ذراعيها ليلة.. لقد تغّير لونه.. ولكن لم تغسله فريدة يوماً.. هناك أشياء كثيرة تحتفظ بها فريدة بغبارها.. بترابها.. أشياء تراها تحمل بصمات خفية لا يراها أحد سواها.. بصمات قديمة لمن أحبت ورحلوا ليتركوها وحدها مع الألم والذكرى والغبار..

سيارتها الفضية ستبقى كما هي.. كم حاول مصطفى أن يشتري لها سيارة أخرى.. كثيراً ولكن كيف ترتاد سيارة سواها.. في تلك السيارة ولدت فريدة يوم أحبت حازم.. في تلك السيارة تمد كفها دوماً لتتحسس المقعد الذي كان يجلس عليه..

إنها حتى لم تقودها يوماً عندما كان يركبها مروان.. كانت تتركه وحده ليتولى القيادة لتجلس هي في المقعد الذي كان حازم يجلس عليه والذي احتلته بعده «ميجو» لا يهمها إن اصبحت قديمة.. فعليها بصمات أصابع رجل أحبته وفتاة هي كل ما بقي لها على وجه الأرض.

بوتشي أيضاً يحمل بصمات ميجو.. بصمات لا يقوى الزمن ولا ترابه على دفنها.. هناك أشياء تبعث في الروح كل يوم أملاً جديداً وإن كانت قديمة..

وتنهدت فريدة وهي تجلس إلى جوار حقيبتها.. يومان منذ عرفت القصة.. يومان فعل فيهما مصطفى المستحيل ليحصل

على تأشيرة لماجي.. يومان أجرى فيهما أكثر من ست عمليات جراحية للحالات العاجلة.. يومان وهي ترسم في كل لحظة فيهما الصبر والهدوء على روحها وملامحها.. يومان وهي تعد ألف كلمة تقولها وألف اتهام تستعد للاستماع إليه..

كم مرة حادثت هاني في يومين؟! عشر مرات.. عشرين مرة.. ربما أكثر تخجل هي كثيراً من كل الأسئلة التي سألتها له.. لم تبك.. لم ترجه.. لم تبرر أو تشرح فقط تسأل.. ميجو.. حالتها الصحية.. في أي عام دراسي هي.. تسأل وهي تحاول ألا تظهر لهفتها.. ليس من حق هذا الغريب أن يرى تمزقها وأنين شوقها وحاجتها إلى ابنتها.

ولكن لما تحاول أن تكرهه؟ الذنب ليس ذنبه ولا ذنب ميجو.. الذنب يبقى ذنب مروان وحده.. وعادت تتذكر مروان.. طالت غيبوبته.. انه عنيد.. عنيد حتى في موته.. وعادت تستغفر الله.. من يعلم قد يعود من جديد..

ونفضت رأسها.. لا يجب أن تفكر فيه.. إنه لا يستحق لحظة واحدة من تفكيرها.. كل لحظات عمرها يجب أن تكون من أجل اللقاء الكبير..

وجاءها صوت مصطفى يتعجّلها للنزول ليتجهوا إلى المطار.. وسارت فريدة إلى باب غرفتها ووقفت بالمرآة تنظر إلى وجهها وابتسمت ابتسامة صغيرة..

في المرآة امرأة جميلة لكن الأهم أنها امرأة قوية تعلم ماذا تريد..

ä ä ä

نظر هاني إلى ميجو وهي تشيح بوجهها بعيداً عنه في غضب كأنها تحاول أن تأخذ قراراً. لقد أخبرها أن فريدة ستصل في الغد.. لقد أخبرها أن فريدة ومصطفى يريدان لقاءها.. لماذا تشعر أن هاني لا يكرههم.. لما تشعر أن هاني يريدها أن تذهب معهم.. لقد تماثلت ذراعها للشفاء تماماً بعد أن أجرى لها العمليات الثلاث.. لم يعد لها مكان في المستشفى ومروان لا يفيق أبداً من غيبوبته ولا حتى لثوان قليلة..

لماذا يتخلى هاني عنها.. لماذا لا يأخذها إذن لتحيا معه.. هل كان يكذب؟

هل صدّق أكاذيب فريدة؟ لماذا لم يصدقها هي.. لا تعلم؟ ولكن ليس بإمكان مخلوق على الأرض أن يجبرها على لقاء هذه المرأة.. ليس بإمكان مخلوق على الأرض أن يدفعها إلى لقاء المرأة التي كادت أن تضع أباها في السجن من أجل رجل آخر.. لن تلقاها.. لن تذهب معها.. لن تدع أحداً أبداً يرغمها على الحياة مع امرأة بلا قلب.. لا أحد حتى وإن كان هاني.. الوحيد الذي أحبته واطمئن له قلبها..

وأدارت وجهها نحوه في غضب وهي تقول:

أنا عايزة الحكومة تاخدني.. أي عيلة تتبناني.. حتى أنت أنا مش عايزة أعيش معاك..

وشعر هاني أنها تصفعه لكنها طفلة.. إنها مسكينة.. من حقها أن تقاوم ما تراه ضدها.. واقترب منها في هدوء وجلس على حافة سريرها ونظر إلى عينيها الزرقاوين الواسعتين وهو يقول:

ميجو.. كلنا بنغلط.. عارفة؟ أنا ممكن أكون غلط وتكوني انت صح.. وتكون أمك زي ما أنت فاهمة ومتصورة.. لكن يا ميجو لو كنت إنتي غلط يبقى إيه..

وقاطعته في غضب لتقول:

يبقى پاپي غلط.. يبقى پاپي كدّاب.. وأنا متأكدة أنه ما يكدبش..

ونكّس هاني رأسه في حزن.. إنها على حق.. لم يترك لها مروان الاختيار.. أحدهما يجب أن يكون كاذباً ظالماً لا قلب له ولا عقل.. لماذا إذن يفترض أن تختار ميجو فريدة التي لا تعرفها ولا تذكرها لتكون هي الصادقة..

ورفع عينيه وشيء كالدموع يكسوهما وقال هو يتحسس كفها الصغير بكل حنان الأرض:

إحنا مش عايزين نحكم على حد فيهم يا ميجو.. إحنا عايزين نديها فرصة انها تتكلم.. إنها تحكي.. زي ما سمعت مروان سنين طويلة.. اسمعي الست اللي جاية من آخر الدنيا عشان تتكلم معاكي.. ميجو.. إيه اللي يجيبها غير حبها.. لو فيه راجل

تاني في حياتها ليه ما اتجوزتش وبقى عندها أولاد تانيين.. ميجو.. أرجوكي.. أنا باثق جداً في عقلك.. أنا مش باقول إن مروان كداب.. لكن ليه ما يكونش فهم غلط.. حد كدب عليه مثلًا.. خاف على نفسه وعليكي وهرب السنين دي كلها بيكي يا ميجو.. لو واجه أمك واتكلم معاها يمكن كانت الأمور اختلفت.. ليه أنت تكرري نفس الخطأ.. قابليها.. اسأليها واسمعيها وأنا وعدتك وبأوعدك تاني إن ما فيش مخلوق على الأرض حيلمسك أو ياخدك غصباً عنك.. أرجوكي يا حبيبتي أرجوكي..

وسقطت من عينيها الصغيرة دمعة ليضع هاني كفه على شعرها الناعم في حنان ورفع بأصابعه وجهها ونظر إلى عينيها قائلًا:

على قد ما أتمنى إنك تعيشي معايا على قد ما أتمنى اننا نعرف إن أمك بتحبك.. الأم شيء جميل.. شيء كبير يا ميجو.. نفسي تعيشيه لأنك أنت كمان شيء جميل وكبير..

ä ä ä

وقفت فريدة تنظر من خلف نافذة غرفتها في فندق «ويستن» الذي يطل على بحيرة انتيريو في هدوء.. لقد وصلت منذ ساعتين ولم تجد هاني في انتظارهم في المطار لقد اعتذر عندما حادثه مصطفى وأخبره أنه سيلحق بهم إلى الفندق بعد أن ينتهي من استدعاء عاجل جاءه من المستشفى.. لقد أخبرها مصطفى أنه سينام قليلًا هو وماجي وطلب منها أن توقظه عندما يأتي هاني، ولكن هاني في الطريق ستنزل إلى لقائه في بهو الفندق وحدها.. يجب أن يرتاح مصطفى.. الرحلة كانت طويلة.. وتنهدت.

طال العذاب.. طال عذاب مصطفى وماجي وميجو المسكينة..

ترى هل تعرفها إن رأتها؟! لقد أصبح عمرها تسعة أعوام.. ورفعت فريدة رأسها تنظر إلى سماء تورنتو الصافية.. هل غفر لها الله.. منذ ذاك الصباح الذي التقت فيه حازم يوم اختفاء ميجو وهي تشعر أن الله يعاقبها.. اخطأت؟! اندفعت؟! ضعفت ربما.. ولكن يارب.. يا من تغفر الذنوب جميعاً.. اغفر وارحم.. وسقطت من عينها دمعة وهي تستدير لتلتقط سماعة الهاتف بعد أن جاءها رنينه وقالت في صوت خفيض:

أيوة.. دكتور هاني.. حاضر أنا نازلة حالًا..

والتقطت مفتاح غرفتها بين أصابعها وأسرعت تخطو خارج غرفتها..

لقد أخبرها أنه سينتظرها على باب المصعد.. وفي المصعد التفتت تنظر إلى مرآته الكبيرة.. لقد كانت ترتدي قميصاً من القطن الأحمر الإنجليزي وجوب رمادية قصيرة تقف على حدود ركبتيها.. لقد نسيت أن تجمع خيوط الشمس فوق رأسها.. مازالت جميلة كما كانت.. ولكن على وجهها يجثم شبح حزن ثقيل لا تخطئه أي عين تنظر إلى جمالها.. وخرجت من المصعد لتنظر حولها بحثاً عنه.. وتقدم نحوها وهو يحاول أن يبتسم قائلًا:

دكتورة فريدة؟!

وابتسمت في هدوء وهي تمد كفها نحوه لتصافحه.. لا يمكن أبداً أن يكون هذا الرجل قاسياً أو ظالماً.. في وجهه صفاء لم تره في وجوه كثيرة وفي عينيه اعتذار صادق كأنه يعرف كل ما تشعر به من ألم وعاد يقول:

حمد لله على السلامة.. أنا آسف كمان مرة إني ما جيتش المطار.

كانا مازالا يقفان في ردهة بهو الفندق وكانت كثير من الأعين تنظر إليهما في لوم.. واستدرك هاني قائلًا:

أنا ما اتغديتش لحد دلوقت.. ممكن نتغدى في المطعم اللي هنا ولا تحبي نستني الدكتور مصطفى والمدام..

وخطت فريدة معه في هدوء وهي تخبره أنها ستتركهما ينامان قليلًا.. ودخل الاثنان معاً إلى مطعم الفندق الرئيسي.. كان المكان رائعاً وكان صوته هادئاً حانياً يساعدها على شيء من الاطمئنان الذي تتوق روحها إليه..

وجلست أمامه على الطاولة التي اختارها.. وطلبت أول ما وقعت عليه عيناها في قائمة الطعام.. لم يكن باستطاعتها أن تخبره ألا شهية لها وهو الذي خرج من عمله إليها دون أن يأكل شيئاً.. وأمسكت فريدة بكوب الشاي في يدها ونظرت إليه وقالت

في هدوء:

دكتور هاني.. عايزة أشوف بنتي..

شعر هاني بألم حاد يشق صدره.. هذه الشابة الجميلة بعد كل هذه الأعوام.. بعد كل هذه الآلام التي حكاها له مصطفى عن رحلة بحثها عن صغيرتها تجلس أمامه وهي ترجوه أن ترى ابنتها.. ليتها تعلم أنه هو أيضاً يريدها أن تراها وترتمي بين ذراعيها.. إن حاجة ميجو لها أكبر. إن عذاب الأطفال وحرمانهم دوماً أكبر..

وتنهد ونظر إليها قائلًا:

فريدة.. أنا ممكن آخدك من إيدك دلوقت ونروح عندها.. لكن لحظة لقاكم بعد السنين دي كلها عمرها ما حتتنسي من قلوبكم.. بنتك لازم تهدا من ناحيتك.. لأنها لو دورت وشها عنك أو رفضت تقعد معاكي أو تسمعك.. حيبقى شيء كبير مش حتنسوه وحتى لو اتنسى.. لا هي حتغفره لنفسها ولا أنتي حتسامحي أبوها عليه.. صدقيني يا فريدة.. انا عايزك الأول تفهمي الوضع كامل وتبقي عارفة أنت حتشوفي مين وتسمعي إيه.. اللي حتشوفيها مش الطفلة اللي اتخطفت من حضنك اللي حتشوفيها مش طفلة عادية.. دي طفلة عاشت فيلم رعب وهرب وخوف وكل دا في عقلها بسببك وسبب الدكتور مصطفى..

وأدارت فريدة وجهها لتنظر نحو البحيرة وهي تقاوم دمعة خانتها لتسقط وليشعر معها هاني بحريق كحرائق الغابات يشتعل في قلبه وقال بسرعة:

أنا آسف.. أرجوكي..

وقاطعته فريدة وهي مازالت تنظر نحو البحيرة كأنها لا تحادثه.. كأنها تحادث ربها أو تحادث نفسها:

من اللحظة اللي خدها فيها ومشي وأنا كل ليلة باحلم باللحظة اللي اشوفها فيها.. أوقات كنت أقول إني خلاص فقدت الأمل ومش حاشوفها.. وأوقات تانية كنت أقول إني حاشوفها وهي عندها تلاتين سنة وحابقى أنا ست عجوزة ما أقدرش أعوضها اللي راح.. وأوقات تانية كنت افتكر إني حاموت وأنا ما أعرفش هي فين.

حاجات كتير.. لكن اللي عمري ما تصورته إني أبقى هنا جنبها.. عارفة مكانها.. وماقدرش أشوفها..

أخاف من لحظة لقانا.. أخاف أمد إيدي تصدّها.. أخاف أقولها بحبك تقوللي بكرهك.. ياه!!

ازاي فكرت في كل حاجة واللي يحصل حاجة عمره ما حد يفكر فيها؟!

ودون تفكير.. ودون وعي أو إرادة.. مد هاني كفه الأبيض يربت على كفها الملقي على الطاولة وقال في هدوء:

لأ.. إنتي غلطانة.. الحاجة الوحيدة اللي لازم تفكري فيها.. انها هنا.. انها جنبك.. ان الحيرة انتهت والاسئلة خلاص اتقتلت يا فريدة.. ان بعد ما كان اللي بينكم سنين بقى اللي بينكم خطوة.. بس لازم الخطوة دي تكون صح ومحسوبة علشان السنين اللي جاية.

أدارت فريدة وجهها نحوه لتنظر في عينيه وأرخت عينيها لتجد أصابعها بين كفه.. لم تغضب. لم تعترض.. انها ليست لمسة رجل لكنها لمسة إنسان لإنسان وعاد يسألها:

ممكن تحكيلي يا فريدة؟!

وحكت فريدة.. حكت لهذا الغريب الذي لم تلقه إلا منذ لحظات.. حكت لهذا الرجل الذي تصورت أنها يجب أن تكرهه.. حكت كل ما تعرف وكل ما تتذكر عن مروان ولكن في هدوء وكبرياء.. دون تجريح.. حكت عن رحلة طويلة من الشقاء والبحث.. عن رحلة من الخوف والشوق.. عن رحلة امرأة وانكسار أم.. وآه من شوق الأم وآه من عذاب الابناء..

وامتد الحديث وانهيا طعامهما ولم تنته بينهما القصص.. كان هاني يحاول جاهداً أن يحكي لها كل ما يعرفه، كل ما تقوله ميجو.. كل ما تفعله ثم قال في حنان وخجل:

بصّي.. أنا صورتها على الموبايل بتاعي..

ومد أصابعه إلى جيبه ليخرج هاتفه الصغير وانتفض قلب فريدة كأنه طائر جريح ومد هاني أصابعه إلى فريدة بعد أن

أعدّ لها صورة ميجو ونظرت إليه فريدة في تردد وقالت وصوتها مذبوح:

لأ.. مش أول مرة أشوفها.. تبقى صورة.. بلاش..

ونكّس هاني رأسه وقبل أن يعود بهاتفه إلى جيبه مدت فريدة أصابعها البيضاء الرقيقة لتأخذه وكأنها لا تقاوم.. لم يعد فيها قوة على المقاومة لأي شيء كان.. ونظرت وهي لا ترى شيئاً.. كان كل شيء في قلبها وجسدها ينتفض.. وعادت تنظر من جديد.. انها جميلة.. انها قطعة منها.. وتمنت لو تحتضن ذاك الهاتف تمنت لو تقّبل شاشته الصغيرة لكنها ابتسمت في هدوء وقالت في كبرياء:

عندك حق.. كفاية إني باتنفس الهوا اللي بيعدي عليها..

وانطلق رنين هاتف هاني ومنحته الهاتف في هدوء وعندما اجاب سمعته يقول بالعربية:

أهلًا وسهلًا.. أيوة يا دكتور مصطفى.. لأ.. لأ حضرتك ما تقلقش فريدة هانم هنا معايا.. إحنا في مطعم الأوتيل.. يا ريت اتفضل..

ä ä ä

طال لقاؤهم الرباعي في مطعم الفندق.. مئات القصص تتخللها بعض التعليقات الهادئة الظريفة.. وكأنهم أصدقاء منذ أعوام طويلة..

حتى ماجي أحبت هذا الرجل.. لقد أخبرها أنه التقى بأمجد منذ شهور في العاصمة الكندية واتفقا على أن يحادثاه في الصباح التالي..

لقد اشتاقت إليه ماجي كثيراً.. وقررت أن تذهب إلى زيارته قبل عودتها إلى مصر لكنها لن تفعل قبل أن تلتقي بميجو.

ميجو.. التي كانت تشعر وهي تحتضنها أنها تحيا أمومتها التي لم ينعم بها عليها القدر.. وابتسمت وهي تشرد بعيداً عنهم قليلًا إلى أعوام زواجها الأولى.. لقد أخبرها أحد أطباء النساء أنها بحاجة إلى بعض العمليات البسيطة لتكبر فرصتها في القدرة على الإنجاب لكنها لم تشعر أبداً أن مصطفى يهتم بذلك.. كان يكفيه فريدة.. وحالت كبرياؤها دون الإلحاح عليه واكتفت هي أيضاً بفريدة، ولكن بقيت دوماً بداخلها غصّة كبيرة لو أن مصطفى أخبرها مرة واحدة فقط أنه يريد الإنجاب منها.. لو هي أخبرته مرة واحدة كم تتمنى أن تكون أماً.. ربما لتغير كل شيء.

الصمت والكبرياء قد يقتلان أحلام العمر الكبيرة.. وتنهدت الأعوام الأربعة التي قضتها مع ميجو كانت هي أمومتها الحقيقية..

فريدة جاءتها في التاسعة لكن ميجو ولدت بين يديها.. كانت تحملها ليالي كثيرة بين ذراعيها عندما كان طول السهر ينهك فريدة.. كانت تختار ملابسها بل كانت حتى تختار ما ترتديه في أوقات كثيرة وعادت تنظر إلى فريدة.. كانت تعلم انها تترك لها ميجو كثيراً لأنها وحدها تشعر بحرمان الأمومة بداخلها.. ثم عادت تنظر إلى مصطفى وهي تتمنى لو يأتي اليوم الذي تخبره فيه بتلك الغصة البعيدة وقالت فجأة وهي تسمع هاني يتحدث عن ميجو.. قالت وكأنها قررت أن تغلق ذاك الجرح القديم:

ميجو مش بنت فريدة.. ميجو بنتي.. أنا اتحرمت إني أكون أم وميجو اتولدت وكبرت في حضني.. عارفة يا فريدة؟! أوقات لما كنت آخد ميجو علشان تعرفي تنامي.. كانت أوقات تصحي وتعيط.. ما كنتش بارضى أصحيك.. كنت.. كنت أقفل باب الأودة بالمفتاح وأديها صدري.. كنت عارفة انها مش حتشبع لو جعانة.. لكن كانت بتهدى وتنام وأنا.. أنا اللي كنت باشبع وأحس إني أم.

وسقطت دمعة من عين ماجي في وسط صمت الجميع وترقرقت عينا مصطفى بالدمع كأنه سمع ما لم تقله ماجي أعوام عمرها.. ومد ذراعيه ليضعها حول كتفيها من مقعده المجاور لمقعدها وهو يقول:

يا حبيبتي.. انت أمنا كلنا..

ونظر هاني إلى فريدة التي تلألأت عيناها بدموع هادئة تنظر من خلفها إلى ماجي بحب كبير صادق وشعر بأنه يجلس

مع قلوب تنبض حباً وعطاءً كبيراً..

وابتسمت فريدة وهي تحاول أن تقول شيئاً تبدد به الصمت الرهيب الذي أثارته كلمات ماجي وهي تقول:

كل ما كنت اسمع پاپي يندهلك باسمك بعد ما مشيت ميجو.. كنت احس انها موجودة.. اسمك كان بيقويني يا ماجي.. طول عمرك بتقوينا كلنا وبتفوّقينا لما نتوه..

الناس كلها ليها أم واحدة وأنا وبنتي كان دايماً عندنا أمّين.

وقال هاني وقلبه يقفز حناناً وإشفاقاً عليهم جميعاً:

تحبوا نخرج نروح الايلاند سنتر أو نعمل أي حاجة..

وقال مصطفى:

لأ.. كفاية احنا تعبناك قوي.. احنا حنستني تلفونك بكرة الصبح زي ما اتفقنا ونروح نقابل ميجو بعد ما تبلغها.. أنا وفريدة أو فريدة لوحدها.. اللي تشوفه صح قوّلنا عليه.

وهزّت فريدة رأسها بالموافقة.. إنها تثق في هذا الرجل وتطمئن إليه.

ã ã ã

ضم مصطفى ماجي إلى صدره في حنان ورفع وجهها إلى وجهه ومشط شعرها الأسود الملقى على كتفيها وقبّلها قبلة طويلة كأنه يعتذر.. مازالت كلماتها عن ميجو تدق رأسه وقلبه.. كيف كان يغفو إلى جوارها كل هذه الأعوام وهو لا يعلم شيئاً عن هذا الشوق والحرمان الكبير..

ودسّت ماجي وجهها في كتفه وأغمضت عينيها وهمست:

بحبك يا مصطفى.. بحبك قوي..

وقال وأصابعه مازالت تمشط شعرها:

ماجي انت لسة صغيرة في ستات كتير بتخلف في نهاية الأربعين.. لما نرجع.

وقاطعته وعيناها تكسوهما الدموع قائلة:

لا يا حبيبي.. الموضوع دا خلاص.. بس أنا كان لازم أقول.. كان لازم أتكلم بصوت عالي.. أنا دلوقت باتمنى أن فريدة هي اللي يبقى عندها ابن او بنت تانية.. نفسي أبقى أم معاها من تاني..

وابتسم مصطفى وهو يفهم ما تعنيه ماجي وضمّها إلى صدره ليأخذها كما كان يأخذها في أول أيام زواجهما..

وهدأت على صدره العاري ليتحدثا طويلًا وكثيراً ولا حلم لهما معاً إلا تلك اللحظة التي يأخذ فيها كل منهما ميجو بين ذراعيه. نامت ماجي على صدر مصطفى وفي هدوء مال بجسدها على الوسادة المجاورة له وقبّلها قبلة صغيرة على شفاهها النائمة وهو يهمس بحبه واعتذاره من جديد ونام إلى جوارها وهو يضع ذراعه تحت رأسها في حنان.. وفتح عينيه بعد ساعات قليلة وهو يسمع صوت هاتف الغرفة يدق في جنون وانتفض في ذعر ليلتقط سماعة الهاتف وتصحو ماجي هي الأخرى في خوف لتسمعه يقول:

أيوة.. إيه؟! امتى؟! طب ليه.. ليه يارب؟!

أنا آسف قوي.. ربنا يخليك.. أنا في انتظارك.

وانقبض قلب ماجي واستدار مصطفى لينهض عن فراشه وهو يقول:

هاني جي دلوقت.. حاخد حمام وانزل لو تحبي انزلي معانا تحت نقابله..

ونظرت ماجي إلى الساعة الموضوعة إلى جوار السرير.. انها الثالثة صباحاً وقبل أن تسأل كان مصطفى يقول في حزن:

مروان مات.. مات من نص ساعة.. مش عارف ليه كدا البنت دلوقتي حتكرهنا أكتر.. وفريدة يا ماجي حتعمل إيه؟!

ومروان حنعمل فيه إيه.. يتدفن هنا ولا في مصر.. ومين اللي يقرر.. والبنت دي تعرف موته لوحدها ولو قرّبنا منها حيحصل

إيه.. ليه دلوقت ليه يارب ليه..

ونظرت إليه ماجي في ذهول.. انها لا تفهم ولا تعلم..

لا شيء في رأسها إلا طفلة صغيرة تقف وحدها ويقفون جميعاً عاجزين عن الاقتراب منها!

ã ã ã

جلس الرجلان يتحدثان في هدوء وحيرة لا أحد منهما يعلم ما الذي يجب ان يكون.. مصطفى يذبحه الألم على فريدة وميجو. وهاني يأكله القلق عليهم جميعاً وفجأة رفع هاني عينيه لتتبعه عين مصطفى وهو يرى ماجي تخطو نحوهم ولم تكن وحدها.. كانت فريدة إلى جوارها ونهض مصطفى عن مقعده وفي عينيه لوم وعتاب كبير ينظر بهما إلى ماجي واقترب نحو فريدة ليأخذها بين ذراعيه وهو يعتذر.. لكنها كانت هادئة قوية واقتربت ليمد هاني يده ويصافحها قائلًا:

البقية في حياتك.. انا حقيقي آسف جداً..

وجلس الجميع يتحادثون ويفكرون معاً كأنهم أسرة واحدة.. وأعلنت فريدة في إصرار لا يسمح بالنقاش.. مروان يدفن في مصر.. لتجده ابنتها كلما أرادت زيارته.. مروان يجب أن يقام له عزاء كبير فسيبقى دوماً أباً لابنتها.. وحين سأل هاني عن عائلة مروان أجاب مصطفى وهو يعلم أن فريدة لا تعلم شيئاً مما يقول.. أجاب يخبرهم أن مروان لا أهل له.. وأنه عندما وصل إلى والدته بعد أعوام من البحث ظناً منه أن يعرف منها شيئاً عن ميجو وجدها تحيا في لبنان مع زوج وأبناء لا صلة لهم بمروان ولا يعرفون عنه شيئاً بل أخبرته الأم أنها حاولت أن تتصل به لكنه أغلق في وجهها سماعة الهاتف بعد أن أخبرها بأنه لا يريدها لأنه لم يكره امرأة على الأرض كما يكرهها، وأنها ستبقى دوماً سبباً لإيمانه الشديد بأن كل نساء الأرض لسن أقل منها دناءة.

وابتسمت فريدة في مرارة.. ما قاله مصطفى فسّر الكثير مما كان غامضاً عليها.. وجاءها صوت هاني يقول:

أنا مش عارف ازاي أبلغ ميجو..

ورفعت فريدة عينيها الزرقاوين وقالت في إصرار لا يقبل النقاش:

أنا اللي حاقّولها.. أنا الوحيدة اللي حتبلغها.

وقال هاني في تردد:

لكن يا فريدة..

وقاطعته فريدة في حزم:

قبل ما أشوفك.. كنت باقول يمكن تكون نصاب أو عايز تتسلى وتتفرج على حدوتة من حواديت الزمن الغريبة..

قبل ما تشوفني كنت مصمم تاخد بنتي تعيش معاك أو تسلمها للسلطات الأمريكية.. لما اتقابلنا.. لا سألتك ولا كدّبتني.. الصدق ليه ريحة وأكتر ناس بتعرف تشّمها الناس المحرومة منه.. زي الحنان زي الحب اكتر ناس بتحس بيه هي اللي اتحرمت منه.. بتعرفه وبتعرف ان كان صادق ولا لأ.. ومافيش حد في الدنيا دلوقت محتاج للحب والصدق قد ميجو وما فيش حد في الدنيا ممكن يكون صادق فيه قدي أنا.. لو ماعرفتش احسسها بيه.. لو ما عرفتش هي تحسّه.. صدقني يبقى ما حدش تاني ممكن يوصله..

ونكس هاني رأسه في صمت وحيرة واتفق الجميع على الذهاب إلى المستشفى بعد ساعات.. مصطفى بكل أوراقه لينهيا اجراءات استلام الجثة وفريدة للقاء ميجو..

ã ã ã

التقطت «چين» هاني بعينيها وهو يدخل وفريدة تسير إلى جواره واطالت النظر إليها وهي تخطو معه في هدوء.. كانت ترتدي قميصاً أسود وچوپ سوداء.. كلاهما من رالف لورين وتجمع شعرها فوق رأسها وترتدي في قدميها البيضاء «سبادريل» من اللون الأسود ورأتها وهي تخلع نظارتها السوداء بعد دخولها من بوابة المستشفى لتظهر عيناها الواسعة الجميلة وتنهدت چين في غيظ.. إنها جميلة.. لا.. إنها أكثر من جميلة.. كان قرطها الماسي الصغير يبرق في عيون چين كأنه ينذرها بأن هذه

المرأة على علاقة بهاني الذي كان يسير إلى جوارها ووجهه يكسوه القلق، ولكن كل شيء في خطوته كان يعلن أنه يتمنى لو يحتضن هذه المرأة التي تخطو إلى جواره.. وقبل أن يصل هاني وفريدة إلى حيث تقف چين تقدمت هي نحوهما وحيتهما في هدوء والتقت عينا المرأتين لتشعر فريدة هي الأخرى بما شعرت به چين لكنها أرخت عينيها بسرعة وهي لا تفهم ما الذي دق في قلبها حين أخذت چين هاني بعيدا عنها لتحادثه.. وسألت نفسها ما الذي أصابها.. ما الذي يهمها إن كان هاني يحب هذه المرأة أو حتى كان زوجها.. وكيف تفكر في هذا حتى لو كانت تهتم وهي هنا لتستلم جثة رجل وتحيي جثة امرأة في عين وحيدتها.. وشعرت بمصطفى خلفها يربت على كتفيها وقبل أن تلتفت إليه كان هاني قد عاد إليها ليقول في أسف حقيقي:

ميجو عرفت يا فريدة.. عرفت

وقاطعته فريدة:

خدني ليها أرجوك..

وسار هاني بفريدة بعد أن وعد مصطفى بأن يعود إليه في ثوان قليلة ليبدأ إجراءات الحصول على جسد مروان.

وعلى باب ميجو أمسك هاني بذراع فريدة وهو يقول:

فريدة.. أدخل أنا الأول أرجوكي..

لكنها نظرت إليه وعيناها فارغتان من أي شيء سوى لهفتها على صغيرة تتألم وحدها خلف هذا الباب وقالت:

لأ.. ما تخافش أرجوك..

وفتحت فريدة الباب بعد طرقات صغيرة.. دخلت في هدوء لترفع عينيها وترى ميجو تجلس على حافة سريرها تبكي في صمت وشعرت فريدة أن الأرض تدور بها وعادت بظهرها تستند إلى الباب لئلا تقع أمام ابنتها على الأرض.. ونظرت إليها وهي منكسة رأسها الصغير ودموعها تسقط في غزارة وصمت وشعرها الطويل يرقص في حيرة حول جسدها ورفعت ميجو عينيها التي اتسعت بعد ثوان من رؤيتها لفريدة.. من السهل جداً أن تعرفها.. ولم تقل إحداهما كلمة.. كانت ميجو تنظر.. إن فريدة أجمل مما كانت تتصور.. انها أجمل من كل أمهات صديقاتها والتي كانت تختار أجملهن وأكثرهن أناقة لتتمناها أماً لها.. إن فريدة أجمل من كل أم رأتها ولكن هو جمال شرير.. ملامح رقيقة تخفي سواداً أكثر من سواد ملابسها.. ومدت ميجو أصابعها الصغيرة لتمسح دمعها وقالت في صوت خفيض:

پاپي مات.. أول ما حس إنك وصلت كندا مات..

كانت فريدة مازالت تستند إلى الباب.. لم تكن تعرف أبداً أنها سترتجف كقطة مذعورة إلى هذا الحد ولكن كلمات ميجو شقت صدرها وقالت في هدوء وهي لا تجرؤ على التقدم نحوها حتى خطوة واحدة:

أنا آسفة جداً.. حقيقي آسفة..

ووقفت ميجو وهي تشعر أن أمواجاً عالية تتلاطم في جنون داخل رأسها وصدرها. جاءت تتأسف.. جاءت تتشح بالسواد لتقف وتتأسف، ولم تعلم الصغيرة ماذا تقول لكنها تذكرت كلمات مروان التي كان يقولها كلما أخطأت ميجو وقالت إنها آسفة وعادت تنظر إلى فريدة في قسوة وبرود وهي تقول في تهكم ومرارة أكبر من أعوام عمرها التسعة:

آسفة؟! آسفة دي كلمة.. زي سكر.. زي ملح.. زي هوا.. كلمة..

وكأن قسوة ميجو صفعت فريدة لتعيدها من خوفها وضعفها فقالت وهي تقاطعها في قوة وهدوء:

لأ.. آسفة مش كلمة.. آسفة دي إحساس.. دي شعور.. دي تعبير عن ألم..

وقاطعتها ميجو وهي تحاول أن تكون أكثر قوة قائلة:

آسفة على إيه؟ على أنه مات ولا على أنك قتلتيه؟!

وابتسمت فريدة في حزن.. إنها طفلة.. طفلة لن يغسل عن قلبها وعينيها الغشاوة سوى أن تهدأ على صدر أمها ولكن ليتها تستطيع الاقتراب منها وعادت تقول في هدوء:

أنا آسفة لأني ما قدرتش أكون جنبك وإنت بتبكي وحدك.. آسفة لأني واقفة خايفة أقرب منك.. وآسفة أكتر لأنك بتتهميني وأنا مضطرة أدوّر على كلام أدافع بيه عن نفسي.. أدوّر على كلام أثبت بيه حبي وخوفي.

آسفة لأنك مش عايزة تفكّري ولا تحسّي ومش سايبة لحد مننا حاجة غير الكلام... كلام زي هوا وسكر وملح..

كان صوتها هادئاً لكنه كان حزيناً صادقاً ولكن عناد الأطفال دوماً أكبر وعادت ميجو تقول:

أنا مش حعيش معاكي ومش حسافر معاكي ومش عايزاكي تفضلي معايا.. سيبيني لوحدي.. لو الدكتور هاني مش حياخدني اعيش معاه.. انا عايزة رعاية الطفولة تاخدني.. انا مش عايزاكي.. عارفة ليه.. لاني باكر...

وصمتت ميجو ثواني وعادت تقول في اصرار:

لأني مش بحبك..

ورغم الألم.. رغم حد السكين الذي كان يتجول في صدر فريدة إلا أنها عادت تقول:

ليه ما كملتيش الكلمة؟ ليه غيرتيها.. ليه ما قولتيش انك بتكرهيني.. عارفة ليه؟ لأنك مش متأكدة..

لأنك عارفة اني بجد آسفة.. اني حزينة على موت مروان..

ورفعت ميجو عينيها لتنظر اليها في سخرية واضحة ولكن مضت فريدة تكمل:

أيوة.. حقيقي حزينة.. الأب دا شيء جميل ولما يبقى كبّر بنت زيك لوحده خمس سنين يبقى شيء يستاهل نحزن عليه.. لكن حزينة كمان لأنك مش قادرة تفهمي ليه ربنا بيخلق أب وأم برغم انه كان ممكن يكون أب بس أو أم بس.. لكن عارفة بيعمل كدا ليه.. عشان لحظة زي دي لما حد منهم يروح.. التاني يسند الابن.. أنا أمي ماتت وأنا قدك تقريباً.. اتسندت على پاپي.. وقوفك لوحدك مش قوة.. مش حب لمروان ولا اخلاص ليه.. وقوفك لوحدك هو الضعف اللي ما افتكرش ان مروان يبقى سعيد بيه دلوقت.. القوة هي انك تسألي وتسمعي.. القوة إنك تحسي وتتكلمي مش ترددي كلام سمعتيه.

وقاطعتها ميجو بقسوة كأنها ترفض الاستماع إليها أكثر وكأنها تشعر أنها كلما سمعت صوت فريدة أكثر يعلو في قلبها صوت ترفض أن تسمعه:

أنتِ عايزة إيه؟

وتنهدت فريدة وهي تحاول أن تخطو نحوها قليلاً وقالت وهي تنظر إلى عينيها:

عايزاكي.. عايزاكي إنتي يا ميجو.. عايزة اقول اسمك وابقى عارفة انك قدامي.. مش زي كل ليالي السنين اللي فاتت.. اقوله في الضلمة لوحدي وانا نايمة على سريرك.. عايزة اسمعك بتقولي لي يا مامي.. عايزة اقولك إني مش باكره مروان وعمري ما حاكرهه ولا كرهته عايزة امسك ايدك.. عايزة حاجات كتير ربنا خلقني عشان اديهالك وآخدها منك.. عايزاكي ما تحرميش نفسك من نعمة ربنا خلقها علشانك.. عايزة حاجات كتير يا ميجو.. زي ما انتِ عايزة واكتر..

كانت فريدة قد اقتربت من ميجو وأصبحت تقف أمامها.. كانت تشعر بأنفاسها وحرارة جسدها.. انها تقترب طولًا من كتف فريدة.. ورفعت فريدة ذراعها وهي تحاول أن تلمس وجه ميجو بأصابعها الباردة.. كانت تتمنى لو تتدفأ بها ولكن عادت الصغيرة بظهرها إلى الخلف ورفعت عينيها الباكيتين وقالت في عناد وتصميم واضح:

أنا مش عايزاكي.. اطلعي برا يا فريدة.. اطلعي برا.

وتجمدت مشاعر فريدة وشعرت بأن يأس الأرض يصعق رأسها ونظرت إلى ميجو في غيظ وألم لم تعرفه حتى يوم رحيل أمها واستدارت لتخطو نحو الباب، وقبل أن تخرج منه استدارت لتنظر إلى وجه ابنتها في حسرة كبيرة والتقطتها عين ميجو لكنها أشاحت بوجهها عنها كأنها لا تعلم في أي اتجاه تهرب..

وخرجت فريدة ونظرت حولها وهي لا ترى شيئاً وسارت حتى آخر الردهة الطويلة لتقف بوجهها تنظر إلى الزجاج المطل على الشارع وهي تشعر أنها تختنق.. خسرت معركتها.. خسرت كل شيء.. بعد كل هذا الحب.. بعد كل هذا الحرمان لم تعرف كيف تجعل صغيرتها تشعر بها وأجهشت فريدة بالبكاء.. بكاء حاد عنيف وهي ترى وجهها المنعكس في زجاج الردهة لتبكي في

عنف أكثر وسمعت صوتاً حزيناً خفيضاً يقول في لهفة كبيرة:

فريدة.. فريدة.. إيه اللي حصل؟!

ونظرت في الزجاج من جديد لترى وجه هاني يقف خلفها واستدارت نحوه لترى في عينيه لهفة وحناناً لم تر منهما قطرة في عيون ماجي وارتفع أنينها.. كيف تقسو عليها ميجو ويحنو عليها الغرباء وقالت وهي تحاول أن تهّدىء من صوت بكائها:

عنيدة.. عنيدة يا هاني. عنيدة وقاسية..

وجذبها هاني إلى صدره ولم تقاوم.. بل خبأت رأسها في صدره ودفنت شفاهها في قميصه حتى يخبو صوت بكائها وسمعته يقول:

اهدي يا فريدة.. اهدي.. أنا كنت عارف.. كنت عارف.

ولفّ ذراعيه حولها في حنان حتى هدأ بكاؤها وسار بها إلى مكتبه وذراعه مازال حول كتفيها، وهناك رآها مصطفى وعلم منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها لتجلس إلى جواره ما حدث لكنه قال:

فريدة.. سفر مروان حيبقى صعب.. احنا شايفين انه يتدفن هنا في مقابر الـ ISNA اللي تابعة للمركز الإسلامي.. وفيه ورق لازم انت اللي تمضيه بنفسك عشان نستلم ميجو.

ورفعت فريدة عينيها في ذهول.. ميجو.. ثم قالت:

اللي تشوفوه.

وأمسك هاني بكف فريدة قائلًا:

انتِ تخلصي الورق وأنا حاخد ميجو عندي.. فريدة أنا باوعدك قدام الدكتور مصطفى انك مش حتسافري غير وبنتك معاكي.. بنتك اللي حاسة بيك وبحبك ليها.. أوعدك.. بس أرجوكي تمسكي نفسك وما تزعليش منها أرجوكي..

والقت فريدة برأسها إلى الخلف لتسقط بجسدها وتغوص في المقعد الذي كانت تجلس عليه ونظرت إلى السقف وكأنها تستغيث برب السماء..

ä ä ä

وقفت فريدة أمام مرآتها تنظر في يأس عميق وما أن جمعت شعرها بين كفيها لترفعه فوق رأسها حتى تركته يسقط على كتفيها.. لا قدرة عندها حتى لجمعه فوق رأسها..

لم تنم طوال الليل.. يوم الأمس كان عصيباً.

ميجو ذهبت مع هاني وهي عادت وحدها مع مصطفى إلى ماجي التي بكت بعنف.. كانت تعتقد ان ميجو ستحضر معهم.. كانت تنتظر ان تعود فريدة وهي أقل حزناً وانكساراً.. ولكن عاد الاثنان وهما اكثر هماً وضعفاً..

وعادت فريدة تنظر إلى المرآة.. سيذهب الجميع الآن إلى مقابر الـ ISNA لدفن جسد مروان.. لم تكن تريد الذهاب.. ولكن حادثها هاني في المساء ليؤكد عليها ان تذهب.. لا يجب أبداً ألا تجدها ميجو هناك حتى وإن كانت تدّعي انها لا تريد رؤيتها.

ورمت فريدة بنفسها على المقعد الصغير أمام المرآة وعادت تنظر.. هاني.. هل تترك له ابنتها.. هل يمكن أن تسافر وتعود وحدها كما عادت يوماً من أمريكا بعد رحلة البحث والسراب.. ولكن عادت في تلك الأيام لأنها لم تجدها. هل يمكن أن تعود بعد أن وجدتها؟!

ما الذي جناه مروان من كل ذاك الحقد والسواد.. ما الذي تطرحه حقول الكراهية سوى ألغام من الضيا ع..

أين ذهب الأمل؟!

لقد أخبرها هاني انه تحدث كثيراً إلى ميجو.. لقد أخبرها أنه يشعر أن الصغيرة تتمنى ولكنها تخشى وتخاف.. إنها فريسة لكل ما سمعته فريسة لشعور بالذنب والخيانة تجاه مروان إن هي ارتمت بين ذراعي فريدة.. لقد أخبرها أنها سألته عن فريدة ألف سؤال وأنها لم تخف أبداً إعجابها ولهفتها في أن تكون صادقة.. هل يخدرها هاني.. لا تعتقد ولكن لما يكسوها

اليأس.. لما يغمرها الحزن إلى هذا الحد.. لما لا تحاول أن تتذكر أن الفجر لا يولد أبداً إلا من سواد الليل وظلمته..

ووقفت تتجه نحو الباب لتفتحه بعد تلك الطرقات الخفيفة لتجد ماجي أمامها متشحة بالسواد هي الأخرى تخبرها أن «الليموزين» الذي أرسله هاني ليأخذهم إلى المقابر قد وصل..

واستندت إحداهما على الأخرى وكأن كلًا منهما عجوز في السبعين..

ã ã ã

كانت فريدة تجلس أمام مصطفى وماجي في تلك الليمو السوداء التي أرسلها لهم هاني حيث كان مصطفى ينظر إليها في لوعة كبيرة.. كان بداخله إيمان عميق أن شيئاً ما سيحدث.. لقد أخبره هاني هذا الصباح أن ميجو كانت تتحدث إليه طوال الليل عن فريدة.. لقد أخبرها هاني كل شيء.. لقد أخبرها عن رؤيته لفريدة منذ أعوام على شاشة التلفزيون في رحلة بحثها عنها.. أخبرها الكثير وهو يجزم أن الصغيرة تشعر برغبة كبيرة في أن ترتمي بين ذراعي أمها لكن مازال الخوف والعناد يسيطران عليها..

لقد طلب مصطفى من هاني أن يخبر فريدة ليمنحها بعض الأمل، فهي منذ غادرت غرفة ميجو ذاك الصباح في المستشفى ومصطفى يشعر أنها تحيا في عالم أسود من اليأس والإحباط.. تنهد مصطفى وهو يتذكر كيف أخبره هاني أنه أغلق للتو الخط مع فريدة.. لم يكن له أبداً أن ينسى شيئاً كهذا.. هذا الرجل هدية السماء لهم جميعاً.. ثم عاد ينظر إلى فريدة.. فقط لو يغزوها قليل من الإيمان..

كان الطريق طويلًا.. وكانت كلماتهم قليلة متقطعة.. فكلا منهم كان برأسه ألف قصة.. وألف ثورة.. وأمل واحد.. ولهف واحدة..

عندما وصلوا وعندما هبطوا جميعاً من سيارتهم السوداء.. رأت ماجي ميجو تقف بعيداً إلى جوار هاني لتشهق شهقة صغيرة وهي تراها أجمل مما تصورت.. كان وجهها أكثر استدارة من وجه فريدة وتلك الغمازة الرائعة ترتسم بوضوح على منتصف ذقنها الأبيض الصغير.. كانت أكبر مما تصورت وأكثر طولًا من كل ما رسمته لها من صور..

اقترب هاني وحده منهم لتبقى ميجو بجوار الصندوق الذي يرقد فيه مروان.. بقيت وحدها تتفحص وجوههم كأنها تحاول أن تستدعي صورهم من أعوام طفولتها البعيدة.. كانت عيناها تتحرك بين وجهي ماجي ومصطفى ولكنها تقف طويلًا على وجه فريدة..

من بعيد وحين صافح مصطفى هاني نظر إليها.. كان يشعر بألمها.. يشعر بتمزقها وحيرتها.. كان حقاً يتمنى لو يحتضنها كما احتضن فريدة يوم رحيل والدتها منذ أعوام طويلة.. كان يتمنى ولكنه كان يخشى أن يقترب منها لئلا يزيد من ألم فريدة ولوعتها.

أجهشت الصغيرة بالبكاء حين تواري جسد مروان في مثواه الأخير.. عندها أنتفض جسد فريدة وهي تسمع بكاءها، لكن أبداً لم تحاول الاقتراب منها..

وحده هاني كان إلى جوارها يمسك بيدها الصغيرة وهو ينظر إلى فريدة كأنه يرجوها الأمل والهدوء.

كانت فريدة تقف أمامهم على البعيد وهي تبكي في هدوء.. كانت تبكي مروان.. الرجل الذي ظلمها وظلمته معها الأقدار ليظلما معاً طفلة صغيرة.. أحدهما رحل والآخر حكمت عليه الصغيرة بالنفي المؤبد..

عندما رأى هاني دموع فريدة انتفض قلبه.. وبعد لحظات انحنى ليهمس بكلمات قليلة في أذن ميجو لترفع عينيها وتنظر إلى فريدة في ذعر حقيقي ارتفع معه صوت بكائها..

شعرت فريدة عندها أن قلبها يتناثر وهي ترى ميجو تنظر إليها بهذا الذعر، فعادت تنظر إلى هاني الذي انحنى ليهمس بمزيد من الكلمات في أذن ميجو.. ولم تحتمل فريدة.. ما عساه يقول لها؟؟ وتمنت لو تركض إليها.. تمنت لو تسألها ولكن هي أيضاً لا تحتمل مزيداً من القسوة فاستدارت لتخطو في هدوء إلى الليمو السوداء الواقفة بعيداً عنهم وقبل أن تصل إليها سمعت

صوتاً خافتاً يحاول الوصول إليها.. صوتاً يناديها باسمها.. تسمَّرت قدما فريدة في مكانها.. إنه صوت ميجو.. هل تتخيل؟!

كانت ميجو تخطو نحوها عندما استدارت فريدة لتنظر وتستطلع الأمر.. ولم تخط فريدة خطوة واحدة حتى وقفت أمامها ميجو لترفع عينيها اللتين أختبأتا خلف نهر من الدموع وسمعتها تقول:

أنتي حتسافري دلوقتي؟!

رفعت فريدة عينيها في حيرة لتنظر إلى هاني على البعد حيث كان يقف وهزّ رأسه كأنه يخبرها أن هذا هو ما أخبر به ميجو..

كان هاني يريدها أن تشعر بلهفة الصغيرة.. بحيرتها كان يريد أن يمنحها الأمل الذي كانت ترفض الاستسلام له وسقطت فريدة على ركبتيها في هدوء لترفع عينيها ناظرة في عيني ميجو وهي تقول:

صعب جداً أكون هنا وبيني وبينك كل المسافة دي.. صعب قد ما هو صعب أنك تكوني عارفة أن أبوكي هنا نايم تحت الأرض لكن لا تقدري تكلميه ولا تلمسيه.. صعب يا ميجو أكون قدامك ومحكوم عليا بالموت..

كانت ميجو تبكي في جنون وقالت كأنها تطلق سراح الحقيقة التي تخبئها في صدرها:

أنا خايفة.. خايفة يا فريدة..

ومدّت فريدة كفها الأبيض الرقيق لتضعه على ذراع ميجو في حذر وقالت وهي تبكي:

لو وجودي هنا حيخفف من خوفك.. استنني عمري كله.. أنا كمان خايفة يا ميجو.. خايفة أسيبك.. خايفة أرجع لوحدي من غيرك..

وفي تلك الثواني التي كانت تحاول فريدة فيها التقاط أنفاسها شعرت بشوق كبير يدق عروقها لأن تحتضن ميجو فقالت وكأنها تستجديها:

ميجو.. نفسي آخدك في حضني.. ممكن يا حبيبتي؟!

وأسدلت الصغيرة عينيها وقالت وهي تتراجع إلى الخلف:

لأ.. لأ.. أنا مش عارفة..

كم كانت تتوق إلى معرفة ملمس جلدها لكنها نهضت في هدوء لتأخذ بكف ميجو وتخطو بها قائلة:

لازم تعرفي.. تعالي يا ميجو.. علشان تعرفي لازم تقرّبي وتسمعي.. تعالي شوفي ماجي ومصطفى.. لازم تحاولي تعرفي.. صدقيني أما تعرفي حترتاحي..

ة ة ة

سار الخمسة في هدوء وفي قلب كل منهم حب يتمنى أن يطلق سراحه وقبل أن تصعد فريدة إلى الليمو السوداء التفتت تنظر إلى المقابر.

هنا ترقد ألف قصة للحب.. ألف قصة للغربة والألم.. ثم عادت تنظر إلى السماء.. الرحمة دوماً تأتي.. فقط لو ننتظر.. السماء لا تنسى أحداً..

وبعد أن انحنت لتجلس إلى جوار ماجي ومصطفى نظرت إلى هاني الذي كان يحتضن ميجو حيث كانا يجلسان في المقعد المقابل لهم.. نظرت إليهما فريدة في حب وحنان..

مازال الطريق طويلًا.. مازال عناق ميجو ممنوعاً.. مازالت ثقتها أملًا.. لكن من الموت تولد الحياة.. من اليأس يخرج الأمل..

والتقطت كف مصطفى لتحتمي به وتزداد به قوة.. ثم عادت تنظر إلى ميجو.. إلى هاني.. طال شوقهم جميعاً إلى الحب.. هي أيضاً.. طال شوقها معهم إلى الحياة من جديد!!!

ة ة ة

المؤلفة في سطور

نور عبد المجيد خطاب

عملت كمسؤولة تحرير مجلة «مدى» السعودية لمدة عامين.

لها مقال أسبوعي بمجلة «كل الناس».

لها بالاسواق ديوان «وعادت سندريلا حافظة القدمين».

لمراسلة المؤلفة:

e-mail: noor4corners@yahoo.com

تمت

